كلمة العدد

د. علي القيم
رئيس التحرير

أنطوني كوين
حلّق كنسر في عالم الفن الجميل

ذاكرة العالم، تختزن صورته باعتباره أبرز نجوم العالم، هو الممثل العملاق «أنطوني كوين» صاحب الأدوار الشهيرة المحفورة بقوة في الذاكرة، مثل: «زوربا اليوناني» و«عمر المختار» و«الرسالة» و«لورانس العرب» و«فيفا زاباتا» و«لاسترادا» و«أحدب نوتر دام» و«مدافع نافارون» و«رغبة الحياة» وغيرها.. إنه الرجل الصاخب المحب للحياة، صاحب الرصيد الهائل من الأفلام العالمية المميزة والمتنوعة، مابين تاريخية واجتماعية وحربية وكوميدية، والتي قلّما نجدها لدى ممثل واحد، هذا الكمّ الهائل من التنوّع والعطاء الفني المستمر والذي تجاوز عدده /١٤٠/ فيلماً..

لقد أحسنت المؤسسة العامة للسينما صنعاً، وضمن سلسلة «الفن السابع» عندما قامت بترجمة ونشر السيرة الذاتية لهذا الفنان الكبير، الذي ولد في ٢١نيسان عام ١٩١٥م، ورحل عن عالمنا في الثالث من حزيران عام ٢٠٠١م، وقد صدق الأستاذ المترجم عبد الرزاق العلي، عندما قال في مقدمته إنّ حياة أنطوني كوين تصلح

أن تكون فيلماً شاملاً، فيه «الميلودراما» والعواطف والنجاح الباهر، والفشل الذي فيه الكثير من المكابرة أحياناً، ونقد الذات الحقيقي.. حياة إنسانية شاقّة، وحياة مهنيّة صعبة متقلّبة.. صعود إلى القمة وهبوط وفترات قلقة، وفجأة وميض جديد مدهش..

يبدأ أنطوني كوين رواية سيرته الذاتية، بالرياضة الصباحية على الدراجة، فها هو يحلّق كنسر، ويطير وذراعاه ممدودتان، وجسده يشق طريقه في مجاز بديع خلال نسيم هو صانعه نتيجة اندفاعه، وبينما يحلّق بين الغيوم، يعيش الانتعاش، وتغمره النشوة.. ولكن يا حسرة، هو ليس نسراً، إنه مجرد رجل عجوز على دراجة بيضاء يسير هابطاً التل.. وهاهو ينجذب إلى الأرض من خلال ما يفعل.. الرحلة على وشك الانتهاء، وبينما يقود دراجته، كان يفكر بالحرب وهمنغواي.. إنه واحد من تلك الأشباح حيث عاش حياته محارباً، وتسكن ذاكرته على دروب الحروب.. لماذا همنغواي؟ هنا؟ والآن؟ إنه يفكّر بلعب دوره على المسرح، وقد استحوذ على تفكيره الطريقة التي عاش فيها ومات، طلقة إلى رأسه ومن الممكن أن تكون خلفه.. لكنه لا يستطيع أن ينتقص من قيمة انتحار الطف، من يعلم ماذا يخبئ له الغد؟ مع همنغواي لم يكن قد بقي شيء.. كان قد ضاع من دون ذكرياته وخياله، ويمكن أن يكون معه الأمر نفسه..

ويواصل ركوب الدراجة.. كلّ أفكاره تدور حول الموت، بينما جولته تدور حول الحياة.. هو في حالة انتقال، وبينما يتصور الكيلومترات الأخيرة من جولته، يفكّر مليّاً أين كان وأين هو ذاهب، وكل ما يهمه ويعنيه هو هذه المراحل الحياتية المتقطعة التي يمكنه أن يديرها ويسيطر عليها، ولكي يفعل ذلك لابد أن يحيا ويسعى وينتقل.. يريد أن يحافظ عليها مديدة يريد أن يسمع أصوات أطفاله، ويرى بسمة الرضى على وجه امرأته.. يريد الحياة بما هي، بأوجاعها ومخاوفها

أيضاً، لأن هذا هو معنى الحياة الحقيقي، وهذا ما يجب أن نعيش من أجله.. نعم الحياة بالنسبة لأنطوني كوين، هي ما يقبض عليها بجواسه.. له كامل الحرية، أن يتذوّق، أن يلمس.. إيقاع الحياة كامن في رجليه وهو يصعد التلال، متحركاً عبر المدى، والدراجة امتداد لذاته، وهو مثل عدّاء مسافات طويلة يجري بسلاسة «ميكانيكياً» مع الأيام..

❁ ❁ ❁

في سيرته الذاتية، نلمس بقوة أن أنطوني كوين، لم يتآلف أبداً مع لعب دور الأجداد، أو الشخصيات الذاوية الهامشية.. ذكرياته الأولى هي الأكثر حضوراً وإشراقاً، يوجد صورة له وعمره ثمانية أشهر جالساً على ركبة والدته في محطة القطار في «تشيواوا» حيث ولد في المكسيك، وكانت أمه تبحث عن والده.. «لقد بقينا نبحث عن والدي، وهذا ما فعلناه دائماً، وأتذكر جيداً الحركة والفوضى عندما تتوقف القطارات، الجنود والعائلات، القادمين والمغادرين، لكن من دون إشارة على وجود والدي».. من عمر ثلاث سنوات، بدأ يساعد أمه في جمع عيدان الحطب وبيعها إلى جيرانهم: «رأيت الأمر عظيماً وأنا أتجوّل في الغابة مع أمي مؤدياً عمل الرجال، عمل أبي، بدت نهارات بهيجة وأكثر ما يبهج فيها هو الافتراض أني أقوم بدور أبي، بعد ذلك بسنوات، وبعد أن أصبحت ممثلاً مشهوراً تلوّنت هذه الذاكرة بتضارب العبارات القديمة مع اللهجة المعاصرة».

لقد عاش أنطوني كوين في مدن مختلفة في زمن واحد، لم تكن «لوس أنجلوس الشرقية» التي كبر فيها، شيئاً مقارنة بهوليود التي أمضى فيها شبابه، ومع ذلك شكّلت كلتاهما تمازجاً لما سيصيره، وكان مثل والده يتميز بالقدرة على التكيّف في كل الظروف، وخلق فرص عمل رغم المصاعب..

لقد استمر بلا انقطاع في صف «مس هاميل» للتمثيل، وأصبح مركز اهتمامه الأساسي، وكان في وقت الفراغ، يكنّس الأرضيات، أو يطوف على المكتبات المحليّة بحثاً عن مسرحيات جديدة ليقوم بأدائها، وبعد فترة أصبحت حياته تدور حول الأدب والفلسفة، حول الطموح والأمل بالنجاح.. أصبح كل شيء ممكناً، وبدأ ينخرط بجمهور مثير ومنوع، وتطورت علاقته مع المخرج «جورج كوكر» إلى أوّل دور له في السينما..

تتالت الأدوار سريعاً بعد ظهوره الاحترافي الأوّل، ومع مرور الأيام والأعوام، لم يشكّل العمل بالنسبة له النجاة المأمولة.. لقد اكتشف بسرعة أن صناعة الأفلام هي حفلة راقصة غريبة في البداية، وبقيت هكذا، إنَّها مغرية ومسكرة، نعم، ولكنَّها في النهاية مجرد باب آخر لكسب العيش..

لقد جمع الفواكه، ولمّع أرضيّات المنازل والمكاتب، وحفر الخنادق..صناعة الأفلام شيء مختلف، هي صناعة غير تقليدية، ويمكن أن تكون المكاسب كبيرة جداً، لكنَّها مثل أيّ عمل آخر تقريباً، إنَّها ما نقوم به نحن.. كان المال هو المهم في أيام عمله الأولى في شركة «بارامونت».. لقد انتقل من فيلم إلى فيلم، آملاً في الخروج من الفترات السيئة، وأن يحظى بنجاح ما، وكان في هذه الأفلام يُقتل ببندقية أو سكين أو خيط قنب، من قبل العصابات، وكان في هذه الفترة محاطاً بالفوضى والاضطراب والحزن، حتى جاءته الفرصة في فيلم «دم ورمل» الذي يعتبره فتحاً مهماً، حيث حرره من شخصيات العصابة ذات اللون الداكن، ولعب الدور أمام النجمة «ريتا هيوارث» وكان الفيلم تحفة لونية..

لقد غادر هوليود عام ١٩٤٧م، ليجرّب حظه على مسارح «برودواي» وليقوم بمحاولة أخيرة كي يكتشف نفسه كممثل وإنسان.. لقد أخذ الأمر بمثابة صفقة

شاملة، لا يمكن أن يكون واحداً من دون الآخر، وكالعادة قلق من عدم تحقيق أيّ منهما، وإذا كان كل ما حققه هو نجم سينمائي من الصف الثاني، في أفلام من الدرجة الثانية، وعاشق بديل وعندها كان لابد أن يتحوّل إلى شيء آخر، أو شخص آخر، فكان بحاجة للتخلّص من جلده كي يحيا، فعمله في السينما -حتى ذلك الوقت- لم يكن له ذاك المستوى، إلّا أنه حدث تحوّل إيجابي، للحظ دور فيه، عندما لعب دور راعي بقر مكسيكي، وآخر قدّمه إلى الرائعة «مورين أوهارا» مما جعله محط أنظار الجميع، وأصبح «داخل اللعبة»..

❁ ❁ ❁

في سيرته الذاتية، يعود أنطوني كوين، في تفكيره إلى العدد الكبير من حالات الحب التي عاشها، ولكنّه خرج منها جميعاً خالي الوفاض، ومفتقراً إلى الحب.. عاش الهوى في حياته المديدة، ومسرّات بلا حدود، ويتساءل إن كان قد أحبّ من دون شروط، وإذا أحبته أنثى حبّاً حقيقياً، بالمقابل..

لقد كانت محطّات على امتداد حياته، والتقى فيها بامرأة قبلت به كما هو، وتخلّت عن الآخرين، وقد صاغ «غارسيا لوركا» ذلك بشكل جميل: «رجل وجدار بعرض ثلاث أقدام، مقابل بقية العالم».

عن حالات حبّه يقول: «جاءت أمي أولاً ولكنّها خصّت والدي فعلياً، ثم دونا سابينا، التي مثّل حبها نوعاً من العزاء، وبالتالي غير كاف، ربما كانت سيلفيا ستملأ عالمي لولا الوحوش الذين سبقوني إليها.. حاولت جاهدة أن تساعدني في التخلّص من أشكال الغيرة التي تهيمن عليّ، وقد نجحت إلى حدّ ما، لكنها في النهاية لم تتلني.. كنت صغيراً جداً في السن بالنسبة لها، كما قالت.. كاد قرارها ذلك أن يدمرني، لكنني تجاوزت ذلك وتابعت حياتي.. اعتقدت لفترة من الوقت أنّ

كاترين ستكون الحلّ الشافي، كانت أميرتي المتعلّمة الجميلة المثقفة.. لكن كل هذه الأحلام تعرّت في ليلة زفافنا.. يا يسوع كم كنت مغفلاً حين اعتقدت أني الرجل الأوّل في حياتها! أفكّر الآن هل هذا يهم!.. لقد شغلني كثيراً ودخل إلى صميم فؤادي.. ظلّ هاجسي حيث نمضي بقية حياتنا معاً وأنا أصارع ضد ذلك، وقررت، إذا لم أستطع أن أمتلك امرأة واحدة، فليكن الكثير منهن، وانطلقت في طريق المغامرة الطائشة باحثاً عن خلاص في أحضان أي امرأة تريد أن تنالني».

لقد فكّر مرّة أن «مورين أوهارا» ستكون مستقبله، عندما التقاها في فيلم «البحار سندباد».. وقع في الحب المستحيل.. تميزت بسحر خاص، ووجدها أكثر امرأة متفهمة على وجه الأرض.. ثم جاءت «سوزان بول» التي يقول عنها بأنها: استثنائية في كل شيء، هي واحدة من أساطير الجمال في أيامنا، تميزت ببهائها وسحرها.. التقيتها في فيلم عنوانه «مدينة تحت البحر».. لقد حازت على كياني.. لقد أحبتني من أعماق روحها، وهذا كل ما أردته.. اختارتني وقبلت بي، وظننت أننا سنقضي بقية عمرنا معاً.. استطاعت سوزان أن تجعلني أضحك، بدا الأمر وكأننا نضحك طوال الوقت، وكان ذلك هو المفتاح لبداية علاقتنا.. لم أستطع في البداية أن أتجاوز فارق السن بيننا.. كنت في الثامنة والثلاثين، وشعرت أنني فوق الستين، لكني احتجت إلى الضحك.. لذلك استسلمت لهذا المخلوق المتألق عظيم الجمال.. ضحكنا وضحكنا، ولم أهتم لأي أمر آخر في العالم.. خلال أقل من سنة على تعارفنا تبين أنّها مصابة بسرطان في العظام، وتفاقم المرض بشكل سريع.. توقف الضحك، ومثّلنا معاً آخر فيلم عنوانه «شرق سومطره»..

يرى أنطوني كوين، أن التعلل بالذكريات كنز دائم، فهو كالمد والجزر على امتداد الشاطئ، يهيم على غير هدى في ذكرياته على غوارب أمواج اليوم والأمس.. من يعلم ما الذي سيقذفه البحر على الشاطئ؟ ولكم يتوق أن يوقف صماماً من أجل

صمام آخر، وأن يستوعب هذا المشهد البهي على حقيقته، وأن يغرق في تاريخه..

يتابع الضغط على دوّاسات دراجته، فهو يرى أنه يستطيع ركوب الدراجة طوال الليل والنهار لو أجبر على ذلك، فالإعياء من نصيب الضعفاء، ومن هو أكبر منه سناً، أمّا هو فسيتابع على هذا النحو، وسيقوم بكل شيء في حينه، وسيهزم الزمن بصموده، وسيتجاوز آلامه وأوجاعه.. يتحدث عن صداقات العمل، ويخص العملاق «لورانس أوليفيه» بنصيب وافر منها يقول: كانت صداقتي مع لورانس أوليفيه من أغرب الصداقات.. لقد استغرق الأمر فترة لأفهمها، ولكنني في النهاية اعتبرتها رمزاً لمعظم علاقات العمل.. عندما تنتج فيلماً، ترى نفس الناس مرات ومرات لشهرين أو ثلاثة، تدخل إلى حياة كل واحد منهم، تنتحل دوراً مبالغاً فيه، يوجد في مواقع التصوير ميل، لدى الممثلين ليكونوا قريبين من بعضهم، وذلك حتى ينتهي الفيلم وينتقل كل شخص إلى شيء آخر.. لقد خدعت باستمرار بصداقات كبيرة لم تدم إلا مدّة التصوير، ولم أستطع أن أعتاد على ذلك أبداً».

❀ ❀ ❀

في أحاديثه عن نفسه، يرى كوين، أنه يمكن أن يكون إنساناً لئيماً متقلّباً في مواقع تصوير الأفلام، إن لم يحصل على ما يريده، ولا يمكن التنبؤ بما يمكن أن يفعله، وبالنسبة لكل الأشخاص المزاجيين المتقلبين دائمي الشكوى من أمثال الممثل «يول براينر» والممثلة الإيطالية «آنا مانياني» فهو ليس بأفضل حال منهما، ومع ذلك فهو يطلق العنان لنفسه، لأن ذلك برأيه يبقي الحياة ممتعة.. لقد تحمّلوا تقلباته المزاجية، ومع ذلك كان يرى بأن النجاح في الحياة، هو أن يكون المرء محبوباً، وهذا ما لمسهُ في الصحراء العربية عندما مثّل دور عواد «أبو طايع» في فيلم «لورانس العرب» وفيلم «زوربا اليوناني» الذي أخذ بمجامع قلبه، وغيّر مجرى حياته، وأصبح ينظر إلى العالم من خلال عيني ممسوس اسمه «زوربا».. لقد

تلبّسته شخصية «زوربا» المترع بالحياة.. لقد بدا العالم كله يونانياً، حيث حسب أنه عاش في اليونان وجزيرة كريت، طوال مسار عمره، نعم، التاريخ هنا غني، هو الأغنى في تاريخ العالم القديم..

بعد وصول أنطوني كوين إلى سن الخمسين ثم الستين.. ثم السبعين أصبح يرى العالم من خلال أنامله، حيث انطلقت الفراشي وأقلام الرصاص والأزاميل إلى روحه مباشرة، لقد تحوّل إلى اللوحة من أجل الانعتاق أو إلى الحجر أو الصلصال.. لقد خشي أن تكون عضلاته الفنية قد بدأت تضمر.. لقد توقف عن الظَفَر بالفتيات في أفلامه، وبدأ بالظفر بالبلدان بأكملها، لم يبق إلا القيام بدور ما في نهاية المطاف للفوز به، والقناعة المتواضعة بالمهنة لذاتها.. لقد صنع عضلات جديدة بدلاً من القديمة، وشكّلت قضية التقدّم في العمر معضلة كبرى بالنسبة للمثل.. ما قام به هو استبدال المسار، لقد وصل إلى قرار أن السينما لا يمكن أن تجعله يهرم إذا ما استبدلها بموضوع آخر، وهكذا عاد إلى التصوير الزيتي الذي يهواه.. حمل معه عدة الرسم إلى مواقع تصوير الأفلام المتعددة، وبدأ يملأ الساعات الطويلة غير المثمرة بين تصوير المشاهد بالتصوير، وبدأ بالنحت بعد وقت قصير من ذلك، وقام بتحويل العادي إلى شيء جميل، وكان يعرف جيداً أين يرقد الجمال منتظراً في المواقع التي يختارها، وقد وجد الراحة في النحت أكثر من التصوير، وأقام معارض في أنحاء كثيرة من العالم، وكان يشعر أن موهبته كامنة في المثابرة والرؤية بعين ثاقبة، وعقل منفتح.. حول ذلك يقول: «أعرف الذي يفرض جودته، والذي يشعرني بصحّته، لا أملك أسلوباً محدداً بعينه.. أرسم فترة مثل هندي وفترة ثانية أرسم مثل مكسيكي، وأخرى مثل أفريقي.. أسرق من الجميع، من بيكاسو، موديلياني، دافنشي.. جميعهم سرقوا من معلمين آخرين، من ثقافات أخرى.. هناك قول أتبنّاه: الموهبة الكبرى تُسرق، والموهبة الصغيرة تقتبس،

أنا أسرق، ولكن من الأفضل.. لا رسالة لفني، سوى أن أواظب عليه، أحاول أن أكون أنا من خلال فني، لا أختلف في هذا عن أي شخص آخر».

في السياسة يعتقد أنطوني كوين أنَّ أساليب عيشنا موجّهة بشكل خاطئ، لا نعرف ماذا نريد، أو كيف نطالب بما هو أفضل.. لقد انحرفت الحضارة الغربية عن مسارها، كل شيء يقوم بشكل خاطئ، يقول: «تأمّل، مدارسنا عبارة عن صروح عتيقة الطراز للتعلّم السلبي، تقوم مدننا كحواضر مملة خانقة تذكرنا بيأسنا، أماكن عملنا عبارة عن خطوط تجميع معقمة ومضاءة بفظاظة، وأماكن عبادتنا ما هي إلا صور منعكسة فاقدة الروح لحيواتنا الخاوية.. ومع كل هذا نتوقع أن ننجح تحت ثقل رتابتنا، تحت أعمالنا الروتينية.. أصبحت حضارتنا تقوم على قناعات عقلية عرجاء.. لا نعرف كيف نعيش، لأننا أضعنا معنى الحياة، وقد فقدنا القدرة على تكوين آرائنا، وعلى التمييز بين الصح والخطأ.. نكره كوننا بشراً، كوننا مربوطين بالأرض، نعيش فيما يشبه الفانتازيا المتمادية لدرجة أننا نستخف بحيواتنا وحيوات الآخرين».

أنطوني كوين، عاش حياة بهيجة، ولكنه لم يكن إنساناً فرحاً، جاءته المتع في حياته المديدة من نجاحه، والأحزان من حيرته وشكّه وبعد هذه السيرة الطويلة، يقول: «هناك الخوف الكبير، الخوف من كوننا نخاف، لامناص من ذلك، حتى وأنت تنزل إلى أخفض سرعة لتحقق شرط الجهد والأمان، يجلس الخوف متوجساً داخل قلبي، ويملأ الطريق أمامي ساداً المسار، إنه يحوم فوقي مثل غيمة سوداء، لا مجال لتجاوزه، لا من المحيط، ولامن فوق، ولا من تحت، ولا من خلال.. ليس للخوف نهاية إلا النهاية نفسها».

في ختام السيرة الذاتية يختتم «كوين» بالإشارة إلى فيلم «الرسالة» الذي لم

ينتشر تجارياً في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن إطلاقه دولياً جعله نجماً كبيراً في الوطن العربي، ويروي لنا قصة فيلم «عمر المختار» الذي غدا واحداً من أهم الأفلام العربية على مرّ العصور، وفتح له الباب للعب دور الرجال المسنين على الشاشة، ونصل إلى النهاية التي فكّر فيها بنفسه وبرحيله، حيث لا مجال لتفادي الموت، وطالب حين يرحل أن يعامل بفخامة، وأن يحمله أولاده الاثنا عشر إلى قمة تل في «تشي واوا» حيث الأرض التي نشأ فيها، وحيث أصبح جزءاً من كامل المكسيك وإلى الأبد..

رؤوس المؤلف

د. خليل الموسى ✿

أشاعت الدراسات السياقية (التاريخية- الاجتماعية- الأيديولوجية- النفسية) أنّ المؤلف هو الذي يتكلّم، وأنّ كلامه يمثّل دائماً وجهة نظره، في حين جاءت الدراسات النسقية (الألسنية) لتنسف هذه المقولة فالمؤلف لا يتكلّم، وإنّما يُتكلّم عنه أو بوساطته، والمتكلّم الحقيقي هو اللغة، وهذا يعني أن المؤلف يكتب وفي ذاكرته آلاف النصوص، ويطالعك من نصّه آلاف الرؤوس، يكتب غير منعزل عن عالمه وزمنه ولغته وتقاليده الثقافية، واللغة التي يكتب بها صناعة مجتمع وجهود لآلاف الأصوات التي نراها في المفردات والتراكيب والبلاغة والعروض والأساليب.

وشاعت في المرحلة التي سيطر فيها المؤلف على الكتابة مفهومات ومقولات، ومنها ((الأسلوب هو الرجل))، و((لسان المؤلف))، و((بلاغة المؤلف))، وقد قيل عن البحتري - مثلاً- ((أراد أن يشعر فغنّى))، ثمّ شاعت في المرحلة النصية مفهومات ومقولات أخرى متناقضة والمقولات الأولى، أو لنقل إنّها انتقلت من ملكية المؤلف إلى ملكية النص، ومنها ((لسانيات النص))، و((بلاغة النص))..إلخ، ثمّ انتقلنا بعد ذلك إلى لسان القارئ وبلاغته وثقافته بوساطة نظرية التناص في عصر القارئ.

والحقيقة أنّ المؤلف نادراً ما يكتب برأس واحدة، ومهما تصل به درجات الذاتية والعشق النفسي، وإن ادّعى بغير ذلك، فإذا كان المؤلف يبحث عن قارئ، فالأخير شريك

✿ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

في كتابة النص، ولذلك فإنه يسترضي جمهوره بطرق وأساليب مختلفة، بل يتوسّل إلى قرائه لكي يتقبلوا ما يكتبه، وهو يطوّر صناعته لجذب أكبر عدد من القرّاء، وطموحُهُ عددي، فإذا اشتُهر محلياً سعى إلى أن يتمدّد إلى بلاد أخرى ولغات غير لغته، ومن هنا تجد المؤلف اليساري يعزف على وتر اليسار، وتجد المؤلف الليبرالي يعزف على وتر الليبرالية، وهكذا تجد من تبنّى الأيديولوجية الدينية أو القومية أو الإقليمية.

ولنتذكّر هنا كيف انقسم الشعر السياسي في عصر بني أمية إلى أربعة أقسام: شعراء بني أمية، وشعراء بني هاشم، وشعراء الزبيريين، وشعراء الخوارج.

ومن هنا فإنّ ما يُسمّى بالقارئ الضمني الحاضر بقوّة في بنية النص يشارك المؤلف في كتابة نصه، بل هو الذي يرشده ويقوده إلى ما يجب أن يقوله، وهو الهدف الأوّل من الكتابة، فإمّا أن يكون النص ملكاً له، أو يرفضه.

تؤكّد الدراسات المعاصرة تعدّد الرؤوس في الكتابة، فالنص هو الذي يصنع النص، ومقولة التناص التي اشتغل عليها بنيويّو ما بعد البنيوية تذهب إلى ذلك مباشرة، وتؤكّد أن المؤلف يحدّده القارئ، وهو جمع، فالتناص قدر النص، وفي أيّ نصّ تشرّب وتحويل لنصوص أُخرى معروفة ومجهولة تطلّ على القارئ من هنا ومن هناك، ولذلك ألغى بارت أُبوة النص، وخرج على مفهوم المبدع الأوحد، فالنص لقيط، وآباؤه جمع، وهو نسيج مكوّن من كتابات وثقافات متشعّبة، كالمحاكاة الساخرة والمعارضات، ولا وجود للإبداع الذي يُخلق من العدم، فنصيب المؤلف الظاهر على غلاف الكتاب أقلّ من نصيب الآخرين الذين أخفاهم أو تخفّوا بإرادتهم، كما هي الحال في الكتابات المسرحية مثلاً، إذ يتقدَّم الممثلون على خشبة المسرح، ويتراجع المؤلف والمخرج إلى الخلفية.

ثمَّ إنَّ مقولة تعدّد الرؤوس للكائن العضوي قد عُرفت في الأساطير الإغريقية، فـ ((سيربير)) ((Cerbere)) – مثلاً – ((وحش ولد من تزاوج الوحشين تيفون وإيشيدنا، فجاء بجسم كلب ذي ثلاثة رؤوس مع رقبة أفعى وأسنان مسمومة، وقد يُصوّر بمخالب أسد))،(1) وهذا ما هو حادث فعلاً في الكتابة، فالمؤلف ليس واحداً، وإنّما هو مفرد بصيغة الجمع، فهو يكتب وعشرات الكتّاب يشاركونه في هذا الفعل، وهو يكتب ضمن التقاليد الثقافية التي تنتمي إليها لغته أو اللغة الأخرى التي يكتب بها، وهي لغة توارثها عن أسلافه أو عن الآخر، ويستعير منها مفردات اللغة ونظامها وأوزان

الشعر إذا كان شاعراً، والجنس الأدبي الذي ينتمي إليه النص..إلخ.

إذا كانت الكتابة/ الرسالة تتضّمن في داخلها صوتين أو أكثر، ومؤلفها – ظاهريّاً- واحد، كما هي الحال في ((الليالي)) لألفرد دي موسيه أو ((المواكب)) لجبران خليل جبران، فإنّ الإجابة عن ذلك سهلة، وهي أنّ المؤلف هنا يستطيع فعلاً أن يتقمّص دور كلّ صوت على حدة، وأن يتقنّع بقناع صاحب هذا الصوت أو ذاك، ممّا يعبّر عن قدرة المؤلف في الشعر الغنائي الذي ينتمي إليهما النصّان المذكوران وإن استفاد الشاعران من تقنيّات الشعر الموضوعي.

في حين أنّ المؤلف في الشعر الأخير (الموضوعي) ينبغي له أن يكون أكثر مرونة وقدرة على تقمّص أصوات عدّة، وأن يكون لكلّ شخصية صوتها المعبّر عنها والخاص بها في بنية النص، ونقيض ذلك برهان على ضعف بالغ في الكتابة، كما هي الحال – مثلاً- في معظم مسرحيات أحمد شوقي وعزيز أباظة الشعرية التي يتكلّم فيها الشاعر الغنائي بالنيابة عن شخصياته، وينسب الكلام إليها، وإن بدا في الظاهر غير ذلك.

إنّ ما تقدّم لا يعني أبداً أنّنا سنتكلّم هنا عن المؤلف المتخفّي أو الضمني، وإنّما سنتناول المؤلف الظاهر المتعدّد الرؤوس أو الذي يشارك سواه في كتابة عمل واحد بدرجات متفاوتة، ممّا يحتاج إلى إجابات دقيقة، ولكنّها ليست نهائية، ومنها:

أولاً: المؤلف في الكتابات المشتركة: هذا يعني صراحةً وظاهريّاً على الأقلّ أنّ للمؤلف غير رأس يفكّر وغير لسان ينطق، ومع ذلك فإنّ النص الواحد: جسد متعدّد الرؤوس، وهنا تكمن المشكلة الكبرى، وخاصة إذا كان لكلّ رأس وجهة نظر أو اتجاه أو خصوصية على الأقلّ، وكلما ازدادت الرؤوس تعقّدت المشكلة بتعدّد وجهات النظر، فهذا يشدّ في اتجاه، وذاك يشدّ في اتجاه آخر، وتقع الفجيعة على القلب موطن الأحاسيس التي يتعذّر أن تكون واحدة مهما اقتربت.

ولنأخذ الحالة الأكثر سهولة، وهي أن يكون المؤلف برأسين لا أكثر، ولنتذكّر هنا- للتوضيح- بعض المسرحيات الذهنية التي كتبها توفيق الحكيم، وهو يطرح في كلّ منها فرضية ما، ثمَّ يعالجها، لينتهي إلى أنَّ الإنسان شبكة من العلاقات الاجتماعية الزمكانية التي لا يستطيع الخروج منها بفعل الزمن، ففي ((عودة الشباب)) يفترض الحكيم أنَّ عجوزاً أُجريت له عملية استبدال قلب، فعاد بعقله عقل الشيخوخة، وقلب الشباب القلب الذي استبدلوه بقلبه التالف، فكان رأسه يسير في اتجاه، في حين كان القلب يشدّه في اتجاه آخر، وكذا شأن

مسرحية ((أهل الكهف)) التي يفترض فيها أنَّ الله سبحانه أمات القوم، ثم بعثهم بعد ثلاثة قرون، فكيف سيتصرفون في الحياة الجديدة، وقد أصبحت هذه الحياة بزمنها وأمكنتها غير التي كانوا فيها أولاً..؟! وفي مسرحية ((رحلة إلى الغد)) يفترض الحكيم أنَّ أناساً انطلقوا بحركة فضائية إلى الأمام قرابة ٣٠٠ عام، فكيف سيتصرفون في مكان وزمان لم يولدوا لهما.(٢)

إنَّ تعدّد الرؤوس في الجسد الواحد إشكالية كبرى، وتعدّد المؤلفين في النص الواحد إشكالية أكبر، فلا يعني تقديم الرأس ذي الحجم الأكبر أنَّ فاعليته في هذا العمل بالضرورة أكبر من فاعلية الرأس الآخر.

وقد تكون الحقيقة نقيض ذلك تماماً، فيُقدم صاحب الرأس الأكبر لمكانته وشهرته، ومع أن نصيبه من التأليف في درجة قريبة من درجة الصفر، ولذلك لا تعني الشراكة في التأليف التساوي دائماً، وهي ظاهرة في العصر الحديث.

وقد جاءت في أوروبة ردّ فعل على العقل الذي صنع الحضارة الأوروبية، ثمَّ دمّرها في الحرب العالمية الأولى، ولذلك كان الاتجاه إلى النص بديلاً عن سلطة المؤلف، ويمكن أن نعدّ تعدّد المؤلفين في النص الواحد بداية الخروج على هذه السلطة، ومن هنا نفسّر العمل الرائد في هذا المجال، وهو ((الحقول المغناطيسية)) ((les champs magnetiques)) مجموعة شعرية لأندريه بريتون وفيليب سوبو صدرت في سنة ١٩٢٠م، وقد وصف بريتون هذا العمل بقوله:

((كنت في تلك الفترة ما أزال شديد الاهتمام بفرويد، ومتآلفاً مع طرائق الفحص التي أطلقها، والتي مارستها أحياناً على بعض المرضى أثناء الحرب. وهكذا فقد قررت أن أستحصل من نفسي على ماكنت أحاول الاستحصال عليه منهم، أي مفاجأة بأكبر سرعة ممكنة لا يقوم الفكر النقدي بإطلاق أي حكم عليها، مناجاة لا تجري عرقلتها بأيّ تحفّظ، مناجاة تكون قدر الإمكان الفكر المحكي..

ضمن تلك الحالة، شرعت أنا وفيليب سوبو الذي أخبرته باستنتاجاتي الأولى، نسوّد الصفحات غير مبالين بما يمكن أن يتأتّى عن ذلك من الناحية الأدبية)).(٣)

وكان بريتون قد قاطع نهائياً الشاعر لويس آراغون منذ أوائل الثلاثينيات، ولكنَّ الأخير كتب بعد عامين من وفاة بريتون (١٩٦٦م) أنَّ ((وحدة ما قد قامت. أصبحت ((الحقول المغناطيسية)) عمل مؤلف واحد برأسين، والنظرة المزدوجة وحدها سمحت لفيليب سوبو وأندريه بريتون بالتقدّم على الطرق التي لم يسبقهما إليها أحد، في تلك الظلمات التي كانا يتكلّمان فيها بصوت عال.

هكذا ظهر ذلك النص الذي لا مثيل له. إنَّ علينا أن ننظر إليه اليوم على أنّه، في فجر هذا القرن، اللحظة التي ينعطف فيها كل تاريخ الكتابة، لا الكتاب الذي شاء ستيفان مالارميه أن ينتهي به العالم، بل ذلك الذي يبدأ به كل شيء)).[٤]

لم يمّر وقت طويل على ظهور ((الحقول المغناطيسية)) حتى ظهرت مجموعة شعرية تنهج هذا النهج في حلب، وهي بعنوان ((سريال))، وقد صدرت في حلب سنة ١٩٤٧م، وهي لأورخان ميسر وعلي الناصر، والأرجح أن الأوّل صاحب الفكرة.

وقد أشار فاضل السباعي في مقال له بأنَّ التأليف مشترك،[٥] ثمَّ جاء أدونيس مشكوراً وفرز ما كتبه أستاذه أورخان عمّا كتبه علي الناصر، وأضاف إليه قصائد غير منشورة، وصدر الكتاب بحلّته الجديدة عن منشورات اتحاد الكتاب العرب في سنة ١٩٧٩م، وفيه مقدمة خلت من أيّ ذكر لعلي الناصر وجهوده، وليس ذلك ف حسب، وإنّما لم يذكر أدونيس المعيار الذي اتبعه في عملية الفرز، بل إنَّ اللافت للنظر أنّه ذكر ما كان ينبغي له ألاّ يذكره، فتدخّل في عمليات التفسير والتأويل، وهذه من حقوق القارئ وحده، فهو الذي يحكم على الجودة والشاعرية بصفته المعنيّ الأول والأخير بالنص، وأهمل ما كان ينبغي له أن يذكره، وهو آليات الفرز التي اتبعها.[٦]

وتزداد المشكلة تعقيداً إذا كان التأليف مشتركاً في الدراسات والنقد، وكان المؤلفان (المؤلفون) ينتميان إلى أيديولوجية واحدة، فيكون الفرز حينذاك متعذّراً، فكأنَّ الرأسين بعقل واحد ولسان واحد وصوت واحد، فالأيديولوجيا موّحد قويّ، كما هي الحال مثلاً في كتاب ((في الثقافة المصرية)) لمحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس، وكتاب ((الأدب والأديولوجيا في سورية-١٩٦٧م- ١٩٧٢)) ل بو علي ياسين ونبيل سليمان الصادر في طبعته الأولى عن دار ابن خلدون في بيروت سنة ١٩٧٤م، ولم أعثر على أيّ إشارة في هذا الكتاب المهمّ تشير إلى جهد هذا الرأس أو ذاك، والإشارة الوحيدة التي وقعت عليها هي تقديم ياسين على سليمان على صفحة الغلاف الخارجي، وتقديم سليمان على ياسين على صفحة العنوان الداخلي، مما زاد الطين بلّة، ثمَّ تزداد الأمور تعقيداً في هذا المجال إذا رحل أحد الرأسين، أو كليهما عن هذا العالم، فيغيب حينذاك أيّ دليل.

والحقيقة أنَّ هذه الشراكة غير المحدّدة قد يقع عبء القسم الأكبر منها على أحد المشتركين، وقد يصل ذلك إلى أن تكون ذات رأس واحدة، على نقيض بعض الكتب

التي يُذَيِّل كلّ قسم منها باسم كاتبها، ومنها مثلاً ((المعجم الموسوعي للعلوم اللغوية)) لأزولد وتودوروف الصادر سنة ١٩٧٢م في باريس.[٧]

- كتب تعليمية في وزارة التربية: يشترك عدد من المؤلفين في كتاب محدّد، ويُخصّص لكلّ منهم قسم، ثمّ يجتمع المؤلفون ليناقشوا كلَّ قسم على حدة، ويُعدّلوا فيه أو يحذفوا منه أو يضيفوا إليه إلى أن يصبح العمل صالحاً للطباعة، وليس ذلك وحسب، وإنَّما يعود هذا الكتاب المشترك عددٌ من المقوّمين المختصين، ليتدخّلوا في كل شاردة وواردة في المادة العلمية وطريقة عرضها، إلى أن تقترب من الحجم المطلوب ومن الخطّة الدرسية، فتتعدّد بذلك رؤوس العمل الواحد.

- الأطارح الجامعية: ينبغي للطالب أن يقوم بالإعداد لها إعداداً جيّداً وكاملاً بإشراف أحد المختصين، ثم يبدأ بالكتابة، ليراقب المشرف عمله فصلاً فصلاً إلى أن ينتهي الطالب من عمله، وقد يستشير بعض المختصين في القسم وهنا قد يجد المناقشون بصمات المشرف واضحة على الأطروحة، وهذا يعني أنه تدخّل في عملية التأليف والتوجيه، وصحَّح أخطاءها وراقب منهجها ومصطلحاتها..إلخ، ممَّا يشير إلى أنّه قرأ الأطروحة قراءة متأنّية، ولذلك له في تأليفها نصيب ما، في حين أنّنا نناقش أحياناً أطاريح سائبة، وصاحبها ضائع إلى حدّ كبير، وربما عاد ذلك إلى أنَّ المشرف ترك لطالبه حرية التصرّف، أو لم يقرأ الأطروحة القراءة اللازمة.

ثمَّ إنَّه قد يكون للمناقشين نصيب آخر وخاصة إذا طُلب من الطالب أن يعدّل بعض الفصول بالحذف أو الزيادة، وكثيراً ما يتوقفون عند بعض الجزئيات التي سها الطالب ومشرفه عنها أحياناً، ومن هنا تكون الأطاريح الجامعية مشتركة في التأليف، صحيح أن الطالب هو الذي جمع واستقصى وكتب الأطروحة، ولكنه لا يمتلك خبرة أساتذته في المنهج والمصطلحات واللغة والتحليل والتركيب والدخول والخروج والتقسيمات اللازمة لمثل هذا العمل، ليكون ذا صفة أكاديمية قريبة من الموضوعية والحياد، وخاصةً في أحكام القيمة.

- الكتاب المترجم غير مرّة أو المترجم ترجمة مشتركة: لا شكَّ عندي أنَّ الترجمة أو التحقيق قراءة لعمل أصيل، وتعدّد هذه القراءة جائز وأحياناً مطلوب لتقويم الاعوجاج والتصحيح أو الاختصار.

ومن ذلك مثلاً ما حدث في الترجمة التي قام بها مغامس لكتاب ((قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن)) لسوزان برنار وصدرت في العراق سنة ١٩٩٣م عن دار المأمون، ثمَّ قامت راوية صادق بترجمة

الكتاب الكبير، ويسوّغ هذا العمل الشاعر رفعت سلاّم الذي راجع الترجمة وقدّم لها، وذهب إلى أنّ الترجمة العراقية لا تساوي أكثر من عُشر مساحة الكتاب الكلّية.[٨]

وكان من الضروري أيضاً أن تعاد ترجمة كتاب ((نظرية التلقي)) لروبرت هولب التي صدرت عن النادي الأدبي الثقافي في جدة سنة ١٩٩٤م بترجمة عزّ الدين إسماعيل، وكانت قد صدرت عن دار الحوار باللاذقية سنة ١٩٩٢م بترجمة رعد عبد الجليل جواد والفروق بين هاتين الترجمتين كبيرة.

وهذا يفسّر لنا ما ذهب إليه عبد الله الغذامي في تقديمه للترجمة التي قام بها منذر عياشي لكتاب ((نقد وحقيقة)) لبارت، فقال:[٩] ((ووجود ترجمتين أو أكثر يعني وجود فهمين وتفسيرين – أو أكثر- وهذا إثراء وإضافة معرفية تزيد من ثقافة القارئ)).

وهذا ما حدث لكتب بارت، وخاصة كتابه الصغير ((لذة النص)) الذي ترجمه أولاً فؤاد صفا والحسين سبحان، ثمّ تعاور عليه الآخرون من دون أيّ ذكر للجهود السابقة، والأمر هنا يدعو إلى التساؤل على نقيض الترجمات الشعرية، وخاصة إذا كانت الترجمة شعراً، كما حدث -مثلاً- لقصيدة ((البحيرة)) للامارتين فقد تعاقب على ترجمتها عدد كبير من الدارسين نثراً وقام عدد من الشعراء بترجمتها شعراً، وكان لكلّ من هذه الترجمات مذاق خاص وخصوصية الشاعر المترجِم.[١٠]

ومع ذلك ثمة إشكالية حين يتعدّد المترجم للعمل الواحد، فقد ترجم ((الشعرية)) لتودوروف شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، وترجم محمد الولي ومبارك حنون ((قضايا الشعرية)) لياكبسون، وثمة إشكالية أخرى في المراجعة كما هي الحال في كتاب ((علم النص)) لكريستيفا الذي ترجمه فريد الزاهي وراجعه عبد الجليل ناظم، وكتاب ((مدخل إلى النص الجامع)) لجينيت الذي ترجمه عبد العزيز شبيل وراجعه حمادي صمود، ويظلّ القارئ يتساءل: ما نصيب هذا وذاك من هذا العمل المشترك في ظلّ ما يُشاع أحياناً من أنّ عملية المراجعة حجّة لزيادة في قيمة الكتاب، أو وسيلة إلى المكافأة إلى غير ذلك؟

ليت أمر الترجمة اقتصر على ما مضى ذكره، ولكنّ المرء قد يُصاب بالدهشة حين يعرف أنّ أديباً كبيراً بوزن مصطفى المنفلوطي وشاعراً مجيداً بوزن حافظ إبراهيم قد قاما بترجمة بعض الأعمال الأدبية عن الفرنسية، وهما لا يحسنان هذه اللغة، ولكنّ بعض أصدقائهم من الشاميين في مصر قاموا بالترجمة الشفهية، واكتفى الأديبان المذكوران بالصياغة العربية.[١١]

ولا يختلف الأمر عن ذلك كثيراً لدى بعض المترجمين الذين كانوا يدّعون في بداية الرواية أنّ صديقاً لهم عاد من أحد بلاد الفرنجة، وروى لهم هذه الحكاية أو تلك، من دون أن يذكروا اسم هذا الصديق أو البلد الذي عاد منه، فيضيع اسم المؤلف الحقيقي والرواية، ويكون القارئ الضحية الوحيدة في هذا التزييف.(١٢)

ثانياً: المؤلف في الكتابات المدسوسة: تكون الكتابة جزءاً أو كُلاًّ (بشرط ألا تكون نحلاً في الثانية) مدسوسة لغرض من الأغراض، ومنها الإساءة إلى المؤلف ومحاولة التخلّص منه بتحريض السلطة عليه، وثمة أمثلة كثيرة على ذلك في تاريخ الأدب العربي، وخاصة في أزمنة القلاقل وغضب السلطان على شاعر ما واتهامه بالزندقة، ومن ذلك ما نُسب إلى بشار بن برد وهو يُفَضِّل إبليس على آدم:

إبليسُ خيرٌ من أبيكُمْ آدم
فتنبَّهوا يا معشرَ الفُجَّار
النَّارُ جوهرُهُ وآدمُ طينةٌ
والطّينُ لا يسمو سُمُوَّ النَّار(١٣)

لكنّنا سنكتفي هنا بالوقوف عند أبيات مدسوسة على النابغة الذبياني، وقد أجّجت غضب النعمان بن المنذر، ففرَّ الشاعر من وجه الملك والتجأ إلى الغساسنة أعداء المناذرة بقصد حمايته، يروي صاحب ((الأغاني)) أنَّ سبب هربه أنَّ عبد القيس بن خُفَّاف التميمي ومُرَّة بن سَعْد بن قُرَيْع السَّعدي عملا هجاء في النعمان على لسانه وأنشدا النعمان منه أبياتاً.(١٤) فحاول الشاعر في اعتذارياته دفع التهمة عنه وإثبات براءته مما نُسب إليه من أقوال، ومن ذلك مثلاً ما قاله في عينيّته:

لعَمْري، وما عُمْري عليَّ بهَيِّن
لقد نَطَقَتْ بُطْلاً عليَّ الأقارعُ
أقارعُ عَوْف، لا أُحاوِلُ غيرَها
وُجُوهُ قُرُود، تبتغي من تُجادِعُ
أتاكَ امرؤٌ مُسْتَبْطِنٌ لي بغضَةً
لَهُ من عَدُوٍّ، مثلَ ذلك، شافِعُ
أتاكَ بقَوْلٍ هَلْهَلِ النَّسْجِ كاذِبٍ
ولم يأتِ بالحَقِّ الذي هو ناصِعُ
أتاكَ بقَوْلٍ لم أكُنْ لأقولَهُ
ولو كُبِّلَتْ في ساعِدَيَّ الجوامِعُ
حَلَفْتُ، فلم أتْرُكْ لنَفْسِكَ رِيبَةً
وهل يَأثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائِعُ..(١٥)

ثالثاً: المؤلف في كتابة النحل: ليس المقصود هنا أن نتكلّم على ظاهرة النحل والانتحال والوضع، فهذا خارج على طبيعة هذه الدراسة، وهي ظاهرة معروفة لدى الأمم، وخاصة في عصر الشفاهة والرواية، حتى إنّ عدداً غير قليل من الدارسين شكّكوا بوجود شخصية هوميروس واضع ملحمتي الإلياذة والأوديسة، أو شكّكوا في نسبة هاتين

الملحمتين إليه، وشكّك بعض الدارسين العرب في شخصية مجنون بني عامر، ثمّ إنّ دراسات المستشرقين والعرب في هذا المجال كثيرة قديماً وحديثاً،[16] ولكنّ هدفنا من وراء ذلك أن نذهب إلى احتمال ثنائية التأليف أو تعدّده، كالقول مثلاً إنّ بعض الملاحم كالسير الشعبية ذات تأليف تراكمي، أو إنّ المؤلف المصرّح به ليس مؤلفاً حقيقياً، وإنّما هناك مؤلف أو مؤلفون مجهولون فعلوا فعلتهم بقصد أو بغير قصد، وذهبوا مع التاريخ والحقيقة.

ولا يقتصر هذا الأمر على الشعر، وإنّما ينسحب إلى الأجناس الأدبية الأخرى وسواها، وقد يصل إلى حدود بعض الكتب الدينية، كما هي الحال -مثلاً- في بعض الكتب التي يُشكّ في واضعيها عند جميع الأمم، وَحَسْبُنا هُنَا أن نذهب إلى الأصل اللغوي، فانتحل الشيء: ادّعاه لنفسه وليس له، ونحله القول: نسب إليه قولاً قاله سواه،[17] ووضع الحديث: اختلقه وكذبه.[18]

ومما يُروى في هذا المجال أنّ المفضّل الضبّي كان يشكّ في صحّة الأشعار التي كان حمّاد يرويها، فقد ورد على لسانه أنّه قال: ((قد سلّط على الشعر من حمّاد الراوية ما أفسده فلا يصلُحُ أبداً)).[19] ولم يكن خوف المفضل على صحة الأشعار التي يرويها حمّاد بسبب الخطأ في الرواية أو الوقوع في اللحن، بل كان يرى أنّ خطورة ما يقوم به حمّاد ناتج من أنّه ((رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويُدخله في شعره، ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميّز الصحيح منها إلاّ عند عالم ناقد، وأين ذلك؟)).[20]

ويمكن أن تنضوي تحت ظاهرة النحل السرقات الأدبية الكثيرة أو الكتابة بالأجرة الشائعة في عصرنا أو الكتابة على الكتابة، فكثير من المؤلفين شعراء ومبدعين ودارسين اتخذوا الكتابة بالأجرة مهنة يعتاشون منها، وتخلّوا عن مؤلفاتهم لقاء لقمة العيش، فهم يؤلفون القصائد والروايات والبحوث الأكاديمية كليّاً أو جزئياً (الكتابة على الكتابة)، ولنتذكّر هنا ما فعله الشاعر إزرا باوند في قصيدة ((الأرض اليباب)) من تشذيب وتغيير كان وراء نجاحها، ولذلك فإن كثيراً من الأعمال التي تُنسب إلى مؤلف محدّد ربما كان لسواه مشاركة فيها بنسبة عالية أو قليلة، وأحفاد حمّاد الراوية ينتشرون اليوم في بقاع الأرض، وربّما كان هذا العصر من أزهى عصورهم.

رابعاً: المؤلف في الكتابة المجهولة: ثمة كتابات نشرها أصحابها بأسماء مستعارة أولاً (على السفود- بقلم إمام من أئمّة

اللغة العربية/ رواية زينب- بقلم مصري فلاّح/ دراسات لخزامى صبري)..إلخ، ثمّ اعترف أصحابها بها بعد ذلك، وثمة كتابات نُشرت أو أُشيعت بين الناس، وسكت عنها أصحابها لأسباب اجتماعية أو سياسية أو شخصية، ثمّ جاء من أظهرها للعلن، كما هي الحال في ((الشوقيات المجهولة)) التي أخرجها الدكتور محمد صبري، وفيها هجاء شوقي لأحمد عرابي، ومع ذلك فإنّ عدم اعتراف المؤلف صراحة بهذه الكتابات في حياته يجعل الباحث حذراً من قبولها كاملة أو قبول بعضها على الأقلّ، وهذا يحتاج إلى دراسات أسلوبية معمّقة للمقاربة بين هذه النصوص والنصوص المعروفة للأديب نفسه، ومع ذلك يظلّ الاحتمال والترجيح قائمين، فهذه الكتابات تشبه إلى حدّ بعيد الوليد الذي لا يعترف أبوه بنسبته إليه.

خامساً: المؤلف في التراث الشعبي: المؤلّف في التراث الشعبي متعدّد، كما هي الحال في بقية أنواع الفولكلور، وعملية التأليف جماعية تراكمية مكاناً وزماناً، فثمة حذف وإضافات لحقت بهذا العمل أو ذاك، كما هي الحال في سيرة عنترة والسيرة الهلالية والأغاني الشعبية..إلخ، ولو أخذنا مثالاً على ذلك كتاب ((ألف ليلة وليلة))، وهو أرقاها، لأدركنا ما نذهب إليه، فليس هو مجهول المؤلف وحسب، وإنّما اختلفت الدراسات الجادة في الجهة التي جاء منها والأصول التي انبثق عنها، فضلاً عن أنّ آلاف الأيدي امتدت إلى هذا الكتاب، فالأخبار تشير إلى أنّ كاهناً حلبياً يُدعى الأب يوحنا ساعد أنطوان غالان في معرفة بعض الحكايات أو إضافتها، ثمّ إنّ حكايات هذا السفر ليست واحدة في الطبعات المختلفة، فقد يجد المرء حكاية ((النائم واليقظان)) في طبعة ولا يجدها في أخرى، كما أنّ الأقلام المختلفة عملت على تشذيبها قبل تقديمها للقرّاء، فخفّفت من حدّة التصريحات الجنسية فيها، وخاصة في طبعة المطبعة الكاثوليكية في بيروت وطبعة مطبعة بولاق في مصر، فضلاً عن أنّ طبعاتها في مصر ولبنان وبغداد ليست واحدة، وقد تعرّضت للمحو والتبديل والتحوير والتصحيح من المصحّحين والمنضّدين وأصحاب دور النشر أيضاً.(٢١)

إنّ ما تقدّم يثبت بما لا يقبل الشك أنّ المؤلف ليس واحداً، وأنّ مقولة المؤلف الملهم تحتاج إلى إعادة نظر، ولا سيّما أنّ مقولة التناص تذهب إلى أنّه لا نصّ بلا تناص وأنّ كلام آدم وحده بكر، ثمّ إنّ التأليف يحتاج إلى لغة وإيقاع وأوزان وبلاغة يعرفها المرسل والمتلقي سلفاً، ويشتركان في أنهما ورثاها

معاً، ممّا يعني أنّ اللغة والإيقاع والأوزان والبلاغة التي يستخدمها المؤلف منجز اجتماعي حضاري وملك عامّ وليس شأناً شخصيّاً.

الهوامش

١- عثمان، سهيل والأصفر، عبد الرزاق: معجم الأساطير اليونانية والرومانية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٢م، ص٢٩٦-٢٩٧، وقد استخدم السياب هذه الأسطورة في قصيدته ((سربروس في بابل))، انظر: ديوانه، دار العودة، بيروت ١٩٧١م، ص ٤٨٢.

٢- انظر: الموسى، د.خليل: المسرحية في الأدب العربي الحديث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٧م، ص٩٥.

٣- نقلاً عن داغر، كميل قيصر: أندره بريتون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٩م، ص٢٦-٢٧، وقد ترجم داغر قسماً من هذه المجموعة في كتابه (ص٢٨١- ٣٠٢).

٤- نقلاً عن المرجع نفسه، ص٢٧.

٥- المقال بعنوان: ((الشاعر علي الناصر))، المعرفة، ع١١٢، حزيران ١٩٧١م، ص١٤٧.

٦- للمزيد حول هذه المشكلة انظر الدراسة الموسّعة: الموسى، خليل: ((نظرتان في سريال وقصائد أخرى))، صحيفة الثورة، العدد ٥٠٩٠، تاريخ ٢٨/٩/١٩٧٩م، ففيها معالجة لإشكالية الكتاب وزمن صدوره الأول في حلب وعمل أدونيس في الكتاب بطبعته الجديدة، ودراسة للمجموعة.

٧- هناك كتب مشتركة في النقد، ومنها (أسس النقد الأدبي الحديث- تبويب مارك شورد وزميليه - ترجمة هيفاء هاشم- وزارة الثقافة ١٩٦٧م)، وكتب مشتركة في الندوات والمؤتمرات، ومجموعات قصصية أو شعرية صدرت في كتاب واحد لمجموعة مؤلفين، ولكل مؤلف منهم عمل محدّد، وهذه الكتب خارجة على دراستنا.

٨- انظر: برنار، سوزان: قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن، تر. راوية صادق، شرقيات، القاهرة، ١٩٩٨م، ١/٢٤.

٩- بارت، رولان: نقد وحقيقة، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١، ١٩٩٤م، ص٨.

١٠- للاستزادة في هذا المجال انظر الفصل الثاني من كتابنا ((مبادلات شعرية- مفهوم التأثير أنموذجاً))، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٩م، ص٤٣- ٦٦، وكذا شأن ترجمات ((رباعيات)) الخيام الشعرية التي قام بها وديع البستاني وأحمد رامي وأحمد الصافي النجفي وسواهم.

١١- انظر في ذلك ترجمة المنفلوطي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٤م، ٧/٢٤٠، وانظر: الجندي، د.عبد الحميد: حافظ إبراهيم شاعر النيل، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٧٥ وص٢٣٢- ٢٣٥.

١٢- انظر: الموسى، د.خليل: آفاق الرواية، مطبعة اليازجي، دمشق، ٢٠٠٢م، ص٧٠.

١٣- ابن برد، بشار: ديوانه (إحسان عبّاس)، دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠١٢م، ص٤٥١.

١٤- انظر: كتاب الأغاني، نسخة مصورة عن دار الكتب، ١١/١٣.

١٥- النابغة الذبياني: حياته- شعره (فارس صويتي)، دار كرم دمشق، ودار الكاتب العربي بيروت، د.ت ص١٠٧، وانظر ص٦٨-٦٩و ٩٤ وص١٠٨- ١٠٩.

١٦- انظـر: طبقات فحول الشعراء، ١/٤-٤٧، والجاحظ: الحيـوان، تح. عبد السلام هـارون، مكتبة الحلبي، القاهرة ١٩٤٨م، المجلدات (٣و٤و٦)، والأسد، د.ناصر الدين: مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢م، القاهرة، ط٢، ص٢٨٧- ٤٧٨، وللنظر حول سيرة هوميروس وشخصيته: البستاني، سليمان: مقدمة ترجمـة الإلياذة، منشورات وزارة الثقافة، دمشـق، ط٣، ١٩٩٦م، ص٩-٢٨، وللنظر حول سيرة مجنون بني عامر وشخصيته: الأغاني،٢/١-٩٥.

١٧- لسان العرب (نحل).

١٨- لسان العرب (وضع).

١٩- الحموي، ياقوت: معجم الأدباء- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ج٦، ص٢٧١٠.

٢٠- المرجع نفسه، ص ٧١٠- ٢٧١١.

٢١- حـول هذه القضية انظر: عبد الحكيم، شوقي: موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، صـ٢١- ٣٠، وحميـد، حسن: ألف ليلة وليلة- غيبوبة القصّ.. غيبوبة الاستماع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٩-٤٩.

تجربتنا في تعريب أدب الأطفال

د. ملكة أبيض ✿

عملتُ -أنا وزوجي سليمان العيسى- طوال العقد الأخير من القرن الماضي، في تعريب قصص ومسرحيات للأطفال، لاعتقادنا بأن هذا المجال لم يلق الاهتمام الكافي من الأدباء العرب، وأن الكثير مما ترجم لا يتناسب مع الأهداف التي وضعناها لتربية أطفالنا.

في تلك الفترة كنت قد تقاعدتُ من عملي مدرِّسة في جامعة دمشق، وتعاقدتُ مع جامعة صنعاء. وكانت مشاغلي العائلية قد خفَّت كثيراً بانتهاء أولادي من دراستهم وذهابهم للعمل؛ كما أن زوجي كان قد تقاعد من عمله موجهاً أول في وزارة التربية بدمشق، وتفرغ في اليمن للعمل الأدبي.

كان سليمان قد بدأ الكتابة للأطفال بعد نكسة حزيران ١٩٦٧م، وألَّف الكثير من الأناشيد وعدداً من القصص والمسرحيات للأطفال، وشرع في إغناء هذه التجربة بتعريب قصص أجنبية مستعيناً بزملائه من الاختصاصيين في وزارة التربية. ولما تحوَّلنا للإقامة في اليمن، أخذتُ على عاتقي هذه المهمة، ولاسيما أننا كنا قد عملنا معاً في الترجمة الأدبية قبل انشغالي بمتابعة دراساتي العليا. وقد أنجزتها في أواخر السبعينيات من ذلك القرن.

كتب سليمان في تلك الفترة الكثير، كما أنني أجريتُ العديد من البحوث وألَّفتُ كتباً جامعية، ومعاجم للترجمة، ولكننا كنَّا بحاجة إلى ممارسة هوايات، على سبيل

✿ أديبة وأستاذة التربية في الجامعات العربية.

الترويح. وهل هناك أفضل من تعريب كتب الأطفال لتحقيق ذلك؟

تمثّلت مهمتي في أداء المراحل الأولية: قراءة النصوص، واختيار ما يناسب منها وترجمته. وهي أعمال لم يكن سليمان الشاعر يرتاح إليها لأنها لا تُرضي تطلّعه الإبداعي.

لذلك كان يتسلم المواد المترجمة ويعيد قراءتها من حيث اللغة، والأسلوب، والجوّ العام، وهو ما يوحي له بالأناشيد التي يزرعها فيها.

وقد نتج عن هذا العمل المشترك مجموعات عديدة، أذكر منها: قصص يحبها الجميع، يُحكى أنَّ، حكايات السلحفاة، حكايات الجنيّ المرح، حكايات ملوّنة، الحديقة المعلقة، روائع من القارات الخمس، مسرحيات عالمية للأطفال، وهذه صدرت عن دار الفكر بدمشق؛ وقصص وحكم من قديم الزمان، وحكايات من تراث الأمم، صدرت عن دار الحافظ بدمشق؛ ومجموعة البطة صوفيا، وحكايات من العالم، صدرت عن وزارة الثقافة بدمشق؛ ومجموعة أحلى الحكايات، صدرت عن دار يمان بعمّان، الأردن.

ولإلقاء الضوء على هذا العمل، سأكتفي بتقديم نموذجين من المسرح هما «الحذّاء والأقزام» و«نافخ البوق». سألخص موضوعهما، وأثبت المقطوعات التي أضافها الشاعر في كل مناسبة لإبراز الصلة الوثيقة بين السياق والأشعار المستوحاة منه.

أمّا «**الحذاء والأقزام**» فهي أصلاً قصة من وضع الأديبين الألمانيين الشهيرين «الأخوين غريم»، تجسد الاعتقاد الشعبي بدور الحظ أو القدر في حياة الإنسان.

بطلها حذّاء كهل، ينقطع عنه الزُبُن بوصول حذّاء شاب إلى الحيّ، فيتوقف دخله ويجيء موسم عيد الميلاد وهو خالي الوفاض، فلم يستطع تقديم هدايا للأطفال الذين جاؤوا لتهنئته وتزيين الحانوت بهذه المناسبة. تقترح عليه زوجته صنع حذاء صغير من قطعة الجلد الحمراء المتبقية لديه، فيُفصّلها ويتركها على المنضدة حين يهبط الظلام لأنه لم يكن يملك زيتاً لإشعال المصباح.

يأتيه ثلاثة من الجنّ الأقزام في الليل فينجزون العمل ويغادرون عند الصباح.

يفاجأ الحذّاء وزوجته بالحذاء الأحمر الصغير المتقن الصنع على المنضدة. فيُسرّان به كثيراً ويعرضانه في واجهة المخزن.

تمر عربة أمام المخزن تقلّ أميراً وزوجته وولديهما وصديقتهما. فيترجلون منها لدى رؤية الحذاء الجميل، وتصر الطفلة على اقتنائه. حينئذ يوصي الأمير على أحذية جديدة للآخرين يستخدمونها في احتفال

العيد، ويعطي الحذّاء خمسة دنانير ذهبية لشراء ما يحتاج إليه لصنعها.

في ذلك اليوم يُفصِّل الحذاء أربعة أحذية، ويتوقف لتناول الطعام والنوم، فيأتي الأقزام ليلاً وينجزون العمل، بينما كان الحذّاء وزوجته يراقبانهم من وراء الستارة، وفي الصباح حين يريان الأحذية جاهزة على المنضدة، يُسَرّان ويقرران مكافأة الأقزام بصنع ثياب وأحذية جديدة لهم..

ومنذ ذلك الحين تنفتح أبواب الحظ لهما.

يهمنا هنا ما فعل الشاعر لتعريب هذه القصة التي حوّلتها «آديل ثين» إلى مسرحية.

لقد رأى بادئ ذي بدء تغيير أسماء الأشخاص والأماكن فيها ليشعر الأطفال بالألفة معها. فأعطى الحذّاء اسم يحيى، وزوجته اسم فريدة. وأسمى السيِّد «أمير سياج»، وزوجته «أميرة سياج»، وصديقتهما «عاتكة»، وولديهما «ديمة وغسان».

وأعطى الأقزام أسماء ترتبط بحركات كلٍّ منهم: «زعزع، ودغدغ، ولولب». فزعزع يتقلب على الأرض، ودغدغ يدغدغ نفسه ويقهقه، ولولب يدور على نفسه في دائرة كالخذروف.

ووضع أناشيد ترتبط بمهنة صنع الأحذية وتحتوي مفرداتها وعملياتها:

فحين يعمل الحذّاء يُغَنّي وهو يعمل مخاطباً نفسه:

قُصَّ وفَصِّلْ يا حَذّاءُ!
قُصَّ الكعبْ..
شَذِّبْ بعضَ الشيءِ هنا
دوِّرْ بعضَ الشيءِ هناكْ
جَرِّبْ هذا الشكلْ
أبدِعْ ذاكَ الشكلْ
إنَ مقصَّكَ يا حذّاءُ
يبدِعُ في هذي الأشياءْ

وحين يعمل الأقزام يمرحون ويغنّون:

نعملُ وننجزُ شُغْلَنا
نحنُ الأقزامْ
نحنُ الأقزامْ
جئنا الحانوتَ ثلاثتنا
والصنعةُ هذي صَنعتنا
لا أمْهَرَ منا لا أبْرَعْ
لا أذوقَ منا لا أسْرَعْ
يا زوجَ الأحذيةِ الأحلى
ستكونُ بأيدينا الأغلى
هيا بنا.. هيا بنا
نعملُ وننجزُ شُغلنا

وحين يشرف عملهم على الانتهاء يغنّون:

لنسرعْ.. أيها الأقزامْ
لنسرعْ.. أيها الأقزامْ
لقد خِطْنا، وسَمَّرْنا، وغرَّيْنا

فإن نتوقفِ الآن
ونرقصْ رقصة حلوةْ
فقد يتأخر العملُ
دعونا الآن نشتغلُ

وخلال تلميع الأحذية، يخاطب بعضهم بعضاً:

إسحبْ إلى الأمامْ!
إسحبْ إلى الوراءْ!
مرحى لنا.. مرحى لنا!
زوجُ الحذاء جاهزْ
يا تحفةً من صُنعنا

وفي المشهد الأخير حين يتلقى الأقزام هداياهم مكافأة لهم على عملهم، يرتدون الثياب، ويضعون الأحذية، وهم يدورون ويرقصون ويغنّون:

يا له معطفاً
يا لها قبعةْ!
كلُّ شيء لنا
آه ما أروعَهْ!
قمصانٌ ورديةْ
وجواربُ صوفيةْ
وسراويلُ تزهو
ما أحلى ما أبدعْ..
هل أنتَ لنا أيضاً
يا أحذيةً تلمعْ؟

* * *

إعقدوا الشرائطْ
أغلقوا الأزرارْ
قمةَ الوسامةْ
أصبح الصغارْ

* * *

أنظروا إلينا
في ثياب العيدْ

* * *

لَنْ ندقَّ نعلاً
لن نخيطَ كعباً
ليلُنا سعيدْ

وأخيراً! حين يبزغ الفجر ويسمع صياح الديك، يغنّي الأقزام:

الديك يصيحْ!
الديك يصيحْ!
والفجرُ أضاءْ
فلنخرجْ حالاً!
فلنرحلْ حالاً!
بوركَ بالحانوتْ
بوركَ بالحذاءْ
وبوركتْ مدى الحياةْ
زوجةُ الحذاءْ!

لقد استطاع الشاعر من خلال إعادة النظر هذه في المفردات والأسلوب، وتزويد النص بالمقطوعات الشعرية المناسبة تحقيق أهداف عدة أهمها: إغناء اللغة والمعرفة، وتنمية الذائقة الشعرية والفنية، وإضفاء الخيال والمتعة، وتمكّن بذلك من تقريب

القصة إلى الأطفال، وجعلها جزءاً من ثقافتهم القومية.

وهو ما أسميناه التعريب.

ولننتقل الآن إلى النموذج الثاني: مسرحية «نافخ البوق» وهي من تأليف روبرت براونينغ. والأشخاص والأمكنة (بحسب تسمية الشاعر):

كهلان: صبي مُقعد يجلس على كرسي متحرك.

يزن: رفيقه،

الأرملة وطفاء: أم كهلان.

عمدة البلدة.

أطفال البلدة.

أهل البلدة.

ثلاثة أعضاء في المجلس البلدي.

نافخ البوق.

الزمان: يوم من أيام الصيف، في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي.

المكان: الساحة العامة في بلدة «هَمْلان»، وحاجز طويل خلف الساحة يفصلها عن ضفة النهر.

والغرض الخلقي من هذه القصة-المسرحية توكيد قيمة الوفاء بالوعد. وهي تبدأ بأطفال يذهبون في نزهة، ويُلِحُّ الصبي المُقعد كهلان على أمه وطفاء للسماح له بالالتحاق بهم. وهي تحذِّره من ذلك لأنه لا يستطيع الهرب إذا ما فاجأهم الجرذان، فقد عضّوه في مرة سابقة.

جاء الجرذان فعلاً واكتسحوا البلدة، فاستنجد السكان بالعمدة وأعضاء المجلس البلدي الذين أعلنوا عن جائزة ألف دينار لمن ينقذ البلدة من الجرذان.

أقبل شاب غريب الزي من خارج البلدة وهو يحمل بوقاً، وعرض إنقاذها من الجرذان لقاء مكافأة الألف دينار التي أعلن عنها. ولدى موافقة العمدة والمجلس، رفع الزامر بوقه إلى شفتيه وراح يرسل ألحاناً غريبة جذبت إليه الجرذان، فسار وهي تتبعه حتى بلغ شاطئ النهر ونزل فيه وراحت الجرذان تنزل فيه وتغرق في مائه.. حتى تخلصت البلدة منها.

طالب الزامر بجائزته، فأنكرها العمدة وأعوانه عليه، وعرضوا عليه بالمقابل خمسة عشر ديناراً فحسب، ولم يبالوا بتهديده إياهم بالانتقام. لأنهم كانوا على يقين من أنه لن يستطيع إعادة الجرذان بعد أن غرقت.

توجه الزامر إلى الأطفال الذين أحبّوه وعرفوا الجميل الذي صنعه معهم، وبدأ يعزف لهم لحناً خاصاً فساروا وراءه حتى تجاوز حدود البلدة وغاب وراء الجبل.

ذعر الأهل، وتوجهوا إلى العمدة ومجلسه البلدي مؤنبين مهدّدين، فأذعن لمطالب الزامر، الذي أعاد الأطفال حينئذ، ونبَّه

الجميع إلى ضرورة الوفاء بوعودهم، وإلا فإنه سيكون لهم بالمرصاد.

ما الذي فعله الشاعر لتعريب هذه المسرحية، لقد أعطى الأشخاص والأماكن أسماء مألوفة، وجعل نزهة الأطفال شبيهة بما يجري في ثقافتنا، حيث يتبادل الأطفال الحلوى والفاكهة التي يحملونها، مما أعطى القصة طابعاً محلياً. لنستمع الآن إلى الأشعار المبثوثة خلال المشاهد:

(الأولاد يغنون خلال النزهة وهم يدورون في حلقة):

إلى الضِّفَّة..
إلى الضِّفَّة..
إلى النَّهر..
إلى النَّهر..
تعالَوْا فُرْصَةَ حُلوة
تعالَوْا نُزْهَةَ حُلوَة
إلى النهر..
إلى النهر..

(يتوقف الأولاد عن الدوران، ويقف كلٌّ منهم أمام شريكه، يمسك كلُّ ولد بقطعة من الكعك..)

كَعْكَةٌ.. لَكْ
كَعْكَةٌ.. لي

(يتبادلون الكعك.. ويتابعون الغناء):

أيدينا ملأى بالحَلْوى
طوبى يا ألوانَ الحَلْوى
وليأكلْ كلُّ الأولادْ
وليَرْقُصْ كلُّ الأولادْ

(يُمسِكُ كلٌّ منهم بخوخة أو تفاحة):

خَوْخَةٌ.. لَكْ
خَوْخَةٌ.. لي
تُفاحاتٌ للجميعْ
ثمرٌ حُلوٌ للجميعْ

(يتبادلون الثمار في أثناء الغناء):

هَيَّا.. هَيَّا
فرصةٌ.. حُلوَةٌ
معكَ سآكُل
ومعي تأكل
ومعاً سوف يكونُ غَدانا
ما أحلاهُ.. ما أحلانا!
هيَّا.. هيَّا..

(وحين تظهر الجُرذان يتصايح الأطفال وأهل القرية وتختلط أصواتهم):

جرذان.. ماما.. جرذان.. جرذانٌ كبارٌ.. جرذانٌ صغارٌ.. جرذانٌ بُنيَّة.. جرذانٌ رمادية.. جُرْذانٌ جائعة.. لقد أكلت كلَّ ما معنا من طعام، وأفسدتْ نزهتنا.

الجميع: (يرددون بصورة إيقاعية هذه المرة.. كأنهم ينشدون):

جُرذانٌ.. جرذانْ
رجل أوَّل: كالسيلِ من عَلٍ سَقَطْ
تهاجمُ الكلابْ
وتأكلُ القططْ

امرأة أولى: تُباغتُ الأطفالَ في الأسرَّةْ
تعَضُّهُمْ.. تعبثُ في الأسرَّةْ
رجل ثان: وتأكلُ الجُبْنَ مِنَ القُدورْ
تَلْتَهِمُ الحَساءَ في القُدورْ
امرأة ثانية: بَلْ تَلْعَقُ الحَساءَ من مِغْرَفَةِ الطبَّاخْ
لا يستطيعُ رَدَّها الطَّبَّاخْ
رجل ثالث: حتى براميلَ السَّمَكْ
السَّمَك المُمَلَّح..
تَشُقُّها.. تأتي على السَّمَكْ
رجال: تُعَشِّشُ في قُبَّعاتِ الرِّجالْ
وتقطعُ سَيْلَ حديثِ النساءْ
وتخلطهُ فجأةً بالزعيقْ
نساء: في كلِّ المخازنْ
في كلِّ الشُّقَقْ
الجميع: جرذانٌ.. جرذانْ!
جرذانٌ.. جرذانْ!
(حين ترتفع موسيقا الزامر جاذبة إليها الجرذان، يَرْقُصُ أهل البلدة إزاء الحاجز وترتفع أصوات الجميع):
جرذانٌ كبيرةٌ..
جرذانٌ صغيرةٌ..
جرذانٌ هزيلةٌ..
جرذانٌ سمينةٌ..
بعضُها يتهادى بوقارْ
بعضُها يقفزُ مَرِحاً

الصبيان والبنات:
آباءٌ وأمهاتْ
وأعمامٌ.. وأولادُ عَمّ
ذيولٌ مرفوعةٌ تختالُ
وشواربُ منتصبةٌ تنهالُ
الرجال والنساء:
أسرٌ تتدفَّقُ بالعَشَراتِ والمئاتِ
إخوةٌ وأخواتْ
وأزواجٌ وزوجاتْ
تتبعُ نافخَ البوقِ إلى حتفِها.. إلى هلاكِها.
الرجل الأول: ها هي ذي تغيبُ عن النظر
لقد غابَ آخرُ واحدٍ منها
هو ذا الجرذُ الأخيرُ يغيبُ..
هيه.. يعيش.. يعيش نافخُ البوقِ!
لقد غرقتِ الجرذانُ.. ونَجَوْنا..
(يَنْكُثُ عمدة البلدة بوعده لنافخ البوق، فيتحول هذا إلى الأطفال ويدعوهم للسير معه إلى موطنه خلف الجبل، وهو يغني الأنشودة التالية، يصف بها الطريق):
تجتازُ في النهارْ
جسراً من قَوْسِ قُزَحْ
تسحَرُكَ الألوانُ الحلوةْ
ما أروعَهُ.. قوسَ قُزَحْ

• • •

وإذا ما جاءَ اللَّيلْ
ستسيرُ على دربِ القَمَرِ
دَرْبِ القَمَرِ الفضّي
ما أحلاهُ! ما أروعَهُ!
دربُ القمرِ الفضّيّ

• • •

لا تسألْ أينَ تَسيرُ؟
أو أينَ تقودُكَ قدماكَ؟
ستغنّي حيثُ تسيرُ
والكلُّ يخفُّ لِلُقياكَ

• • •

الشمسُ ستشرقُ ساطعةً
والجدولُ سوفَ يسيرُ مَعَكَ
وسترقصُ، ترقصُ، لا تمشي
وسترقصُ كلُّ الأرضِ مَعَكَ

(وفي الأخير، حين يقرُّ أعضاء المجلس بخطئهم، ويوافقون على تسليم العازف مكافأته، ويعود الأطفال معه إلى البلدة، يغنّون هذه المقطوعة وهم يرقصون)..

الأولاد:

نحنُ حَفِظنا الدرسْ
نحنُ تعلّمناهُ..
درسٌ جَيِّدْ..
درسٌ رائعْ..
نحن اليومَ تعلمناهْ

• • •

لا تنقُضْ عهدَكْ!
لا تَخْلفْ وعدَكْ!
حينَ تَعِدْ..
نفِّذْ وَعدَكْ
نحنُ حفظنا الدرسْ

• • •

إنَّ العازفْ
سوف يكونْ
بالمرصادْ..
سوف يلاحِقُ كلَّ فسادْ
نحن حَفِظْنا الدَّرْسْ

لقد اتبع سليمان هذا الأسلوب في جميع المسرحيات العالمية التي عربناها ونشرتها دار الفكر.

وأنَّ هناك فارق فيما يتعلق بالقصص المعرَّبة، لأن بنية القصة لا تسمح بالتوقف مراراً عديدة لإدراج المقطوعات الشعرية بين ثناياها. لذلك نرى معظمها يبدأ أو ينتهي بمقطوعة شعرية، تبيّن موضوع القصة أو مغزاها، يضعها الشاعر على لسان أحد الأشخاص أو العناصر في القصة، على غرار ما فعل «لافونتين» في قصصه وخرافاته. ولكن تعريب أسماء الأشخاص والأماكن والجو العام ظل سائداً فيها جميعاً، لأنَّ الأطفال -في رأيه- أكثر ارتياحاً إليه، وتجاوباً معه.

وإذا كنتُ آسف لشيء، فإني آسف لأننا شُغلنا عن التعريب في الآونة الأخيرة بتصنيف النتاج الغزير للشاعر بحسب الموضوع أو المكان، وهو أمر ضروري جداً للتنوع الكبير لهذا النتاج، سواء في مجال أدب الأطفال أو أدب الكبار. أحمد الله على أننا قطعنا أشواطاً في هذا المجال قبل أن يداهم المرض سليمان ويقعده عن العمل منذ بداية ٢٠١٢م.

المراجع

- د. ملكة أبيض وسليمان العيسى (تعريب)، الحذّاء والأقزام، مسرحيات عالمية، دار الفكر دمشق، ١٩٩٨م.
- د. ملكة أبيض وسليمان العيسى (تعريب)، نافخ البوق، مسرحيات عالمية، دار الفكر، دمشق ١٩٩٨م.

التعامل مع الأطفال أثناء الأزمات

د. سلوى مرتضى ✪



يتعرض الكثير من الأطفال في العالم للعنف والإرهاب والنزعات العسكرية ونتيجة قلة الخبرة المعرفية والحياتية لديهم يصبحون أشد الفئات العمرية تأثراً بالأوضاع الناجمة عن الظروف الصعبة، فآليات التكيف التي يملكونها آليات محدودة فخيالهم واسع مما يدفعهم إلى تصور الأحداث بصورة أكبر بكثير من حجمها الحقيقي.

وتهدد الظروف الصعبة جوانب عدة في حياة الطفل إذ تهدد احتياجاته المادية والنفسية الأساسية، والتي تعتمد بشكل مباشر على أفراد أسرته والراشدين من حوله لذا تعد البيئة المحيطة بالطفل ذات أهمية خاصة في مساعدته على التكيف والعودة إلى نمط حياته الطبيعي.

✪ رئيسة قسم تربية الطفل في كلية التربية بجامعة دمشق.

أولاً - هل يمكن التحدث عن الحدث الصادم مع الطفل:

هل يمكنني التحدث عن الحدث الصادم أمام الطفل؟ لا مشكلة من التحدث عن الصدمة أمام الطفل فليس هناك أي داعي لإخفاء الأمر عنه أو محاولة إبعاده عن ذهنه بل على العكس إذا شعر الطفل بأن الكبار من حوله يشعرون بالضيق ويتجنبون التحدث عن الحدث الصادم سوف يجد صعوبة في تخطي الأزمة والتغلب على آثارها حتى وإن رغب في ذلك.

وفي الغالب يواجه الطفل تحديين أساسيين لاستيعاب ما حدث أمامه مثل (إطلاق النار، حادث السيارة أو الحريق) ثم تقبل الوضع الجديد وفي الفترة التي تعقب الصدمة مباشرة تسيطر على الطفل ذكريات مؤلمة عن الحدث الصادم ومشاعر رعب وخوف وبمرور الوقت يشعر الطفل بالحيرة والتشوش والغضب خاصة إذا لم يمنحه من حوله فرصة للتحدث والتعبير عن مشاعره وأحاسيسه وفي مثل هذه الحالة قد يجد الطفل صعوبة حقيقية في التعافي والتغلب على آثار الصدمة. ضع في اعتبارك أن الطفل يقتدي بمن حوله في كل شي لذا ستجده يعبر عن حزنه ومشاعره بطريقة مماثلة لمن حوله.

لذلك حاول ألا تخفي مشاعرك واجعله يعي جيداً أنَّ الكبار أيضاً يشعرون بالحزن ويمكنك أن تتحدث معه حول أفضل الطرق لمواجهة ما حدث والتأقلم معه.

ثانياً- كيف يختبر الأطفال الوضع الصعب؟

يختبر الأطفال والراشدون على حدٍّ سواء الحدث الصادم على شكل ردود أفعال تؤثر على عدة نواح من حياتهم. في المرحلة الأولية ينتاب الأفراد شعور بعدم التصديق والترقب لحدوث ما هو أشد سوءاً وتغلب عليهم مشاعر الخوف والقلق والغضب والحزن بشكل مكثف، وقد يواجهون نوعاً من الجمود في مشاعرهم، وفي الأيام التالية قد يعمدون إلى تجنب ما يذكرهم بالصدمة المباشرة بينما يقومون بمراجعة الحدث بشكل متكرر، ويتأثر (روتين) حياتهم اليومي فيشعرون بالتشتت وعدم القدرة على مزاولة نشاطاتهم اليومية كالسابق، وقد يصحب هذا الوضع مشاعر الذنب ولوم الذات كما يجد معظم الأشخاص صعوبة في التركيز وفي الخلود إلى النوم بينما يلجأ البعض الآخر إلى النوم المتواصل للهرب من مواجهة الواقع المؤلم ومشاعر العجز وهذا يدفعنا للحديث عن ردود فعل الأطفال تجاه الأزمات.

ثالثاً: ردود فعل الأطفال تجاه الأزمات:

يعبر الأطفال عن صعوباتهم بطرق مباشرة عن طريق الشكوى من الخوف التوتر

وطرح التساؤلات بشكل مفرط وبطرق غير مباشرة عن طريق سلوكيات مختلفة وغير ملائمة للطفل والتي تشير إلى وجود مشكلة يمر بها الطفل.

مثل:

- **حركة العضلات:** قد يفقد الطفل بعض التوازن في حركة العضلات فتتحول إلى متشنجة أكثر أو رخوة وعند الصغار قد يظهر بشكل عام في حركة عضلات الفم والتي تؤثر على الكلام حيث تظهر التأتأة والتلعثم عند الأطفال.

- **سلوكيات جنسية:** قد تزداد ملامسة الأعضاء الجنسية لدى الأطفال لوجودهم في وضع ضاغط لأنهم يجدون من خلالها تهدئة آنية لا تتطلب تنظيم وتركيز الأفكار أو السلوك.

- **السيطرة على التبول والبراز:** حيث إن الأطفال في ظروف الضغط قد يحصل لديهم إمَّا إمساك أو حصر بول من جهة وإماً إسهال.

- **التراجع:** عودة إلى سلوكيات طفولية حيث يسلك الطفل سلوكيات طفولية غير ملائمة للمرحلة العمرية أو التطورية الموجود بها الطفل مثل: مص الأصبع، التبول اللاإرادي، الحبو، استعمال لغة الأطفال.

- **الأكل:** التوقف أو التقليل من الأكل وفقدان الشهية من جهة أو الإفراط في الأكل من جهة أخرى وعلى الغالب الحاجة المتزايدة للأغذية الحلوة (السكرية)

- **مشاكل في النوم:** وتنعكس في خلل بالنوم مثل صعوبة في الخلود للنوم أو تغيير في عادات ومكان النوم استيقاظ متكرر إثر كوابيس ومخاوف أو الإفراط بالنوم مثل صعوبة في الاستيقاظ صباحاً الشعور بالتعب والنوم في ساعات النهار ليس كالمعتاد.

- **آلام جسدية:** غالبية الآلام التي يعبر عنها الأطفال هي آلام بالبطن أو الرأس وأحياناً في الأطراف ويمكن أن تكون نابعة من تشنج العضلات النابع من الضغط.

- **التصاق بأغراض معينة:** كالتعلق بأغراض تعطي الطفل الشعور بالأمان مثل لعبة وهناك أطفال يتعلقون بثياب معينة أحذية أو قبعة لها مفهوم الأمان أو الدفاع عنهم حيث يرفض الأطفال خلعها.

- الشعور بالخوف والقلق والخوف من أمور لم يكن يخاف منها كالظلمة والليل.

- ظهور سلوكيات عدوانية موجهة ضد الآخرين كضربهم والاعتداء عليهم.

- انخفاض الأداء المدرسي.

- ردود فعل فسيولوجية مثل: التبول اللاإرادي وازدياد حالات التوتر
- التعلق بالوالدين من خلال الخوف من الانفصال عنهم.
- تضاؤل الاشتراك في النشاطات الخارجية وقلة الاهتمام باللعب.
- الخوف الواضح من البرامج التلفزيونية التي تحتوي على برامج عنيفة.
- ازدياد الميل أثناء اللعب للألعاب القتالية والحروب فيحاكون ما يشاهدونه في الواقع وعلى شاشات التلفزة.
- التعلق الوسواسي القهري بأمور الحرب كتكرار الأسئلة المتعلقة بالحروب.

رابعاً - العوامل الذاتية والموضوعية التي تؤثر في درجة وكيفية تأثر الأطفال بالأزمات:

١- يلعب إدراك الطفل للحدث الصعب دوراً رئيسياً في تحديد المعنى الخاص والذاتي لهذا الحدث بالنسبة إليه وهذا يعني أن الذين يشاهدون منهم حدثاً معيناً يتأثرون به بطرائق مختلفة بحسب المعنى الخاص الذي يعطيه كل واحد منهم للحدث وهذا الأمر يعتمد بدوره على المميزات الشخصية الخاصة بهم.

٢- حدة الضغوط النفسية الناجمة عن الظروف الصعبة والتي تستند إلى حجم ونوع التغيرات التي تطرأ على حياة الطفل وقدرته على السيطرة عليها.

٣- الخصائص الشخصية للطفل الذي يتعرض للأزمة تلعب دوراً - مهمّاً في درجة تأثره بها وتشمل هذه الخصائص:

- طبيعة مرحلته العمرية.
- أسلوب تعامله مع الوضع الصعب، ويشمل ذلك حدة القلق وقدرته على التحدث عن الحدث.
- وجود خبرة سابقة مهما كانت فيما يتعلق بأوضاع صعبة مشابهة أو غير مشابهة مثل الفقدان والتعرض للعنف وغيرها.
- المعنى الخاص الذي يعطيه كل طفل للحدث بحسب حصيلته المعرفية والتجاربية والخيالية.

٤- توافر جهاز الدعم العائلي والذي يلعب دوراً مساعداً أو معوقاً للطفل في عملية تكيفه.

خامساً - التعامل مع الأطفال في أثناء الأزمات:

١- يجب ألا يفترض الوالدان أنه ليس لدى الأطفال أي معرفة عن الأشياء التي سوف تحدث وذلك لأن من المؤكد أنهم يعرفون أكثر مما قد يعتقد الوالدان فالأطفال يكتشفون الأحداث من خلال متابعتهم للبرامج التلفزيونية أو من خلال تواصلهم مع الآخرين ولذلك على الوالدين

أن يقوما بتصحيح المعلومات غير الكافية أو التي تنقصها الدقة وسوء الفهم من دون اللجوء إلى تقديم أي شيء غير واقعي أو غير حقيقي.

٢- يجب أن يتواجد الوالدان وأن يستمعا لأطفالهما وأن يعرفوهم أنه أمر طبيعي أن يتحدثوا عن الحدث الصعب وهنا يجب أن يستمعا لما قد يفكر فيه الأطفال ويشعرون به دون إبداء أي استخفاف أو سخرية فمن خلال الاستماع يستطيعان أن يعرفا طبيعة الدعم الذي يحتاجه أطفالهما كما يجب عليهما أن يكونا مستعدين للإجابة عن جميع أسئلة الأطفال حتى وإن بدت غريبة أو سخيفة.

٣- يجب على الوالدين أن يتشاركا بمشاعرهما مع أطفالهما وأن يخبروهم بأنهما يشعران أيضاً بالخوف والغضب من الأحداث حيث إن ذلك يساعد الأطفال على أن يعرفوا أن الراشدين أيضاً يشعرون بالضيق عند التفكير بالحدث القادم وإذا ما أخبرهم الوالدان بمشاعرهما فيجب عليهما إخبارهم بالطريقة الصحيحة للتعامل مع هذه المشاعر من دون أن يؤدي ذلك إلى زيادة مشاعر الاضطراب عند الأطفال.

٤- يجب استخدام وسائل اتصال مختلفة لتسهيل عملية تعبير الأطفال عن مشاعرهم وذلك بترك المجال لهم حتى يعبروا بحرية عما يجيش بداخلهم من مشاعر وأحاسيس ومخاوف وأفكار وتشجيعهم للتعبير عن أنفسهم بكل السبل كالرسم والكتابة واللعب من دون تدخل من الكبار بالمواعظ أو الإرشادات فمقاطعة الطفل الذي يصف مشاعره لها آثارها السلبية وعدم احترام هذه المشاعر لا يؤدي إلا إلى مزيد من الإحباط والاضطراب.

٥- يجب مساعدة الأطفال على الشعور بالأمن والاطمئنان فعندما تحدث الأمور المأساوية كالحروب مثلاً يبدأ الأطفال بالشعور بالخوف من أن ما قد يحدث في ساحة الحرب يمكن أن يحدث لهم لذا فمن المهم للوالدين أن يجعلا الأطفال يشعرون بأنهم بمنجى من موقع الخطر وأنهما سوف يفعلان ما بوسعهما لحمايتهم.

٦- يجب التركيز على مشاعر الخوف لديهم فبعد أن يكون الوالدان قد جعلا الطفل يشعر بالأمان والاطمئنان وبأنه ليس هناك أي مكروه سيصيبه شخصياً فإنّهما لا يجب أن يتوقفا عند هذا الحد فقد أظهرت الدراسات أنّ الأطفال يشعرون بالحزن أو الغضب أيضاً وهنا يجب على الوالدين أن يساعدوهم على التعبير عن هذه المشاعر إضافة إلى تدعيم مشاعرهم بالتعاطف والاهتمام تجاه ما قد يتعرض له الآخرون.

٧- ترشيد التعامل مع وسائل الإعلام:

تكثر في هذه الأيام النشرات الإخبارية والبث الإعلامي وقت الأزمات فهي متوافرة في محطات خاصة بالأخبار ومحطات غير خاصة بالأخبار وفي كل الأوقات ويصحب تلك النشرات صور مرافقة قد تسبب قسوتها الانزعاج للكبار والصغار لذا يجب العمل على ترشيد استهلاكها وعدم تعريض الأطفال لها بشكل مستمر حفاظاً على حمايتهم من الضغوطات النفسية المزعجة.

ونوصي بعدم ترك الأطفال بمفردهم أمام تلك المشاهد وعدم تكرار المشاهدة للصور نفسها مرات متعددة ولا بدّ من مساعدة الأبناء على شرح كيفية عمل وسائل الإعلام وأن الإعلام مهنة تسعى كل محطة من خلاله كسب العدد الأكبر من الزبائن والمشاهدين ولذلك يستخدمون وسائل متعددة تؤثر في الإخراج الفني للإعلام مع ضرورة تنويع مصادر الأخبار بين تلفاز وشبكة إلكترونية وصحف بما يضمن الحيادية والمصداقية.

٨- حث الأطفال على أداء عمل إيجابي في نطاق الأزمة الواقعة كالحرب أو النزاع كجمع التبرعات وحضور ندوات الحوار فهذا أنفع لهم ولنا نحن الكبار من مجرد التعاطف والشعور بالإحباط والعجز عن تقديم ما ينفع.

سادساً - سلوكيات سلبية نحذر منها في التعامل مع الطفل وقت الأزمات:

١- التخفيف عن الطفل ومشاعره باستعمال عبارات مثل (انس الأمر لقد انتهى كل شيء الآن) وعوضاً عن ذلك يمكن للوالدين أن يقولا للطفل (نفهم بأنك قلق ونرغب في مساعدتك)

٢- قول أي شي غير حقيقي أو غير واقعي مثل (أن الحرب سوف تنتهي قريباً)

٣- إثارة آمال ووعود غير حقيقية أو توقعات يصعب تحقيقها.

٤- الحدة والمقاطعة أو الاستهزاء والسخرية في أثناء النقاش مع الأطفال.

٥- عدم ترك الشعور بالإحباط والغضب ينعكس بشكل مباشر على تعامل الوالدين مع أطفالهما.

٦- الافتراض أن الأطفال لا يعرفون ما يجري من أحداث.

سابعاً - مقترحات لتقديم الدعم النفسي للأطفال

١- برنامج الدعم النفسي للأطفال:

لا بد من إيجاد برنامج لتقديم الدعم النفسي للأطفال إذ تعدّ البرامج من أساسيات الدعم النفسي والاجتماعي وهي من مسؤولية الوزارات المختصة بالطفولة ومراكز الطفولة والجمعيات والمنظمات الموجودة في المجتمع

المحلي وذلك لأنَّ الأطفال هم أكثر الفئات تأثراً بالأزمات.

ويهدف برنامج الدعم النفسي إلى تعريف القائمين عليه بموضوع الدعم النفسي الاجتماعي في العمل المجتمعي المحلي وذلك لـ:

١- الإلمام بردود الفعل وبالاحتياجات وأعمال التدخل الخاصة بالدعم النفسي والاجتماعي للأطفال مع احترام البيئة الثقافية المحلية.

٢- تنفيذ مجموعة من النشاطات التفاعلية مع الأطفال من أجل التفريغ والتعبير عن مشاعرهم وتسريع عملية التكيف لديهم.

٣- ربط الناشطين الاجتماعيين مع مراكز الدعم النفسي والاجتماعي المتخصصة في حال وجود استشارات أو حالات خاصة.

ويتم تنفيذ البرنامج مع الناشطين في المجتمع المحلي ومع الأسر المهجرة من منازلها والمقيمة في مراكز الإيواء ويجب أن يصمم البرنامج بشكل جذاب ومشوق وقابل للتطبيق ضمن البيئة الثقافية لتلك الأسر مستخدماً مع الأطفال أساليب تفاعلية مثل الألعاب ولعب الأدوار ومجموعات العمل.

ويهدف تدريب الأفراد على هذه البرامج ليكونوا عوامل دعم ذاتية ضمن مجتمعاتهم من خلال التعرف على مفهوم الدعم النفسي الاجتماعي وعلى المشاعر المختلفة وآليات التكيف وكيفية تأثر الأطفال بالأزمات ومساعدتهم على التكيف إضافة إلى مجموعة من النشاطات المختلفة التي تدعم وترعى الصحة النفسية لدى المتطوعين والناشطين الاجتماعيين في هذا المجال.

ويتم تنفيذ البرنامج على مرحلتين:

- تدريب داعمين خط أول من المجتمع المحلي على مبادئ الدعم النفسي والتعامل مع الأطفال، الدعم الذاتي للناشطين الاجتماعيين من خلال ورشات عمل خاصة.

- تزويد الداعمين بأدوات ممكن تطبيقها مع الأطفال (اللعب الموجه لعب الأدوار- مجموعات العمل- .. إلخ)

٢- الاهتمام بخدمات الدعم النفسي لمن تضرروا بفعل الأزمة وتوفير أعداد كافية من الكوادر المتخصصة ومراكز الرعاية النفسية التي تتضمن فريق عمل متخصص يقوم بوضع الخطط والمتابعة والإشراف على العلاج والدعم النفسي لجميع الحالات المحمولة من المراكز الصحية وعيادات الأطباء و وضع خطط مدروسة للتأهيل النفسي لمن تعرض للاضطرابات النفسية الناجمة عن الأحداث.

٣- التوجه إلى ضرورة قيام وسائل الإعلام

إلى التوعية بأعراض الاضطرابات النفسية الناشئة عن الأزمات وضرورة معالجتها حتى لا تتحول إلى اضطرابات مزمنة.

٤- التعاون مع كليات التربية لإجراء مزيد من الأبحاث على الاضطرابات النفسية الناجمة عن الأزمات وإجراء الدراسات المسحية بخصوص الأمراض والاضطرابات الناجمة عن الصدمات.

ثامناً - إرشادات للكبار لتجاوز الضغوطات الناجمة عن الأزمات:

- تتعدد أشكال الأزمات حيث يمكن أن تكون أزمة عامة تصيب البلاد أو خاصة بأسرة معينة أو طفل معين وعندما تكون الأزمة عامة هذا يعني أنها تشمل الكبار والصغار وبما أن الكبار هم مسؤولون عن الصغار كان لا بد من توجيه بعض النصائح لهم ليتجاوزوا -هم أنفسهم- الأزمة ويخففوا من شدة الضغوطات النفسية التي يتعرضون لها لأننا عندما نمر بخبرة ذات تأثير جسيم تغير من نمط حياتنا الهادئ المعتاد فمن الطبيعي أن نتأثر بها ونعاني من ارتباك وصعوبة في التفكير وتركيز الانتباه والذاكرة وصعوبة في اتخاذ القرارات وحل المشكلات وتنتاب البعض نوبات من الغضب وصعوبات في التواصل مع الآخرين مع زيادة في الشهية للطعام أو نقصانها وتعبر الأجسام عن توترها بأشكال متعددة كالإرهاق والغثيان وخفقان القلب.... إلخ عدا الخوف والقلق والحزن والغضب ولا داع للقلق فهذا أمر طبيعي نتيجة الظروف غير الطبيعية وهي تعم على معظم الناس الذين يمرون بالتجربة نفسها رغم اختلاف رد فعل كل شخص عن الآخر.

- ومن الممكن أن نساعد أنفسنا في تخطي الاضطرابات التي تسببها الأزمات حتى نكون قادرين على مساعدة أطفالنا لذلك علينا بما يلي:

١- تذكر أنك لست وحدك من أصابه أذى.

٢- تحدث مع الآخرين عن الأضرار التي سببتها لك الأزمات فالتحدث هو دواء بحد ذاته يساعد على التئام الجروح.

٣- ابحث عن وقت للاسترخاء أو فعل شيء تحبه وتمارسه فقد تمارس هواية مفضلة لديك (رسم) رياضة - قراءة - مشي... إلخ.

٤- نؤكد على الرياضة لما لها من أثر في تخفيف التوتر.

٥- احصل على أوقات نوم وراحة كافيين.

٦- تجنب الإفراط في شرب القهوة والشاي والتدخين.

٧- احرص على تناول وجبة الفطور اليومية.

٨- لا تلجأ للحبوب المنومة والمهدئات من دون وصفات طبية.

٩- ابتعد عن الإفراط في شرب الكحول فقد تزيد من قلقك.

١٠- لا تتخذ قرارات مصيرية حياتية هامة خلال الأزمة (كالزواج الطلاق تغيير العمل)

١١- ابتعد عن النشرات الإخبارية أو اعتدل في متابعة الأخبار وضع حدوداً للتعرض لوسائل الإعلام الإخبارية المرئية ولا تحاول رؤية المناظر المؤلمة المتكررة لأن ذلك يوحي إليك بتكرار الحدث نفسه ويزيد من حدة التوتر.

١٢- لا تقطع صلاتك بالآخرين كالزملاء والعائلة خوفاً من الأخطار التي يمكن أن تسببها لك زياراتك وتواصلك معهم.

المراجع

١- المبيض، مأمون -٢٠٠٧م التعامل مع الأطفال وقت الأزمات - لبنان - دار الفكر.

٢- البلداوي، عبد الله ب.ت إدارة الأزمات - معهد الإمام الشيرازي الدولي للدراسات واشنطن.

٣- البشر، محمد سعود ٢٠٠٣م، الإعلام العربي وقت الأزمات والحروب -مقالة منشورة في صحيفة الجزيرة السعودية العدد ٩٠١٢.

٤- جمعية، سيد سف -الفروق الفردية بين الذكور والإناث في إدراك أحداث الحياة المثيرة مجلة علم النفس،الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد ٣٠- السنة الثامنة ١٩٩٤

٥- محمد خليفة، هدى، عاصم نوعية الحياة وعلاقتها بالضغوط لدى المرأة العاملة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس - كلية الآداب.

٦- السيد محمود، الفرحاتي، ٢٠٠٥م، سيكولوجية العجز المتعلم،المركز القومي للامتحانات والتقويم التربوي -المنصورة، مصر.

٧- قاسم، عبد الله، ٢٠٠٥م، سيكولوجية العجز المتعلم،المركز القومي للامتحانات والتقويم التربوي -المنصورة - مصر.

٨- عبد المعطي، حسن مصطفى، ٢٠٠٦م، ضغوط الحياة وأساليب مواجهتها، مكتبة زهراء دمشق القاهرة.

٩- الزراد، فيصل محمد خير، ب. ت، الأمراض النفسية الجسدية - دار النفائس، بيروت لبنان.

١٠- عبد المعطي،حسن ٢٠٠٠، علم النفس الاكيلينيكي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة.

ذوو الاحتياجات الخاصة وإرشادهم

د. محمد قاسم عبد الله ✪



يعتبر موضوع التربية الخاصة من الموضوعات الحديثة في ميدان التربية وعلم النفس مقارنة مع الموضوعات الأخرى: كعلم نفس النمو، وعلم النفس التربوي وعلم النفس الاجتماعي. وتعود البدايات العلمية لهذا الموضوع إلى النصف الثاني من القرن الماضي، ويجمع موضوع التربية الخاصة بين عدد من العلوم حيث تمتد جذوره إلى عدد من العلوم منها: علم النفس والتربية، وعلم الاجتماع، والطب، والخدمة الاجتماعية، والقانون، ويتناول موضوع التربية الخاصة جميع الأفراد غير العاديين والذين ينحرفون انحرافاً ملحوظاً عن العاديين في نموهم العقلي، والحسي والجسمي، والانفعالي، والحركي، واللغوي، مما يستدعي اهتماماً خاصاً بهم من حيث تشخيصهم، ووضع البرامج الإرشادية والتربوية التي تناسبهم.

✪ أستاذ الصحة النفسية وعميد كلية التربية في جامعة حلب.

تاريخياً

لقد وجد الأفراد غير العاديين في كل العصور، ولكن نظرة المجتمعات إليهم قد اختلفت من عصر إلى آخر تبعاً لمجموعة من المتغيرات والمعايير الخاصة بالتغير الاجتماعي. فقد كان التخلص من الأطفال المعوقين هو الاتجاه السائد في أيام اليونان والرومان باعتبارهم أفراداً غير صالحين لخدمة المجتمع.

أمّا في الوقت الذي ظهرت فيه الديانات السماوية فقد كانت الرعاية والمعاملة الحسنة هي الاتجاه السائد، حيث حضّت هذه الديانات على معاملة المعوقين بشكل إنساني.

أمّا في بدايات القرنين السادس والسابع عشر فقد ساد الاتجاه السلبي في معاملة المعوقين وبقي الحال كذلك حتى القرنين الثامن والتاسع عشر، ولكن بعد حركات الإصلاح والتنوير كالثورة الفرنسية، والأمريكية، فقد ظهرت الأصوات التي تنادي بحماية المعوقين وتعليمهم. وقد قسّم ليلي (Lilly، ١٩٧٩) تاريخ التربية الخاصة إلى أربع مراحل:

المرحلة الأولى من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٩٠٠م، وفيها بدأ العلاج بالتربية الخاصة والتركيز على مدارس الإقامة الداخلية.

المرحلة الثانية من عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٢٥م حيث تحولت طبيعة كثير من مدارس الإقامة الداخلية إلى مؤسسات تقوم بدور الوصاية.

المرحلة الثالثة من عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٦٠م حيث مرت كل أنواع التربية الخاصة بتوسع مستمر وثابت.

المرحلة الرابعة من عام ١٩٦٠م حتى الآن حيث تطورت ردود الفعل بخصوص طبيعة التربية الخاصة ودورها، وازدياد السيطرة الفيدرالية. وقد نما ميدان التربية الخاصة من هذه المراحل.

أمّا خدمات التربية الخاصة فقد مرت بالمراحل التالية:

١- **مرحلة العزل والرفض**: واتصفت هذه المرحلة بشيوع المعتقدات الخاطئة حيال المعوقين والتي أدت في الكثير من الأحيان إلى رفضهم وعزلهم عن المجتمع، وفي حالات كان يتم التخلص منهم إما بحرقهم أو قتلهم أو اعتبارهم شياطين وأرواحاً شريرة، وأنهم عقاب من الآلهة للأسرة.

٢- **مرحلة الرعاية المؤسسية**: وفيها ظهرت خدمات المعوقين على نحو منظم في بداية القرن الماضي في بعض الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية، واتخذت هذه الخدمات النمط الإيوائي المتمثل في تقديم المأوى، والغذاء، والرعاية الصحية الأساسية، واستندت هذه الخدمات إلى مشاعر البر والإحسان والمبادرات الفردية لبعض الرجال والأطباء ثم تطورت البرامج التعليمية للصم والمكفوفين.

٣- **مرحلة التأهيل والتدريب**: مع نهاية الحرب العالمية الثانية التي زادت بعدها نسب الإعاقة أصبحت المجتمعات أكثر حاجة للخدمات

التأهيلية، وفي مواجهة النقص في توافر هذه البرامج عند المعوقين واضطر أولياء الأمور والمعنيون إلى إنشاء الجمعيات التطوعية التي تعنى بتقديم تلك الخدمات ومطالبة الحكومات الاهتمام بقضية المعوقين بدرجة أفضل.

وبذلك ساهمت ميادين الطب، والتربية، والخدمة الاجتماعية في تقديم خدماتها التشخيصية والتقييمية والعلاجية، وفهم أسباب العلاقة وأفضل طرق العلاج.

في هذه المرحلة تغيرت النظرة للمعوقين وأصبحت المجتمعات تنظر باهتمام بالغ لهم، ولم تعد خدماتهم تقتصر على الرعاية الطبية بل أصبحت متنوعة تشتمل على تعليمهم وإرشادهم وإعدادهم لمهن مستقبلية نافعة وأصبحت تقدم لهم الخدمات في مراكز كبيرة ومؤسسات متخصصة.

٤- **مرحلة الإدماج**: وقد ظهرت مفاهيم الإدماج والدمج، والتطبيع، في أواسط الستينيات من القرن الماضي مما أحدث تحولاً كبيراً في خدمات المعوقين، وجاء هذا التحول مستفيداً من إنجازات حركة الدفاع عن حقوق الفرد ومناهضة التمييز العنصري في الولايات المتحدة الأمريكية، ولعبت الجمعيات الأهلية ومنظمات المعوقين دوراً كبيراً في لفت انتباه الحكومات وفئات المجتمع إلى الضرر الفادح الذي يتعرض له المعوقون في مؤسسات الرعاية. وتتميز هذه المرحلة بأنّ المجتمع الإنساني أصبح أكثر تفهماً لخصائص المعوقين وحاجاتهم النفسية والتربوية، فظهر مفهوم الإدماج أو الدمج أوضح ما يكون من خلال شعار السنة الدولية للمعوقين (١٩٨١م)، وسادت مفاهيم مثل «المساواة والمشاركة الكاملة، والتربية للجميع» التي تشير إلى مسؤولية المجتمع حيال أفراده المعوقين وإعداده لكي يتلاءم مع متطلبات جميع أفراده واحتياجاتهم.

ولتحقيق هذه الشعارات بدأت الجهود التي تعمل على تعديل البيئة المدرسية لتصبح أكثر كفاءة وفعالية في تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة (القريوتي وزملاؤه، ١٩٩٥م).

إستراتيجيات برامج التربية الخاصة:

مع تطور خدمات التربية الخاصة، في العقود الثلاثة الأخيرة، فقد تطورت إستراتيجيات وبرامج التربية الخاصة، والتي يمكن اجمالها بما يلي:

١- **مراكز الإقامة الكاملة Residential Schools**: تعتبر مراكز الإقامة الكاملة من أقدم برامج التربية الخاصة، والتي ظهرت منذ بدايات الحرب العالمية الأولى، وغالباً ما كانت معزولة عن التجمعات السكانية، وتقدم هذه المراكز خدمات إيوائية، وصحية، واجتماعية، وتربوية، ويسمح فيها للأهالي بزيارة أبنائهم في المناسبات المختلفة. وقد وجهت انتقادات عدة لهذا النوع من البرامج، أهمها عزل الأفراد المعوقين عن المجتمع والحياة الطبيعية والاجتماعية،

ووصم الأطفال الملتحقين بها بأنَّهم أشخاص منبوذون عن المجتمع، وكثيراً ما تكون الخدمات التي تقدم فيها متدنية المستوى.

٢- مراكز التربية الخاصة النهارية **Special Day Care Schools**: ظهرت هذه البرامج كرد فعل على البرامج السابقة وتلافياً للانتقادات التي وجهت لها، وفي هذا النوع من البرامج تقدم للأطفال خدمات تربوية واجتماعية وصحية على مدار نصف يوم تقريباً، وغالباً ما تكون صباحاً وحتى بعد الظهر، وبعدها يغادر الأطفال هذه المراكز إلى منازلهم مع ذويهم. وتبدو مزايا هذا النوع من البرامج في أنها تقدم فرصاً تربوية لفئة معينة من الأطفال المعوقين وفي الوقت نفسه تحافظ على بقاء الطفل مع أسرته وفي الجو النفسي والاجتماعي الطبيعي للطفل. وتشتمل الخدمات على إيصال هؤلاء الأطفال إلى منازلهم إضافة إلى الخدمات الصحية. وعلى الرغم من الحسنات التي تتمتع بها هذه البرامج، إلا أنها لاقت اعتراضاً، وخاصة من حيث الأماكن المناسبة لإقامتها، وقلة عدد المختصين في ميادين التربية الخاصة، وصعوبة المواصلات. ولذلك ظهرت محاولات لإصلاح هذه البرامج التعليمية من خلال ما يسمى المدرس الزائر أو المتنقل Resource Teacher. مهمة المدرس فيها العمل على مساعدة معلمي التربية الخاصة في المراكز النهارية أو في المدارس العادية على حل مشكلات الأطفال المعوقين الأكاديمية والاجتماعية.

٣- الصفوف الخاصة الملحقة بالمدرسة العادية **Special Classes within regular Schools**: ظهرت الصفوف الخاصة الملحقة بالمدارس العادية نتيجة للانتقادات التي وجهت إلى مراكز التربية الخاصة النهارية ونتيجة لتغيير الاتجاهات العامة نحو المعوقين من السلبية إلى الإيجابية، ويخصص في هذا النوع من البرامج صفوف خاصة بالأطفال المعاقين ملحقة بالمدارس العادية، بحيث يكون عدد الأطفال فيها بحدود عشرة ويتلقون برامج تعليمية خاصة بهم، إضافة إلى البرامج التعليمية المشتركة مع أقرانهم العاديين في الصفوف العادية.

ويهدف هذا النوع من البرامج إلى زيادة فرص التفاعل الاجتماعي بين الأطفال، إلا أنَّ صعوبة الانتقال من الصفوف الخاصة إلى الصفوف العادية، وتحديد المواد المشتركة بين الطلبة العاديين والمعوقين، والمواد غير المشتركة، كانت من أهم الانتقادات التي وجهت إليها.

٤- الدمج الأكاديمي **Mainstreaming**
ظهر هذا الاتجاه نتيجة للانتقادات التي

وجهت لبرامج الصفوف الخاصة الملحقة بالمدارس العادية، ويعرَّف الدمج الأكاديمي بأنه وضع الطفل المعاق مع الطفل العادي لبعض الوقت وفي بعض المواد والأنشطة بشرط أن يستفيد الطفل غير العادي منه، وتتاح الظروف المناسبة لإنجاح الدمج.

والمبررات التي تقف خلف هذا الإجراء هو إتاحة الفرصة للطفل غير العادي من أن يستفيد من الفرص التعليمية والاجتماعية للطفل العادي وفي الصفوف العادية.

وقد أشار (الروسان) إلى أنَّ الدمج الأكاديمي يحقق عدة أهداف منها: إزالة الوصمة المرتبطة بفئات التربية الخاصة، مما يخفف من الآثار السلبية الاجتماعية لديهم، وكذلك زيادة فرص التفاعل الاجتماعي، وتوفير الفرص التربوية المناسبة للتعلم، وتعديل الاتجاهات نحو فئات التربية الخاصة بحيث تصبح أكثر إيجابية، إضافة إلى توفير الكلفة المالية اللازمة لفتح مراكز ومؤسسات تربوية خاصة (الروسان، ٢٠٠١م).

وعلى الرغم من هذه الفوائد التي تحققها برامج الدمج الأكاديمي إلا أنَّ لها بعض السلبيات، من بينها: مشكلة توفير المختصين بالتربية الخاصة في المدارس العادية، ويصعب توفير مدرس وغرفة مصادر Resource Room، وعدم تقبل إدارة المدرسة العادية لفكرة الدمج، إضافة إلى مشكلة إيصال المادة الدراسية للأطفال غير العاديين في الصف العادي، ومشكلة إعداد الخطط التربوية والتعليمية للطلبة غير العاديين، وزيادة العزلة بين هؤلاء الأطفال وأقرانهم العاديين.

من هم ذوو الاحتياجات الخاصة؟

يواجه الآباء في الأسرة، والمعلمون في الصف، أطفالاً يختلفون عن الأطفال العاديين في بعض مظاهر نموهم: الجسمي، والعقلي، والحسي، واللغوي، والاجتماعي، والانفعالي، والتعليمي. وكان يطلق على هؤلاء الأطفال قديماً **بالأطفال «الشواذ»** «Abnormal» ولكن هذه التسمية لم تعد مقبولة الآن في ميدان التربية الخاصة، ومن بين التسميات التي تستخدم الآن: **«الطفل المعوق» «Handicapped Child»**، **و«الطفل غير العادي» «Exceptional Child»** وترجمتها الحرفية «الطفل الاستثنائي»، (فهمي، ١٩٦٥م).

وأحدث مصطلح يستخدم الآن هو **«الطفل ذو الاحتياجات الخاصة The Child with Special Needs»**. وقد تطور هذا المفهوم منذ سبعينيات القرن الماضي تطوراً نوعياً بعد أن تقدمت لجنة خاصة برئاسة ماري وأرنوك Marry& arnock بتقريرها عن أوضاع المعوقين في

بريطانيا حيث يتم اعتماد هذا المفهوم الذي يشدد على الجوانب التربوية، ويعطي الحق للفئات الخاصة في الاستفادة من خدمات المدارس العادية، ما لم تكن حالة الإعاقة لديها شديدة لدرجة تحول دون استفادتها من برامج التعليم العادي العام، مثل حالات الإعاقة الشديدة التي تتطلب خدمات في مؤسسات خاصة، أو في مدارس أقرب ما تكون إلى تنظيم المدارس العادية في علاقاتها بالمجتمع.

وقد تم التأكيد على هذا المصطلح لكونه ينطوي على اتجاه إيجابي نحو الفئات الخاصة ويلغي التصنيفات التقليدية في تحديدها للمعوقين، حيث اتسعت هذه التسمية لتشمل كل طفل لديه حاجة خاصة في جانب أو أكثر من جوانب نشاطه أو مظهر من مظاهر نموه، فهناك أطفال لديهم احتياجات تربوية خاصة مرتبطة بنقص حسي (كضعف في السمع، أو في البصر)، وأطفال لديهم احتياجات تربوية خاصة مرتبطة بنقص عقلي (التخلف العقلي أو الإعاقة العقلية)، أو بنقص انفعالي (المعاقون انفعالياً)، أو بنقص انفعالي لغوي نمائي (التوحد)، أو بنقص في جهاز النطق والكلام (اضطرابات النطق)، وهناك أطفال لديهم احتياجات تربوية خاصة مرتبطة بنقص جسمي أو صحي (شلل الأطفال، إصابات الحبل الشوكي، الصرع، الشلل الدماغي، إصابات الهيكل العظمي، تشوه القدم التهاب العظام..)، ولا تتوقف الحاجات الخاصة عند أولئك الذين يعانون من نقص أو ضعف في جانب من جوانب شخصيتهم، بل تتعداها لتشمل أولئك الذين لديهم قدرات عقلية وتعليمية تفوق أقرانهم العاديين، من هنا نتحدث عن الحاجات التربوية للمتفوقين عقلياً (أبو الفخر، ٢٠٠٦م). ونستطيع الآن أن نجيب عن السؤال التالي: «من هم الأفراد غير العاديين أو ذوي الاحتياجات الخاصة؟».

يذكر نيدلر (Kneedler، ١٩٨٤) أنَّ غير العاديين أو ذوي الاحتياجات الخاصة هم الأفراد أو المجموعات التي توصف بأي من الصفات التالية:

١- التخلف العقلي، الإعاقة العقلية.
٢- الإعاقة التعليمية والمعرفية.
٣- الإعاقة الانفعالية.
٤- الإعاقة الجسمية والصحية.
٥- الإعاقة السمعية.
٦- الإعاقة البصرية.
٧- اضطرابات النطق واللغة.
٨- الموهوب والمتفوق.

وقد اقترح كيرك وجالاجر (Kirk & Gallagher، ١٩٨٣) تصنيفاً يختلف قليلاً، حيث قسّمهم إلى الفئات التالية:

١- الانحرافات العقلية: وتشمل الأطفال ذوي الذكاء المتفوق، ذوي القدرة البطيئة في التعلم، والمعاقين عقلياً.

٢- الإعاقات الحسية: وتشمل الأطفال وذوي الإعاقات السمعية، والبصرية.

٣- إعاقات التواصل: وتشمل إعاقات التعلم، والنطق واللغة.

٤- الإعاقات السلوكية: وتشمل الاضطرابات الانفعالية، وفقدان التوافق الاجتماعي.

٥- الإعاقة المتعددة والشديدة: وتشمل مختلف الأنواع المركبة والمتعددة للتخلف والإعاقة، مثل: الشلل الدماغي، والتخلف العقلي، والصمم، والعمى، والإعاقة الجسمية والعقلية الشديدة جداً.

وهكذا يمكننا القول بأن الأفراد ذوي الاحتياجات الخاصة «**هم الأفراد الذين ينحرفون انحرافاً ملحوظاً في واحد أو أكثر من مظاهر النمو الجسمي، والحسي، والعقلي، والانفعالي، والاجتماعي، والتعليمي، واللغة، مما يستدعي رعاية وبرامج إرشادية متخصصة لهم،** سواء أكان الانحراف دون المتوسط (أي سلبياً)، أم كان مرتفعاً أعلى من المتوسط (أي إيجابياً)». ولابد من الإشارة إلى أنَّ هناك تبايناً في وجهات النظر حول تحديد مفهوم الانحراف عن المتوسط تبعاً لاختلاف المتخصصين الذين يهتمون بذوي الاحتياجات الخاصة، فما يعد انحرافاً ويستلزم تدخلاً علاجياً من قبل الطبيب، قد لا يعد انحرافاً له دلالته عند المربين وعلماء النفس أو رجال القانون.

وهذا يعني صعوبة في وضع تعريف شامل للفرد غير العادي، نظراً لوجود تباين في تصنيف الأفراد العاديين، فبعض التصنيفات تستند إلى أسس طبية، في حين يستند البعض الآخر إلى أسس نفسية، أو تربوية، وهكذا، فالفرد غير العادي أو ذوي الاحتياجات الخاصة كما يقول الزعبي (٢٠٠٣م) هو الذي ينحرف عن المتوسط في صفاته العقلية أو الجسمية أو الحسية أو الانفعالية أو الاجتماعية إلى درجة تستدعي استخدام خدمات خاصة لتنمية قدراته وصفاته إلى أقصى حد ممكن، ليتمكن من تحقيق التوافق مع بيئته.

وهكذا فإنَّ تسمية ذوي الاحتياجات الخاصة تشمل الموهوبين والمتفوقين، وكذلك المعاقين الذين تتباين قدراتهم العقلية، وصفاتهم الجسمية، أو الاجتماعية أو الانفعالية عن أقرانهم العاديين والذين يحتاجون لخدمات متخصصة تمكنهم من الوصول إلى أقصى نمو والتوافق مع ذواتهم ومع محيطهم الذي يعيشون فيه. من هنا فإنَّ فئات ذوي الاحتياجات الخاصة هي:

١- الانحرافات الأدنى من المتوسط (المعيار) وتسمى «الإعاقة»، وتشمل:
- إعاقة حسية (سمعية، بصرية، الصم المكفوفون).
- إعاقة عقلية (تخلف عقلي).
- إعاقة تعليمية (صعوبات تعلم).
- اضطرابات التواصل (اضطرابات اللغة والنطق).
- إعاقة نمائية (التوحد).
- إعاقة جسمية (شلل الأطفال، الشلل الدماغي، تشوه الأطراف، ميلان العمود الفقري، الصرع).
- إعاقات صحية (الأزمة الصدرية، إصابات القلب عند الأطفال، السكري).

٢- الانحرافات الأعلى من المتوسط (المعيار) وتسمى «التفوق»، وتشمل:
- التفوق العقلي.
- الموهبة والإبداع.

تعريف بعض المصطلحات والمفاهيم:

استناداً إلى الفئات التي شملها مفهوم ذوي الاحتياجات الخاصة، يجب أن نميز بين مصطلحات أو مفاهيم عدة، كثيراً ما تستخدم كمترادفات:

الإصابة Impairment: حيث يولد الفرد بنقص أو عيب خلقي أو قد يتعرض بعد ولادته للإصابة بخلل فيزيولوجي أو جيني أو سيكولوجي.

العجز Disability: ويشير إلى حالة القصور في مستوى أداء الوظائف الفيزيولوجية أو السيكولوجية مقارنة بالعاديين نتيجة الإصابة بخلل أو عيب في البناء الفيزيولوجي أو النفسي للفرد.

الإعاقة Handicap: ويشير إلى عدم القدرة على تلبية الفرد لمتطلبات دوره الطبيعي في الحياة، والمرتبط بعمره أو جنسه وخصائصه الاجتماعية والثقافية، وذلك نتيجة الإصابة أو العجز في أداء الفرد للوظائف الفيزيولوجية والنفسية. فالإعاقة طبقاً لهذا المفهوم صفة غير متوارثة.

(القريوتي وزملاؤه، ١٩٩٥م).

وهكذا يمكننا القول بأننا نستطيع أن نفهم هذه المصطلحات في ضوء زمن حدوث كل منها:

فالإصابة: هي العامل أو الحدث الأوّل الذي يسبق في وجوده العجز أو الإعاقة والذي ستنتج عنه آثار جسمية أو صحية أو نفسية من هنا نتحدث عن الإصابات التي يدخل فيها: حالات إصابة العمود الفقري، وحالات البتر، وإصابة الدماغ الصارمة، والسكتة الدماغية، والإصابات العضلية والعظمية، وإصابات الحروق..الخ، ولذلك فإنّ مصطلح الإصابة ينطبق على حالات الإعاقة الجسمية أكثر من غيرها من الإعاقات.

أمّا العجز فهو نتيجة الإصابة كالعجز الناتج عن الصرع، وألم أسفل الظهر، والعجز عن التعلم، وحالات مرض السكري، ومرض القلب التاجي، ولذلك فإنَّ هذا المصطلح ينطبق على حالات الإعاقة الصحية.

أمّا مصطلح الإعاقة فهو في المرتبة الثالثة وهو الأكثر عمومية، فالإعاقة قد تتطور نتيجة إصابة وعجز يسبقانها، ونحن نسعى في برامج التربية الخاصة لمنع هذا التطور، وينطبق مفهوم الإعاقة على حالات: الإعاقة البصرية، والسمعية، والعقلية، والتوحد. يجب ألا تقتصر خدمات التربية الخاصة على الوقاية من الإعاقة، والإجراءات التي تقلل من أو تحول دون حدوث الإصابة فحسب، بل يجب أن تشتمل على إجراءات أخرى للحيلولة دون تطور الإصابة إلى حالة من العجز، أو تطور حالة العجز إلى حالة من الإعاقة.

وفي جميع الحالات يمكن التقليل من درجة العجز أو درجة الإعاقة إذا ما اتخذت الإجراءات التربوية والإرشادية المناسبة.

أمّا التربية الخاصة Special Education، فهي تنظيم متكامل يضم جميع الخدمات التي يمكن أن تقدم للأفراد ذوي الاحتياجات الخاصة، وتشمل هذه الخدمات البرامج التربوية، والصحية، والنفسية، والاجتماعية، أو هي «الجزء من الحركة التربوية السائدة في المجتمع والموجهة للأطفال غير العاديين الذين يحتاجون إلى خدمات تعليمية تمكنهم من تحقيق نموهم، وتأكيد ذواتهم، وتؤدي في النهاية إلى اندماجهم مع العاديين في المجتمع لكي يتحقق لهم أكبر قدر من استثمار قدراتهم وإمكاناتهم العقلية المعرفية، والانفعالية، والمهنية طوال حياتهم» (صادق، ١٩٨٨م).

ويعرّفها هيوارد وأورلانسكي (Heward and Orlansky، ١٩٨٤) بأنها «إحدى معاني التربية، وأنها مهنة لها أدواتها الخاصة ووسائلها، واهتمام البحث فيها يتركز على تحسين المادة التعليمية، وتقديمها، وأساليب تقويمها وإشباع الحاجات التعليمية الخاصة بالأطفال والكبار وغير العاديين. وعلى المستوى العملي، غالباً ما تكون التربية الخاصة هي التخطيط الفردي والترتيب المنظم للوضع المادي، والمعدات الخاصة، وإجراءات التدريس وغيرها من وسائل العلاج والإرشاد المصممة لمساعدة الأطفال غير العاديين لتحقيق أكبر قدر من الاكتفاء الذاتي والنجاح الاجتماعي».

أهداف التربية الخاصة:

تسعى التربية الخاصة لتحقيق الأهداف التالية:

١- التعرف على الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة باستعمال طرائق

وأساليب التقييم والتشخيص التي تناسب كل فئة من فئات الإعاقة.

٢- إعداد البرامج التعليمية لكل فئة من فئات الإعاقة.

٣- إعداد طرائق التدريس لكل فئة من فئات الإعاقة، وتنفيذها وفقاً للخطط التربوية الفردية Individualized Educational Plan.

٤- إعداد الوسائل التعليمية والتكنولوجية الخاصة بكل فئة: مثل الوسائل التعليمية للمكفوفين، والمعوقين سمعياً.

٥- إعداد برامج الوقاية من الإعاقة بشكل عام، والعمل على تقليل حدوثها من خلال البرامج الوقائية.

٦- تصميم برامج الإرشاد النفسي والتربوي لكل فئة من فئات الإعاقة بحيث يتم تنفيذها عبر برامج خاصة توجه للأسر من خلال وسائل الإعلام، وداخل المدارس، وعبر مجالس أولياء الأمور.

٧- توفير الرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية لتحقيق أكبر قدر من التوافق بين المعاق وبيئته، ومعالجة مشكلاته الانفعالية والسلوكية.

إرشاد ذوي الاحتياجات الخاصة

لقد شهدت المجتمعات المختلفة تزايداً ملحوظاً في حجم المؤسسات التي توفر الخدمات اللازمة لمواجهة التغيرات المتلاحقة في جميع جوانب الحياة، من هنا فقد شهدت الخدمات النفسية والاجتماعية والتأهيلية تطوراً كبيراً مما يساعد الفرد على التكيف مع مستجدات العصر.

وعلى الرغم من تطور حركة الإرشاد النفسي وزيادة أعداد المتخصصين في هذه المهنة وتزايد الحاجة لخدماتهم في مختلف المؤسسات الاجتماعية والصحية، إلا أنَّ الإرشاد النفسي لذوي الاحتياجات الخاصة له مجموعة من الصفات والخصائص والمتطلبات التي تميزه عن غيره من مجالات الإرشاد (كالإرشاد المدرسي، والأسري، والمهني..).

إنَّ العمل مع ذوي الاحتياجات الخاصة يأتي في مقدمة المهن التي تخلق مشاعر من الإحباط والضغط النفسي والاحتراق النفسي لدى العاملين فيها.

سنتناول في هذا الفصل موضوعين أساسيين: يبحث الأول في طبيعة إرشاد ذوي الاحتياجات الخاصة، ودور المرشد في هذا المجال، والثاني يتناول الاحتراق النفسي لدى العاملين مع ذوي الاحتياجات الخاصة عامة والمرشدين النفسيين بشكل خاص.

طبيعة إرشاد ذوي الاحتياجات الخاصة

لقد نشأ الإرشاد النفسي لذوي الاحتياجات الخاصة في أحضان الأزمة

الاقتصادية التي واجهت المجتمع الرأسمالي في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٢٩م والتي نشأ عنها بطالة واسعة استدعت اختصار وتحديد أعداد العاملين في الصناعة والمهن المختلفة ومن ثم نشأت حركة التوجيه المهني التي كانت التربة الخصبة لنشوء الإرشاد النفسي كما ذكرنا سابقاً.

لقد كان التركيز على أشكال سلوك المضطربين والمرضى النفسيين الذين أفرزتهم الحرب العالمية الثانية، ولكن بعد الخمسينات استفحل الأمر ولم يعد مقتصراً على المضطربين، وإنما امتد ليشمل ذوي الاحتياجات الخاصة في شكل توجيه مهني أطلق عليه الإرشاد النفسي في شكل مهنة المرشد النفسي أو الميداني عام ١٩٥١م.

وسرعان ما اهتمت مدارس علم النفس المختلفة وخاصة السلوكية والتحليلية بمثل هذه المشكلة، مما نتج عنه علم النفس الإرشادي الذي يعمل على تحسين قدرات الأفراد وخاصة ذوي الاحتياجات الخاصة أو غير العاديين، وبدأ الإرشاد النفسي يطور نفسه ويأخذ مكانته كعلم تطبيقي حتى أصبح مهنة معترفاً بها لذوي الاحتياجات الخاصة في المجتمع.

وعلى المستوى العربي، فقد بدأ الاهتمام بالإرشاد النفسي متأخراً عن الاتجاه العالمي وخاصة مجال الإرشاد التربوي وإرشاد غير العاديين، إلا أنَّ جهوداً عربية بدأت منذ أواخر الخمسينيات من القرن الماضي حين بدأت مختلف الدول العربية الاهتمام بذوي الاحتياجات الخاصة وتأهيل العاملين فيها، ويرجع هذا الاهتمام لسببين:

الأول: أنَّ الاحتكاك بالدول المتقدمة قد دفع العديد من البلدان العربية نحو محاكاة البلدان المتقدمة ومنها الاهتمام بالتوجيه المهني والإرشاد النفسي.

الثاني: أدرك المختصون في مجال التربية الخاصة أهمية تكامل الخدمات التي يجب أن تقدم لغير العاديين، والتي يجب أن تشمل الإرشاد النفسي إضافة إلى الخدمات الصحية والتربوية والاجتماعية.

وتتجلى أهمية الإرشاد النفسي لذوي الاحتياجات الخاصة وإعدادهم للاندماج في المجتمع نظراً لأهمية الدور الملقى على عاتق المرشد النفسي في عملية تكييف هؤلاء المعاقين وجعلهم يشعرون بأنهم قادرون على العطاء، وعلى تحمل المسؤولية، والاعتماد على أنفسهم، وزرع الثقة بالنفس، وأنهم ليسوا عالة على مجتمعهم.

من هنا فإنَّ المرشد النفسي المؤهل والمعد إعداداً جيداً يعتبر أمراً في غاية الأهمية في عملية تأهيل المعاقين ودمجهم في المجتمع.

دور الإرشاد النفسي في تحسين تكيف ذوي الاحتياجات الخاصة:

الإرشاد كما اعتبره البعض «فن تخفيف الهموم الشخصية بوساطة الكلام والعلاقة الشخصية والمهنية (ستور، ١٩٩٢م)، ويمكننا القول بأنه نوع من العلاج المبسط الذي يلجأ إليه الناس بعد معاناتهم نوعاً من الشقاء سواء أكان إحساساً بالسخط أو عدم الرضا عن حياة لم تحقق للإنسان آماله، فهو وسيلة لتغيير حال أو لتعلم سلوك مرغوب» (القاضي، ١٩٨١م).

وإذا كان هذا الأمر ينطبق على الإنسان العادي، فإنَّ الطفل غير العادي كغيره من الناس لايعيش في فراغ فهو يؤثر فيه ويتأثر به، كما أنَّ المجالات التي يتفاعل معها في بيئته هي المجالات والمؤثرات نفسها التي يتفاعل معها العادي: الأسرة، والمدرسة، المهنة، والمحيط الاجتماعي، ووسائل الإعلام، النوادي، والاختلاف هو فقط في مدى قدرة كل من العادي وذي الاحتياجات الخاصة على التكيف ومواجهة هذه المواقف والمثيرات، ويرجع هذا الاختلاف إلى بعض الخصائص التي يتصف بها ذلك الشخص صاحب الاحتياجات الخاصة بشكل عام، والتي تتمثل في التبرير، والإسقاط، والسلوك التعويضي، والميل للانسحاب، وغيرها، كما لايمكن إغفال أثر الإعاقة نفسها والتي تقف عائقاً أمام الكثير من فرص التكيف التي تختلف باختلاف نوع الإعاقة ودرجتها.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ أنواعاً معينة من الإعاقة لا تنفع معها عملية الإرشاد النفسي مثل التخلف العقلي الشديد، والشلل الدماغي، والسبب يعود إلى أنَّ المصاب بهذا النوع من الإعاقة لا يدرك، ولا يتفاعل مع المرشد لتحقيق الأهداف المطلوبة. ولكن الأنواع الأخرى من الإعاقة، مثل الإعاقات الجسمية، والصحية، والحسية، وصعوبات التعلم، فإنها تتطلب إرشاداً نفسياً مكثفاً بهدف معرفة قدرات هؤلاء الأفراد وإمكاناتهم ومحاولة استغلالها إلى أقصى درجة ممكنة، مما يساعد في تقبلهم لذواتهم. وحين يسعى المرشد النفسي لممارسة دوره مع الأطفال غير العاديين، لابد له من أن يكون على دراية كاملة بالحاجات النفسية والاجتماعية لهؤلاء الأطفال، فما هي هذه الحاجات؟

الحاجات النفسية والاجتماعية للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة:

على الرغم من تشابه الحاجات الجسمية، والنفسية، والاجتماعية لدى الأطفال غير العاديين مع مثيلاتها لدى الأطفال العاديين، إلا أن إشباعها لدى الفئة الأولى أهم، ويبدو ذلك من خلال استعراض هذه الحاجات لديهم:

١- الحاجة إلى الحب Need for love:
تعتبر الحاجة إلى الحب من أهم الحاجات الضرورية لبناء شخصية الإنسان بصورة سوية، وتتكون هذه الحاجة من عنصرين لا يمكن الفصل بينهما، وهي الرغبة في الود والعطف مع الآخرين، وكذلك الرغبة في الحصول على مساعدة ومساندة (دعم Support) من آخر أو من جماعة وهو ما يسمى بالمساندة الاجتماعية Social support. وترتبط بهذه الحاجة (أي الحب) حاجة الطفل إلى الشعور بالأمان، وهناك الكثير من السلوكيات التي يمكن للأهل اتباعها لدعم هذه الحاجة منها:

- تقبل مشاعر الطفل.
- تقبل سلوك الطفل.
- يجب أن يشعر الأطفال بحب الآخرين لهم.
- عدم التكلف من مصاحبات الحب والحنان.
- مراعاة الظروف الخاصة للأطفال.
- يجب معاملة الطفل المعاق بصورة متساوية مع ذويه، وتعليمه الاعتماد على نفسه والاستقلال.

٢- الحاجة إلى الانتماء Need for belonging: يحتاج الفرد إلى أن يشعر أنه مع الآخرين يأخذ منهم ويعطي، ويتلمس منهم المساعدة حين الحاجة، وأنه يمكن أن يساعد الآخرين. وتنمو هذه الحاجة عند الطفل منذ الشهور الأولى، فالألفة التي توجدها الأسرة تنقلب إلى ولاء لهذا المجتمع الصغير، ثم تنتقل إلى المجتمع الكبير الواسع، الذي يجد فيه الطفل الأمن. ولكن في بعض الظروف الأسرية كالتفكك الأسري والحرمان، قد تتسم مواقف الأهل بالإهمال، أو النبذ، أو الشك، وخاصة مع الأطفال غير العاديين مما يدفع لتصميم برامج إرشادية أسرية توجه للآباء والأمهات وكذلك لأطفالهم.

قد يظهر عدم إشباع الحاجة للانتماء لدى الطفل المعاق، ويشعر الطفل بأنه غير مرغوب، أو منبوذ، أو مهمل، مما يدفع المرشد النفسي إلى إعداد برامج إرشادية تساعد هؤلاء الأطفال حتى تتوافر لهم الرعاية المناسبة والمحيط الأسري الذي ينمي لديهم الشعور بالانتماء وأنه مرغوب فيهم، حتى نزرع في نفوسهم الإحساس بالأمان والانتماء والأمن الداخلي.

٣- الحاجة إلى التقبل الاجتماعي Social acceptance: ترتبط هذه الحاجة بالانتماء إلى الجماعة، وتشير الدراسات إلى أنّ الحاجة إلى التقبل الاجتماعي أعلى عند المتخلفين عقلياً منها عند الأطفال العاديين، وعند المتخلفين عقلياً من نزلاء المعاهد الداخلية أعلى منها

عند أقرانهم الذين يعيشون مع أسرهم. وقد تمَّ تفسير ذلك في ضوء الحرمان الاجتماعي الذي يعيش فيه المتخلفون عقلياً بصورة عامة، ونزلاء المعاهد الداخلية خاصة.

فالطفل المعاق عقلياً يشعر بعدم التقبل الاجتماعي في البيت والمدرسة، مما يدفعه للحصول على التقبل عن طريق ممارسة سلوكيات قد تكون غير سوية مع أقرانه، ويظهر ذلك من خلال تأثره بتشجيع الآخرين وتأييدهم له.

فالأطفال المعاقون عقلياً يثابرون في العمل ويستمرون في إنجاز المهمات المطلوبة حين يتلقون التأييد والدعم الاجتماعي والتقبل من قبل مشرفيهم ومدرسيهم، كما تبين أنَّ الأطفال المعاقين عقلياً في المعاهد الداخلية يتأثرون بالدعم الاجتماعي والتقبل أكثر من الذين يعيشون مع أسرهم (الأشول، ١٩٩٩م).

٤- الحاجة إلى الإنجاز Need for achievement: لقد ربط علماء النفس بين الحاجة للإنجاز وبين الذكاء، ولكن في دراسات حديثة تبين أن هذه الحاجة مرتبطة بالتنشئة الاجتماعية وظروف الأسرة أكثر من ارتباطها بالذكاء، فقد تفوق أطفال الأسر الغنية ثقافياً وذات المستوى التعليمي والاجتماعي العالي على أطفال الأسر الفقيرة والمتخلفة ثقافياً.

وقد افترض البعض أنَّ الحاجة للإنجاز ضعيفة لدى الأطفال المتخلفين عقلياً لأنهم ينحدرون من أسر متخلفة ثقافياً ولا تنمي الحاجة للإنجاز لديهم. وقد أثبتت دراسة كوخ وماكيلان (Keogh & Mcilan، ١٩٧٦) أن حالات التخلف العقلي البسيط المنحدرة من أسر فقيرة ثقافياً لا تجد التشجيع الكافي لتنمية الحاجة للإنجاز، مما يجعلها تعمل بكفاءة أقل، لذلك يجب دعم هذه الحاجة وتنميتها من خلال تحسين شروط التنشئة الاجتماعية والرعاية.

٥- الحاجة إلى الشعور بالكفاءة Need for competence: يجاهد الشخص العادي إلى أن يكون أهلاً لتحمل المسؤولية، وحين يقوم الشخص بعمله فإنه يشعر بالسعادة، ويتفوق الأطفال العاديون في ذلك على غير العاديين وخاصة المتخلفين عقلياً الذين يجهدون للنجاح ولكنهم بنفس الوقت يخافون الفشل.

وقد تبين أنَّ الأطفال المعاقين الذين يعيشون مع أسرهم أفضل من الذين يعيشون في معاهد داخلية في هذا الجانب، فوضع الأطفال المعاقين في معاهد ومؤسسات داخلية يضعف شعورهم بالكفاءة.

المشكلات والمتطلبات الإرشادية لذوي الاحتياجات الخاصة:

على الرغم من أنَّ الأفراد غير العاديين يختلفون فيما بينهم من حيث خصائصهم ومشكلاتهم الشخصية والانفعالية والاجتماعية التي ترتبط بنوع الإعاقة وشدتها، إلا أنهم يتشابهون في الكثير من الخصائص والمشكلات، ومن أهم هذه المشكلات:

١- ضعف الدافعية والتي تكون مصحوبة بمكاسب لاشعورية لدى المعوق.

٢- التردد وعدم المشاركة في مختلف الأنشطة والبرامج التأهيلية.

٣- الاكتئاب.

٤- تصور جسمي مشوه، ومفهوم سلبي عن الذات.

٥- فقدان الضبط والتحكم الذاتي (عدم القدرة على التحكم بالذات والسلوك).

٦- فقدان الاستقلال الجسمي والاقتصادي (الاعتماد على الآخرين).

٧- عدم تقبل الإعاقة والتكيف معها.

٨- الاضطراب في العلاقات الاجتماعية، وضعف المهارات الاجتماعية.

٩- العزلة والانسحاب الاجتماعي.

١٠- السلوك النمطي والطقوسي.

١١- العدوان والتخريب.

١٢- التبول اللاإرادي.

١٣- انخفاض النشاط الجنسي.

دور المرشد النفسي في تأهيل أسر ذوي الاحتياجات الخاصة:

تلعب الأسرة دوراً كبيراً في تكوين شخصية الطفل، فنوع العلاقات السائدة بين الأبوين والأطفال تحدد بدرجة كبيرة، نمط شخصية هذا الطفل. والطفل ذو الاحتياجات الخاصة مثله مثل الطفل العادي يتأثر باتجاه والديه نحوه، كما تشكل شخصيته وفقاً لطريقة معاملة الوالدين له بغض النظر عن كم ونوع المختصين الذين يتعاملون معه خلال حياته، فلا يوجد طرف أكثر التصاقاً وأقوى تأثيراً على الطفل من أسرته، فالتعلق الآمن بالأم والأب يتيح للطفل الشعور بالأمن، ويزيد من احتمال السلوك الاستكشافي لديه، كما يزيد من فرص التعلم والإحساس بالقدرة والتحكم بالبيئة، وينمي لديه شعوراً بالثقة بالذات وبالعالم (داوود، وحمدي، ٢٠٠٤م).

ذو طريق أفراد الأسرة سيتعلم الطفل ذو الاحتياجات الخاصة الاستجابة للمواقف المختلفة في محيطه، كما سيتعلم ثقافة مجتمعه، وطريقة التفاعل الاجتماعي والمهارات الاجتماعية، وبالتالي فإنَّ أفضل مرشد وموجه للطفل هو أسرته، وبناء على ذلك يجب أن تسلم الأسرة بواقع ابنها وأن تتقبله، بل وأن تساعد الطفل نفسه على

تقبل إعاقته، ولايتم هذا إلا إذا قدمت البرامج الإرشادية المناسبة لأسر الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة.

وقد أثبتت عدة دراسات أنَّ نجاح العديد من البرامج الإرشادية والتربوية المقدمة للأطفال المعوقين لاتحقق أهدافها بسبب عدم تعاون الأهل ومشاركتهم فيها (عبدالله، ٢٠٠٣م).

من هنا تحتل برامج إرشاد اسر ذوي الاحتياجات الخاصة دوراً مهماً جداً في نجاح الخدمات الإرشادية والتأهيلية. ويهدف إرشاد أسر ذوي الاحتياجات الخاصة لتحقيق الأهداف التالية إلى:

١- مساعدة أسر الأطفال المعاقين على تقبل حقيقة إعاقة ابنهم والتكيف معها والتعامل المناسب مع الواقع الجديد.

٢- مساعدة أسر الأفراد المعوقين على القيام بالأدوار التي توكل إليهم فيما يتعلق بالحالة، وتحديد مسؤوليات كل عضو من أفراد الأسرة في تنفيذ البرامج التربوية والتأهيلية.

٣- مساعدة أسر الأفراد المعوقين على التكيف الاجتماعي والاندماج بالمجتمع الكبير، والتخلص من مشاعر الذنب أو الانزواء بسبب إعاقة ابنهم.

٤- مساعدة أسر ذوي الاحتياجات الخاصة في الحصول على المعلومات التي يحتاجونها فيما يتعلق بتربية ابنهم وحل مشكلاته، والتعرف على مصادر الدعم والخدمات المتوافرة في المجتمع المحلي.

٥- مساعدة الأسر في الاكتشاف والتدخل المبكرين للحد من آثار الإعاقة لأقصى درجة ممكنة.

٦- مساعدة الوالدين على تنمية استعداداتهما النفسية وعلاج مشكلاتهما الزوجية والأسرية حتى تكون الأسرة متماسكة وقادرة على المساهمة في رعاية الطفل المعاق، لذلك على المرشد أن يتفهم طبيعة شخصية الوالدين، ودوافعهما وحاجاتهما النفسية ومواقفهما تجاه الطفل، وتقديم المشورة لهما، واكسابهما مهارات التعامل، وهذا مايسمى تعليم وتدريب أولياء الأمور parental education training (العيسوي، وعطية، ١٩٩٩م).

الإرشاد الجمعي لمعالجة الاضطرابات النفسية لدى المعاقين

يعتمد أكثر المرشدين النفسيين على طريقة الإرشاد أو العلاج النفسي الجمعي Group Psychotherapy حيث يتواجد عدد من الأطفال المُرْشَدين معاً، وهي أكثر فعالية من طرق العلاج الأخرى في الكثير من الحالات. خاصة أنَّ الكثير من الأطفال المعاقين يعانون من مشكلات رئيسية في علاقاتهم الاجتماعية (أساس

المشكلة العلاقات الاجتماعية) فيكون الإرشاد الجمعي، الذي يتواجد فيه عدد من الأطفال، ذا قيمة إرشادية وعلاجية كبرى.

فالطفل المنسحب أو الخجول ينقصه المهارات الاجتماعية والتواصل. وهذه يتم تعلمها من خلال علاقته بالآخرين. في حين أنَّ بعضهم الآخر يكون عدوانياً وهكذا.

يزود الإرشاد الجمعي بمناخ وجو ممتازين يتعلم فيهما الأطفال طرائق التكيف والعلاقات الاجتماعية السوية. فالطفل الذي يتميز بالانسحاب يتعلم أن يكون أكثر تأكيداً لذاته ومنفتحاً بعلاقاته مع الآخرين، كما يطور مهارات اجتماعية هامة.

من جهة أخرى فإنَّ للجماعة تأثيراً هاماً من حيث كونها عاملاً في التنشئة الاجتماعية. وبسبب أن التغيرات التي تحدث في الإرشاد الجمعي ناتجة عن التفاعلات والعلاقات الفعلية مع الأطفال الآخرين أكثر من كونها محادثة عن موضوع العلاقات (كما في الإرشاد الفردي)، فإن هذا يمثل تعميماً عظيماً للتغيرات السلوكية إلى البيئة الطبيعية للطفل أكثر مما هو الحال عليه في الإرشاد الفردي.

ومن الميزات الأخرى للإرشاد الجمعي، أن الطفل قد يكتسب فهماً أفضل عن سلوكه من خلال رؤية الآخرين له بحيث ينظر إلى مشكلته على أنها ليست فريدة أو متميزة لأنَّ هناك آخرين يعانون منها أيضاً.

إنَّ الطرق الفعالة في التعامل مع المشكلات يمكن تبنيها من خلال تعلم الطريقة التي عالج بها الآخرون مشكلاتهم بنجاح، وبذلك يتعلم الطفل الطريقة المثمرة في حل مشكلاته من خلال رؤيته للآخرين.

هذه العوامل والميزات تجعل من الإرشاد الجمعي طريقة مفيدة، خاصة مع الأطفال الذين يكون لمشكلاتهم أساس اجتماعي يرتبط بالعلاقات والتفاعل مع الآخرين (وما أكثرها عند الأطفال).سنبحث في اتجاهين رئيسين يوضحان جوهر الإرشاد الجمعي المطبق على الأطفال.

علاج الجماعة النشطة:

لقد مهد لهذه الطريقة ووضع أسسها سلافسون Slavson عام ١٩٤٣م ثم طورت لاستخدامها مع الأطفال بين سني الثامنة والثانية عشرة والذين يعانون من أشكال مختلفة من الاضطرابات النفسية. وقد أصبحت هذه الطريقة هامة جداً في العلاج الجمعي للأطفال والمراهقين.

إنَّ علاج الجماعة النشطة وضع أساساً لعلاج الأطفال الذين يعانون من اضطرابات نفسية أقل حدة (مثل الخجل والانسحاب، الإتكالية، العدوان، اضطرابات التصرف والخلق) والذين يستفيدون من خبرات التنشئة الاجتماعية.

في هذه الطريقة تتضمن الجلسة العلاجية مكاناً أو غرفة كبيرة فيها الكثير من المواد كالخشب والمعادن والبلاستيك وأشكال قوارب وطائرات وألعاب وذلك للعمل بها.

كما تضم غرفة العلاج نموذجياً، الحمام والمطبخ لأوقات الفراغ والاستراحة بين الجلسات العلاجية. وكما يتضح فإنَّ مصطلح علاج الجماعة النشطة Activity Group Therapy نشأ عن حقيقة كون الجلسة العلاجية واحدة في المواقف التي ينشغل فيها الأطفال بأنشطة بدلاً من الحديث مع بعضهم، وتتيح هذه الأنشطة التعبير عن الصراعات النفسية والمشاعر، والإطار الأساسي للتفاعل بين أعضاء الجماعة العلاجية، ومع تقدم العلاج تصبح هذه الأنشطة ثانوية بينهم بحيث يحدث التغير العلاجي من خلال هذا التفاعل.

إنَّ العلاج الذي يضم نموذجياً جلسات أسبوعية (لمدة ساعتين في الجلسة الواحدة مثلاً) تأخذ مكانها بين مجموعات من الأطفال يتراوح عددهم من ٤- ٨ من أنماط سلوكية مختلفة.

مثلاً يمكن جمع أطفال عدوانيين وخجولين ومنسحبين بدلاً من أن يكونوا متشابهين في أشكال سلوكهم. وهذا ضروري من أجل حفز التفاعلات المناسبة للجماعة والعلاقات الاجتماعية السليمة وخفض أو كف التفاعلات الاجتماعية غير المناسبة.

وقد شدد سلافسون على أنَّ المعالج النفسي الذي يتبع طريقة علاج الجماعة النشطة يجب أن يتميز بالتعاطف الوجداني وأن يكون داعماً. وفي حين يحاول نمذجة أشكال السلوك المناسبة عليه أن يعتمد على أعضاء الجماعة العلاجية في دعم البناء الضروري للجماعة، وأن يتعامل مع أشكال السلوك الظاهري والصراعات النفسية الداخلية كما تنعكس في أشكال السلوك غير المناسبة.

إن عدم التوجيه يعتبر جزءاً من عمل المعالج لترك الأطفال يعتمدون على أنفسهم في معالجة مهماتهم والتعامل مع صراعاتهم وإيجاد الحلول لها مع أعضاء الجماعة الآخرين، وبذلك يزيد العلاج من نمو وتطور أشكال السلوك التكيفي ومن الثقة بالذات.

العلاج الجمعي عن طريق مقابلة النشاط:

وهي تقنية أخرى أسسها سلافسون أيضاً وفي العام نفسه الذي وضع فيه طريقته السابقة، إلا أن هذه الطريقة مخصصة للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٨-١٢ سنة والذين يعانون من اضطرابات نفسية أشد خطورة بالمقارنة مع الاضطرابات التي تعالجها الطريقة السابقة.

وقد وصف سلافسون أنواع عدة لهذه الطريقة، فهناك علاج الجماعة باللعب التي تستخدم مع الأطفال الصغار والتي تختلف عن طريقة جماعة النشاط التي تضم نقاشاً أو مقابلة interview حيث يتم التعامل مع كل الموضوعات عن طريق النقاش والمحادثة. ويليها مرحلة النشاط حيث ينشغل الأطفال بأنشطة متنوعة من اللعب والتي تختلف عن مواد اللعب في الطريقة السابقة، من حيث إنها تستعمل مواداً تتيح التعبير عن الصراعات الداخلية للطفل واهتماماته الحالية.

تستعمل هذه الطريقة مع الأطفال الذين يعانون من اضطرابات نفسية شديدة حيث يقدم المعالج توجيهاً وإرشاداً فعالاً ومركزاً كما يقدم أسئلة وتوصيات عن سلوك أطفال الجماعة ويزودهم بالتفاعلات وأشكال السلوك المناسبة، كما يناقشهم فيها لتسهيل عملية تبصرهم بذواتهم وبصراعاتهم النفسية.

إنَّ هذه الطريقة العلاجية بالمقابلة واللعب، تشبه تقنية العلاج التحليلي باللعب التي تستخدم فردياً. إضافة إلى التفاعل مع المعالج، يفيد أعضاء الجماعة من التفسيرات والتوصيات التي يقدمها لهم المعالج من خلال مناقشتهم عن أنشطتهم.

خلاصة الفصل: تستخدم تقنيات الإرشاد الجمعي مع الأطفال الذين يعانون من مشكلات متشابهة، كالانسحاب، والعدوان، والتخريب والخجل، والسلوك النمطي.

وهناك تقنيتان حديثتان من تقنيات الإرشاد الجمعي وضعهما سلافسون هما: علاج الجماعة النشطة التي تستخدم لمعالجة مشكلات الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثانية عشرة، والذين يعانون من مشكلات سلوكية بسيطة، والثانية تقنية العلاج الجمعي من خلال مقابلة النشاط التي تطبق على المرحلة العمرية نفسها، ولكن للذين يعانون من مشكلات سلوكية خطيرة.

الاحتراق النفسي لدى العاملين في ميدان الإرشاد والتربية الخاصة

من المعروف أنَّ مقدمي الخدمات الصحية والتأهيلية لذوي الإعاقات من الأطباء وأعضاء الفريق التأهيلي من مرشدين ومعلمين متخصصين، ومعالجين.. إلخ لا يتمتعون بحصانة ضد الثمن الجسمي والانفعالي الباهظ الذي يدفعونه من جراء وجودهم باستمرار مع أفراد هذه الفئة لتقديم الرعاية والخدمات النفسية المطلوبة.

ويعتبر الاحتراق النفسي أو الإنهاك أو الاستنفاذ النفسي Burnout في مجال العمل من أكثر حالات ردود الفعل التوترية والضاغطة شيوعاً لدى هؤلاء الأخصائيين، ويعتبر هذا الاحتراق أو الاستنفاذ ثمناً باهظاً يدفعه هؤلاء القائمون بهذا العمل الإنساني، كما أنه يشكل خطراً كثير الحدوث بين أخصائيي الخدمات الإنسانية بسبب أنهم متورطون انفعالياً في عملهم. ويمكن تصور طبيعة العمل التأهيلي المليء بالمطالب الشاقة التي تستدعي الانخراط التام في حياة المعوقين، ويكون الاحتراق النفسي نتيجة مباشرة لهذا الانخراط.

لقد ظهر مصطلح الاحتراق النفسي لأول مرة على يد فرويدنبرجر في بداية السبعينيات من القرن العشرين (١٩٧٤م)، ليشير إلى الاستجابات الجسمية والانفعالية لضغوط العمل لدى العاملين في المهن الإنسانية الذين يرهقون أنفسهم في السعي لتحقيق أهداف صعبة. وقد أشار ماهر عام ١٩٨٣م إلى أن فريودنبرجر قد قام مع عدد من زملائه بنشر دراسات ومقالات عدة تصف هذه الظاهرة التي شعر بها هو نفسه من خلال تجربته الشخصية أثناء العمل في مجال العلاج النفسي في ولاية نيويورك حيث وجد نفسه يعمل لساعات طويلة ويبذل جهداً كبيراً لعلاج حالات الإدمان في ظروف مهنية صعبة، الأمر الذي جعله يشعر بهذه الظاهرة. وقد عرّفها بأنها «حالة من الإنهاك الناتج عن الاختلاف والتفاوت بين أعباء ومتطلبات العمل وبين قدراته وإمكاناته وتطلعاته».

تعريف الاحتراق النفسي:

لغة: الفعل «احترق» يحترق Burnout، وبالتالي الشخص المحترق هو «الذي يصاب بالضعف والوهن، والإرهاق، ويصبح مستنفذاً ومنهكاً بسبب الإفراط في استخدام الطاقات والقوى أو الموارد الذاتية لديه».

١- يعرّف ماسلاك الاحتراق النفسي بأنه: «حالة من الإجهاد التي تصيب الفرد نتيجة لأعباء ومتطلبات العمل التي تفوق طاقة الفرد وينتج عنها مجموعة من الأعراض النفسية والعضوية».

الاحتراق النفسي يصيب المهنيين الذين يواجهون معوقات تحول دون قيامهم بالدور المطلوب، مما يؤدي إلى الشعور بالإحساس بالعجز والقصور عن تأدية العمل بالمستوى المطلوب، وتكون النتيجة: تدني مستوى الدافعية، والشعور بعدم الرضى، وفقدان الاهتمام بمن يتلقى الخدمات كالطلبة والمرضى.

٢- أما ترش (١٩٨٠م) فيعرّفه بأنه: «التغيرات السلبية التي تحدث في العلاقات والاتجاهات نحو العمل ونحو الآخرين

بسبب ضغوط العمل الزائدة مما ينعكس بشكل رئيسي بفقدان الاهتمام بالأشخاص الذين يتلقون الخدمات وبالتالي التعامل معهم بشكل آلي».

يمكننا القول: بأنَّ الأصل في الاحتراق النفسي هو الضغوط المهنية «ضغوط العمل المتراكمة والطلبات والتوقعات التي لايستطيع الأفراد التكيف معها بنجاح والتي إذا ما استمرت تؤدي لأعراض الاحتراق النفسي». والضغوط المهنية هي: «عجز الفرد عن التكيف مع ظروف ومتطلبات العمل بشكل فعال». ويمكن التعبير عنها بالشكل التالي:

مشكلة نفسية ذاتية وخبرة سلبية سلسلة من الحلقات المتدرجة التي تبدأ بالضغوط النفسية والتوتر===تتفاقم مع الوقت===حين يتعذر حلها===تبدأ مظاهر الاحتراق النفسي.

الاحتراق النفسي والضغط النفسي

كل فرد يمر بضغوط نفسية في مواقف الحياة المختلفة (مهنية وغير مهنية)، والضغوط النفسية: إما مثيرات ضاغطة stressor أو رد فعل للمثيرات الضاغطة stress، وتحدث عادة استجابة للصدمات التي تحدث في الحياة كما يقول آلي (١٩٨٠م). هذه الضغوط كما يقول سيلي لايمكن تفاديها ولكن يمكن التحكم فيها والتعامل معها كما يشدد لازاروس. على حين قال سيلي إنَّ الضغوط ثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة الإنذار: أي رد الفعل الواعي والمنذر بوجود مشكلة أو مثير مهدد.

الثانية: مرحلة المقاومة: أي الصراع النفسي الناشئ عن وجود المشكلة وحشد الطاقة لمواجهتها.

الثالثة: مرحلة الإنهاك: وهي مرحلة استنفاذ الطاقة البدنية والنفسية والانفعالية، أي الإجهاد التام.

أمَّا الاحتراق فهو مرحلة الضغوط النفسية المتأخرة أي مرحلة الإنهاك واستنفاذ الطاقة عند سيلي «إنه المحصلة النهائية والمرحلة المساوية للضغوط النفسية» من هنا فالضغوط النفسية أعم من الاحتراق النفسي الذي نعتبره دليلاً ومؤشراً على الضغوط النفسية للمهنة خاصة الإنسانية منها.

وتصل الضغوط النفسية المهنية بالشخص إلى مرحلة الاحتراق النفسي بسبب:

١- تضارب الأدوار في العمل وغموض هذه الأدوار.

٢- ازدياد حجم العمل.

٣- ظروف العمل الذي ينطوي على بعض المخاطر.

٤- يحدث الاحتراق النفسي لدى

المعلمين خاصة الذين يلتحقون بالمهنة برؤية مثالية مؤداها أنهم لابد وأن ينجحوا.

٥- هناك علاقة تناسبية وثيقة بين الاحتراق النفسي والسعي إلى تحقيق المهام التي يتعذر تحقيقها.

٦- الاحتراق النفسي شكل من أشكال الضغوط النفسية والاستجابة لها (إنه رد فعل جسمي انفعالي لحالة الضغط النفسي الزائد عن الحد).

لابد من القول بأنَّ هناك صلة بين القلق والاحتراق النفسي، فالقلق باعتباره رد فعل لحالة خطر وتهديد يكون مثيره غير معروف عادة كما هو الحال في القلق العام إلا أنه «حالة انفعالية غير سارة موجهة نحو المستقبل، وله أنواع ومستويات: قلق عادي، قلق أخلاقي، قلق عصابي، قلق اجتماعي». وتتشابه الأعراض النفسية والجسمية بينهما، إلا أن ما يميز القلق هو (وجود ألم في الصدر) في حين أن ما يميز الضغوط النفسية (ألم في الظهر)».

مظاهر الاحتراق النفسي:

١- **مظاهر جسمية** (إنهاك عضوي): صداع متكرر، اضطرابات الهضم، ارتفاع ضغط الدم، فقدان الشهية، قلة النوم.

٢- **مظاهر انفعالية** (إنهاك نفسي): سرعة الانفعال، شعور بالإحباط، استعمال المهدئات، التصلب في الرأي، العناد، عدم القدرة على التفاهم مع الآخرين. ويتكون لديه مفهوم سلبي عن الذات وعن الآخرين، وقد ينتهي به إلى عدم الرضى عن الحياة وفقدان الثقة بنفسه وبمجتمعه (وهنا تتداخل أعراضه مع أعراض القلق حول المستقبل، الكآبة).

٣- **مظاهر سلوكية** (ضعف الأداء) وعدم الرغبة في إتمام العمل، والاتكالية، والتمارض، وضعف الدافعية، وانخفاض مستوى الطموح، والميل للبكاء، ونقص الرضى الوظيفي، والرغبة في الإجازات، والغياب المتكرر، وحتى ترك المهنة.

من هو الشخص المهيأ للتعرض للاحتراق النفسي؟

الشخص المهيأ للتعرض إلى الاحتراق النفسي هو الذي يتصف بالصفات التالية:

١- الذي يؤجل الأنشطة السارة والاجتماعية، ويقنع نفسه بأنَّ هناك وقتاً لها «التأجيل، وإيثار الغير» هو قاعدة سائدة لديه.

٢- العيش حسب قاعدة «ينبغي ويجب».

٣- فقدان الرؤية أو المنظور perspective بحيث يصبح كل شيء لديه مهماً وعاجلاً، مما يوقعه في الإنهاك.

٤- الانشغال الدائم والاستعجال في إنهاء القائمة الطويلة التي يدونها لنفسه

كل يوم، حتى حين يتواجد مع آخرين يكون وجوده معهم جسدياً فقط وليس ذهنياً. وبذلك ينجز أعماله بصورة ميكانيكية من دون اتصال وجداني مع الآخرين.

الاحتراق النفسي لدى العاملين في مجال التربية الخاصة:

يأتي العمل مع ذوي الاحتياجات الخاصة في مقدمة المهن التي تخلق مشاعر الإحباط لدى العاملين فيها لما تقتضيه من متطلبات خاصة للتعامل مع فئات متنوعة من الأشخاص غير العاديين سواء الذين يعانون من إعاقات حسية أم حركية أم عقلية أم صعوبات تعلم أم موهوبين ومتفوقين، أم توحد. فلكل واحدة منها تميزها، ولكل منها نمطها الخاص من حيث الخدمة والتعليم والتدريب والمساندة.

وقد وجد كيرياكو وسوتكليف (Kyriacou & Sutcliffe،1979) أن ٣٠٪ من أصل ١٣٠ عامل في التربية الخاصة يعانون من الإنهاك، كما بيّن فيميان وسانتورو (Fimian & Santoro،1983) أن ٧٧٪ من عينة مقدارها ٣٦٥ من العاملين في التربية الخاصة يعانون من مستويات متفاوتة من الضغوط النفسية، في حين وجد سينجر (Singer،1992)، أن ٤٣ ٪ من مجموعة حجمها ٦٦٧٠ من العاملين مع المعاقين قد تركوا المهنة خلال فترة خمس سنوات من التحاقهم بها.

ومن أبرز النتائج التي تمّ التوصل إليها في هذا الجانب:

١- العاملون في التربية الخاصة أكثر تعرضاً للاحتراق من العاملين بالتعليم العام.

٢- العاملون في التربية الخاصة أكثر تعرضاً للإجهاد الانفعالي من معلمي التعليم العام.

٣- نقص الشعور بالإنجاز.

٤- العاملون الجدد والأقل خبرة أكثر احتراقاً من القدامى وذوي الخبرة.

٥- العاملون الذكور أكثر احتراقاً من الإناث.(في أكثر الدراسات)

٦- لم تظهر فروق ذات دلالة تعزى لتغير المستوى التعليمي، البعض أظهر أن حملة الدبلوم أكثر احتراقاً والبعض الآخر بين أن حملة البكالوريوس أكثر احتراقاً.

٧- هناك علاقة قوية بين الاحتراق النفسي من جهة وكل من وضوح الهدف ومستوى الدافعية، والإحساس بالتوافق المهني من جهة ثانية.

- المتخصصون في علاج وتدريب ذوي الاحتياجات الخاصة أكثر احتراقاً من المعلمين في التربية الخاصة، وهم أكثر إحساساً بالإجهاد الانفعالي ونقص الشعور بالإنجاز.

- يتعامل المرشدون النفسيون مع أفراد غير عاديين يختلفون في سماتهم وقدراتهم، إضافة إلى أعباء تصميم البرامج وتنفيذها، مما يتطلب منهم مهارة في الملاحظة والتقييم المستمر.

إستراتيجيات الوقاية والعلاج:

يمكننا إجمال إستراتيجيات مواجهة الاحتراق النفسي بما يلي:

١- ما قبل الخدمة: الواقعية بالعمل، التوازن في العلاقة مع الطلاب، إدراك معنى النجاح والفشل، خفض الضغط النفسي.

٢- إستراتيجيات أثناء الخدمة: مستمدة من الاتجاه المعرفي:

الإستراتيجيات الفردية:

- النظرة التفاؤلية لمهنة التربية الخاصة، طلب المساعدة من الغير، معرفة كيفية استغلال الوقت.
- تفويض بعض مساعديهم بمسؤولياتهم.
- الواقعية في وضع الأهداف لأنفسهم ولطلابهم.
- خفض فترات الاتصال المباشر مع التلاميذ.

على معلم التربية الخاصة أن يقول:

- أستطيع أن أجد الكثير من الحلول لأي مشكلة.
- اعتباري لذاتي غير مقيد بسلوك الطالب.
- يمكن أن أرتكب أخطاء أو أتصرف بحماقة ولكني أظل شخصاً كفئاً.
- لا أخاف من حدوث المشاكل.
- أستطيع أن أسلك طرقاً جديدة.

الإستراتيجيات المهنية:

١- مساعدة معلمي التربية الخاصة الجدد، وتحديد مهامهم بدقة.

٢- معرفة وإدراك توقعاتهم من أنفسهم ومن تلاميذهم.

٣- حفزهم لوضع أهداف واقعية.

٤- تحديد المسؤوليات.

ويقول فريدنبرجر:

١- تكوين مجموعات لمساندة الزملاء بعضهم لبعض.

٢- تركيز المدرسة على البرامج التدريبية باعتبارها جزءاً من العملية التعليمية لمنع حدوث الاحتراق النفسي.

٣- على المديرين إشراك المعلمين في وضع الأهداف وتصميم الخطط والتقييم وغيرها من المهمات.

قضايا مهمة يتعامل معها المرشد النفسي لذوي الاحتياجات الخاصة:

من القضايا البحثية والعملية المهمة التي يجب على المرشد النفسي التعامل معها على المستوى البحثي والمهني: النساء والإعاقات، الاستفادة من ديناميات الجماعة، المنظور المجتمعي، الاحتراق النفسي لدى العاملين في التربية الخاصة.

١- النساء والإعاقات: لقد تمَّ إهمال دور النوع أو الجنس (ذكور، إناث) أي الجندر Gender role على الرغم من أنه أحد العوامل الهامة في الإرشاد النفسي للمعوقين، ويلاحظ أنَّ الدراسات والبحوث العلمية لم تشر إلى هذا الموضوع أو العامل على الرغم من كونه عاملاً ديموغرافياً واجتماعياً بارزاً في التعامل مع فئات غير العاديين.

ويعود إهمال دور هذا العامل إلى أنَّ البحوث والدراسات قد ركزت على العموميات والجوانب المشتركة لغير العاديين أكثر من سعيها إلى التعرف على الفروق بين المعوقين أنفسهم، فقد اهتمت معظمها بالفروق بين الأسوياء والمعاقين في مختلف جوانب الشخصية والاضطرابات النفسية، وفي غمرة هذه البحوث لم تهتم بمشكلة الفروق بين الجنسين من المعاقين أنفسهم.

من هنا فالدراسات التي أجريت وما تزال على المعاقين تتناول بصورة مباشرة وغير مباشرة الذكور منهم، وقد يعزى ذلك إلى ارتفاع نسبتهم بين مجموع المعوقين.

٢- التركيز على عمليات الجماعة والاستفادة من دينامياتها: السؤال الذي يشغل بال المرشدين النفسيين العاملين مع ذوي الاحتياجات الخاصة هو كيف يمكنهم الاستفادة من الجماعة وديناميتها في فهم الإعاقة وحالات العجز ومعالجتها؟ وتعرّف عمليات الجماعة بأنها موقف رسمي منظم على أساس أحكام ونظام يتم من خلاله مقابلة الشخص القائم بالمقابلة (المقابل interviewer) وأفراد الجماعة، ثم يقوم بتوجيه أسئلة نوعية إلى أفراد الجماعة، وتدور المناقشات حول موضوعات في مجال معين. وعادة يتم انتقاء مجموعة من المعاقين المشاركين بحيث تحقق الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه.

٣- المنظور المجتمعي: سعى العديد من الباحثين والمرشدين النفسيين إلى فهم اتجاهات الأشخاص العاديين، والذين لا توجد لديهم إعاقات نحو الأشخاص المعوقين، في حين لم يظهر إلا القليل من البحوث التي سعت إلى تناول الطرائق الواجب إتباعها مع المعوقين وتبنيها من أجل الوصول إلى علاقات إيجابية مع الأفراد الأصحاء. ومن القضايا التي تأخذ حيزاً كبيراً على مستوى العالم اليوم قضية علاقة المعوقين بالآخرين من العاديين وبالمجتمع عموماً، وهو موضوع دمجهم في مجالات التعليم والعمل وما يترتب عليه من نتائج.

٤- الاحتراق النفسي لدى العاملين في التربية الخاصة: وهو من الموضوعات المهمة لأن آثار هذه الحالة ستنعكس على نوع وكمية الخدمات التي تقدم لذوي الاحتياجات الخاصة، وقد تحدثنا عنها سابقاً.

الزهايمر.. ذاكرة تائهة وداء غير مؤكد

ترجمة: محمد الدنيا ✿

أن لا نعـود نتذكـر أرقـام هواتـف أو عناوين كتـب أو بعض الرموز، فليس لذلك انعكاسـات هامة كثيراً على حياتنا اليومية. ولكـن أحياناً، يتسع نطـاق فقدان الذاكرة، حيث العمر هو المسؤول الأكبر. اضطرابات الذاكرة التي تتفاقم بالتدريج مؤشر على داء الزهايمر، وأوّل علاماتـه نسيان الأحداث الحديثـة. تتفاقم الاضطرابات فيه وتصبح معيقة للحياة اليومية. يُحدث داء الزهايمر، بمهاجمته الذكريات، اختلالاً في انتظام الأنا بكليتها. ويتعرض للخطر كمالُ الشخصية نفسُه، في هويتها وعلاقاتها بالآخرين.

تظهر قـدرة التذكر الدقيـق بالتدريج عند الإنسان. في البداية، تكون نواحِ الدماغ المعنية غـير ناضجة عنـد الطفل الصغير، بدءاً بالحُصين وقشرة مقدم الجبهة المخية cortex préfrontal. يسجـل دماغنـا المعلومات بفضل الحصين. وتتيح لنا قشرتنا المخية، التـي تتعدل وتتحور باستمرار حتى نهايـة المراهقة، أن نستمـر في البحث عن الذكريـات، مـع التحقق من أنهـا أحداث عشناها بالفعل وليست أحلاماً أو خلاصاتِ أفلام أو نتاجاتِ استرخاءٍ ذهني.

وعلى نحو موازٍ، مـن الصعب علينا أن نجول في الذاكرة وأن نمتحنها طالما لم يتولد لدينـا شعور بأننا أفـراد لا تنقصنا ميزات الشخصية كاملـةً. إلا أن الطفل لا يتعرف نفسَه في المرآة ولا يميز تمييزاً صحيحاً بين الـ«أنا» والـ«أنت» إلا بين عمر ١٨ و٢٤ شهراً تقريباً.

✿ كاتب ومترجم سوري.

وعلى نحو أعم، ينبغي أن نكون قد اكتسبنا العناصر الأولية للغة من أجل رواية حدث، والسعي بشكل أفضل إلى تثبيته بأن نبقيه حياً باستمرار، بل أيضاً من أجل تعيين العبارات وعمليات التصريف النحوية المرتبطة بالحاضر، والماضي، والمستقبل. فضلاً عن ذلك، يستحيل تصوّر الزمن من ون وجود قابلية للتجريد، من أجل تصنيف الأحداث بشكل صحيح على فترات طويلة، وفي فئات مختلفة أيضاً: «الأسبوع الماضي»، «أول مرة ذهبت فيها إلى المسبح».. أخيراً، يبرهن الطفل والراشد عن فروق عميقة في طريقة الإدراك وتفسير العالم، فدماغ الراشد يبحث عن ذكرياته الأقدم، بينما تشبه لحمة الذاكرة الطفلية لغةً مجهولةً..

يؤثر داءُ الزهايمر على الذكريات بالتدريج، بأن يمحوها أو يضعف معالمها، حيث تتعرض الذاكرة العَرَضية mémoire épisodique (العملية التي نتذكر بها أحداثاً عشناها، مع سياقاتها، أي التواريخ، والأمكنة والحالات الانفعالية التي رافقتها) للخلل. لكن هذه الذاكرة هي التي تجعل شخصية الفرد متماسكة وهي التي تحافظ على البعد بين الذات والآخرين، وهو أمر جوهري في مشاطرة الذكريات بين الأشخاص.

في الواقع، يبدأ تأثير الزهايمر، الداء غير معروف السبب بوضوح حتى الآن، من عمق الفص الصدغي في المخ، حيث يوجد المركز العصبي لذاكرة السيرة الذاتية mémoire autobiographique، فيدمر العمليةَ التي تمكّن الشخص من أن يدرك نفسَه بأنه هو نفسُه المسؤول عن أحداث مختلفة وقعت، في سياق زمني ومكاني معين. ويتابع المرض تقدمه في مختلف باحات القشرة المخية، مبتدئاً بالباحات الترابطية، متلفاً بذلك وظائفَ تنفيذية (تضبط عمليات اتخاذ القرار وتخطيط الفعل)، وتصوُّرَ الأشياء المعقدة (مخطط الجسد وصورته ووجوه الآخرين)، وقدراتٍ نوعية أخرى (الكتابة، والقراءة، والتعبير اللفظي...)، ومخرباً آثار الذاكرة الدلالية mémoire sémantique (ذاكرة الوقائع والمفاهيم). ويتواكب ذلك كله مع تقدُّم الخرف démence.

عوامل خطر نوعية قليلاً

نعرف منذ زمن طويل مؤشراتٍ مرئية حول هذا المرض العصبي التنكسي، على شكل علامتين بارزتين بوضوح على مقاطع نسيجية دماغية: اللويحات الشيخوخية plaques séniles، المرتبة بين عصبونات قشرة المخ، والترسبات الليفية العصبية، في العصبونات نفسها. تستحث هذه الترسبات الموتَ العصبوني وتقلصاً في الوصلات في

شبكات الدماغ، يتوافق اتساعها وخطورة العلامات السريرية. كي يفهموا ظهور هذه العلامات والوقاية من تقدمها.

درس الباحثون نتاجَ الجزيئات التي تشكل اللويحات الشيخوخية، وعينوا الأنزيمات التي تنشّط هذه التفاعلات، وفكوا رموز الجينات الضالعة فيها. قد يكون (الشلالُ النشواني)، وهي العبارة التي اختيرت للإشارة إلى هذا المجموع من التفاعلات المعقدة، مصدرَ اللويحات الشيخوخية ومنشأ الموت العصبوني.

أتاحت هذه الفرضية التحقق من بعض عوامل الخطر بالمستوى الجيني، غير أنها لا تفسر بمفردها تقدمَ داء الزهايمر. مع ذلك، تقدِّم الفرضيةُ سبلاً قد يمكنها إيقاف بعض المراحل الحرجة في هذا النتاج المتسلسل، دوائياً. شكلت أيضاً الأساسَ لوضع لقاح ليست تأثيراته في الوقت الحاضر بمستوى التوقعات المنشودة.

إذا كانت هنالك جينات نوعية للمرض، مثلما يدلل عليه وجود حالات أسرية وراثية، فإن انطلاق المرض يبدو أنه تستحثه عدةُ عوامل خطر غير نوعية كثيرة نسبياً، مثل بعض الهرمونات أو فرطُ عوامل مؤكسِدة. تبدو الاستجابات الالتهابية أنها ضالعة في تسريع العملية المرضية، ذلك أن العلاجات المديدة بمضادات التهاب غير ستيروئيدية، الأسبرين بشكل خاص، تبدو أنها تقلل احتمال الإصابة بداء الزهايمر.

أن يقال عوامل خطر فذاك يعني وجود عوامل وقاية محتملة. توحي دراسة أمريكية، شملت جماعة كبيرة من راهبات زادت مدة عيشهن المشترك في بيئة مستقرة جداً عن خمسين سنة، بأن المحافظة على مجموعة من المعارف العامة المكتسبة وعلى لياقة ذهنية خلال الحياة يمكن أن يشكل أحدَ عوامل الوقاية هذه. نجد لدى تلك النساء رابطاً ذا دلالة بين المستوى الاستعرافي في عند الدخول في الرهبانية، من جهة، والمحافظة على قدرات ذهنية في سن متقدمة، من جهة أخرى. يعزى هذا الصونُ إلى «احتياطي أو مخزون استعرافي» réserve cognitive تشكل إبان النمو قد يعمل على تأخير حدوث أذية في إحدى عتبات الداء، التي لا تعود القدرات الذهنية بعدها تتمكن من تحييد تقدم المرض التكسّي.

هنالك غلطان معرفيان بخصوص الذاكرة العرضية يمكن أن يحجبا فهم داء الزهايمر. الأوَّل، الذي يتضمن رؤية تشاؤمية حول المرض، هو جعل هذه الذاكرة مقتصرةً على مركزها العصبي (تشكيل أو بنية الحصين، في الفص الصدغي)، لاغياً في الوقت ذاته ماضي الفرد كله.

ويتضمن الثاني رؤية تفاؤلية، ويفيد بأن

من شأن علاج ما أن يتيح الشفاء، وذلك بإعادة الفرد بالعلاج إلى ما قبل حالة سابقة كانت قد أفضت إلى خطأ عرضي، ولكن قابل للإصلاح، أدى في النهاية إلى نشوء المرض.

ترتكز فكرة العودة إلى الوراء هذه إلى مفهوم بات اليوم قديماً يرى أن الذكريات قد تكون متوضعة كلها في المكان نفسه، لكن هذا المفهوم لا يأخذ تعقيد الذاكرة بعين الاعتبار. على العكس، يجعلنا داء الزهايمر، من حيث حالات التلف التي يسببها، نتنبه إلى وجود ذاكرات موزعة في بنى دماغية عديدة، ولكن تنسّقها عقدةٌ مركزية.

فضلاً عن ذلك، تثير هذه المسألة من جديد التساؤلَ الأساسي -والمعقد- المتعلق بكل مقاربة للآليات العقلية عبر تنشيطها البيولوجي العصبي. لتبسيط الأمر، ينبغي أن نتذكر أن الدماغ يبتني عبر قدرته على حفظ آثار نشاطه يوماً بيوم، منذ المراحل الأولى من الحياة. ينتظم مجمل هذه الآثار على نحو متماسك في شبكة ترمّز أين ومتى وقعت الأحداث، وكيف أثرت على الفرد.

إن هذا الترميز الأساسي هو الذي سيؤمن استرجاعاً للوقائع، أي متضمناً الذكرى في سياق مكاني وزماني؛ ويتيح للفرد أن يأخذ هذه الذكرى بحسبانه على أنها صورة عن وجوده الماضي.

وهكذا، إنَّ لكل نشاط عصبي مفعولاً تركيبياً تحتفظ الشبكات العصبية بأثره، وإن لم يكن «ذاكرياً» بالمعنى الدقيق للكلمة.

تُدلُّ عملياتُ الضبط والتعديل، والمهارات، والعادات، والعيوب من كل نوع، على وجود ذاكرات موزعة في «منظومات ذاكرية»، وهذا المصطلح مستخدمٌ من أجل إظهار أن كل عملية بيولوجية تحمل أثرَ عملِها. مع ذلك، ينبغي عدم الخلط بين المعلومة المحفوظة في الذاكرة وحاملها، أي الخلايا العصبية والشبكة التي تنشّطها.

عندئذ، يمكن أن تقارَن طريقةُ عمل عالم الأحياء، الذي يدرس الذاكرة البشرية، بطريقة عمل الخبير الذي يقيّم قماشاً مرسّما نادراً. يدْرس الوجهَ المصوَّر، وبنيةَ العناصر الزخرفية، والغرزات المستخدمة، وتشابكات الخيوط، وتركيبها. إن من شأن التحليل التاريخي للمشهد الرئيسي، بمعزل عن المادة التي صنع منها القماش المرسَّم، أن يكشف عن مغزاه، وأصوله، وقيمته، ويجعل إصلاحَه ممتعاً. إنَّ فهم طريقة صنعه، وأسلوب تجميع مختلف أقسامه، والتركيب الكيميائي للملوّنات المستخدمة، هو الذي يتيح معالجته بأكبر دقة ممكنة. وبالتماثل، إنَّ تحليل الآليات الخلوية وتحت الخلوية للذاكرة هو الذي يكشف عن منشأ بعض حالات الفشل الذاكري ويمكن أن يوجِّه العلاجات.

علاجات بيولوجية

في الوقت الراهن، لا شفاء من داء الزهايمر. (تكَّس الدماغ) لا عودة فيه، ويمتد وسطياً على مدى اثنتي عشرة سنة. مع ذلك، من الممكن كبحه، شرط أن تبدأ العناية والرعاية في أبكر وقت ممكن. للأسف، التشخيص المبكر صعب جداً. يهدف بعض الأدوية إلى تحوير معدلات النواقل العصبية، مثل الأسيتيلكولين acétylcholine (الجوهري بالنسبة للاستذكار، والموجود بكمية غير كافية لدى المرضى) والغلوتامات glutamate (الموجود، على العكس، بكمية زائدة، ويسمم العصبونات). هنالك دواء آخر في طور التقييم الآن يهاجم البروتين tau الذي يرتبط تراكمُه بالتكّس العصبي الليفيّ (فيؤدي إلى الموت العصبوني). أخيراً، البروتين beta – amyloïde (الذي يسبب اللويحات الشيخوخية (بين العصبونات) هو هدفٌ للقاح حديث، غير حاسم حتى الآن وقد يُحدث فضلاً عن ذلك آثاراً جانبية.

علاوة على ذلك، ليس هذا اللقاح مكرساً للوقاية من المرض بل لمنع تكاثر اللويحات الشيخوخية عند الأشخاص الذين أصيبوا بالداء. تتميز هذه العلاجات بفعالية محدودة، ولن يمكنها مداواة كامل أعراض الداء، بيولوجية أو سواها. يجب أن يكون موضوع الجرعات متكيفاً مع كل مريض بدقة، ولا يمنع أن تكون هنالك رعاية وعناية نفسية للمريض ومحيطه.

تشخيص

يمكن أن تكون استحالة استرجاع ذكرى من الذكريات ناجمةً عن مشكلتين: إمَّا أن المعلومة لم تكن قد تسجلت (وتلك هي الحال في داء الزهايمر)، أو تكون قد تسجلت لكن المريض لا يتمكن من استرجاعها (تلك هي الحال في أمراض أخرى، مثل الاكتئاب الرئيسي). وهكذا، عمل علماء النفس العصبي على إنجاز اختبارات يتوجب فيها على المريض أن يتعلم لوائح كلمات تنتمي إلى فئات محددة. عندما يفشل المريض في تذكر الكلمات، متدبراً أمره بمفرده (ترجيع حر rappel libre)، يقوم المختبِر بإعطائه إشارة الفئة (تذكير).

إذا أرجعت هذه الإشارةُ الكلمة، فإنَّ المريض يكون قد سجلها من قبل، ولكن لديه مشكلة في استراتيجية الاسترجاع. إذا لم تفده الإشارة في شيء، فمن المرجح أن لاتكون الكلمة قد تسجلت في الذاكرة. إلا أن نتيجة مثل هذه الامتحانات تتطلب دائماً أن تكون متدرجة وفقاً لمعايير متعددة، كالفئة الاجتماعية التربوية للمريض، وعمره، ومستوى دراساته..

يهتم علماء النفس العصبي أيضاً بالتحقق مثلاً مما إذا كان المريض يتمكن

من إدارة مهمة مزدوجة (القيام بشيئين دفعة واحدة)، وهو أمر صعب بالنسبة لمريض الزهايمر. ليست هذه الامتحانات بمفردها كافية بأية حال لوضع تشخيص، ينبغي أن يأخذ بالحسبان عناصر عديدة جداً، من ضمنها عناصر بيولوجية.

ولكن، ماذا لو أنه لا وجود لداء الزهايمر..

يؤكد عدد من العلماء أن الزهايمر داءٌ لا يوجد له حتى الآن وصف دقيق، وما تزال معاييره التشخيصية ملتبسة، وترتبط به آفات غير نوعية.. وهكذا ترتفع اليوم أصوات تشكك حتى بمفهوم داء الزهايمر: يمكن أن يكون الداء نتاجَ اضطرابات مختلفة لها علاقة بالشيخوخة.

ووفقاً لتقرير نشره «المعهد الوطني للصحة والدراسات والأبحاث الطبية» Inserm بفرنسا عام ٢٠٠٧م، فإنه يوجد أكثر من ٨٥٠٠٠٠ مصاب بداء الزهايمر في هذا البلد وحده، أي ٦٪ من الأشخاص المسنين فوق ٦٥ سنة. عموماً، بعد عمر ٨٥ سنة، تصاب به واحدة من كل خمس نساء وواحد من كل أربعة رجال. أمَّا على المستوى العالمي، فيصل عدد المصابين به إلى نحو ٢٤،٣ مليون شخص، مع ٤،٦ مليون حالة جديدة كل عام، أي مصاب جديد كل ٧ ثوان.

من المؤكد أن الزهايمر، آفة المجتمعات التي يكثر فيها عدد المسنين، هو المرض التنكّسي العصبي neurodégénérative لهذا القرن الأخير. والأسوأ من ذلك أنَّ عدداً من الخبراء المفوضين من «المعهد الوطني حول العمر» و«جمعية الزهايمر» في الولايات المتحدة وضعوا لائحةً محدَّثة لمعايير المرض التشخيصية إذا ما أُخذ بها فإن عدد المرضى في العالم سيكون أكبر مرتين إن لم نقل ثلاث مرات من العدد المشار إليه اليوم.

مع ذلك، يتساءل عدد من العلماء، في مقدمتهم عالم الأعصاب «بيتر وايتهاوس» Peter Whitehouse، مؤلف كتاب يحمل العنوان البليغ «أسطورة داء الزهايمر، ما لا يقولونه لكم حول التشخيص المشكوك فيه»: أليست الحاجة إلى وضع معايير جديدة برهاناً على أننا لا نعرف جيداً اليوم ما هي الأشياء التي تتطابق مع مفهوم داء الزهايمر؟

أليس في الأمر ميل إلى خلط هذا المرض المحدد مع اضطرابات شيخوخة الدماغ؟ وأخيراً، هل داء الزهايمر موجود بالفعل؟ هذا الوضع جديد ومختلف، لكنه يعبر مع ذلك عن واقع مقلق: ليس داء الزهايمر معرَّفاً بشكل واضح اليوم، ويكتنف الغموض تشخيصَه.

بين الزهايمر وخرف شيخوخي

يقول «مارسيال فان دير لندن» Martial Van der Linden، أستاذ الباثولوجيا النفسية وعلم النفس العصبي السريري في جامعة «لييج» البلجيكية، الذي ترجم كتاب «بيتر وايتهاوس» إلى الفرنسية، بصريح العبارة:

ليس ما يسميه الأطباء اليوم داء الزهايمر هو الباثولوجية التي حددها عالم الأعصاب الألماني «ألويس الزهايمر» Aloïs Alzheimer ووضع لها أول وصف عام ١٩٠٦م. وفقاً للتعريف الحالي، داء الزهايمر هو تكس الدماغ الذي يصيب الوظائف العقلية العليا، خصوصاً الذاكرة. يفقد المصابون، شيئاً فشيئاً، القدرة على تذكر أحداث حديثة، وتعلّم أشياء جديدة، والقيام بعدة مهمات في آن واحد. يظهر الداء في دماغهم على شكل نمطين من الآفات، التي تتوضع في غالبية الحالات في الحُصَيْن. ثم في القشرة المخية (اللويحات النشوانية والتكسُّات اللُّيَيْفية العصبية).

إلا أنَّ هذا التعريف أثار اعتراضات كثيرة. أولاً، لم تكن اضطرابات الذاكرة في لبّ عمليات الوصف الأولى للمرض التي وضعها «ألويس الزهايمر» منذ أكثر من قرن. واليوم، يعتبرون أن هذه الباثولوجيا يمكن أن تصيب أيضاً أشخاصاً شباناً، أي بعمر يقل عن ٦٥ سنة، وأشخاصاً أكبر سناً، إن لم نقل مسنين جداً، بعمر يزيد عن ٨٥ سنة. تمثل هذه الفئة الثانية حتى غالبية الأفراد المشخّصين.

إلا أن هذا المعنى الموسع للمرض لا يتوافق البتة مع الحالات التي وصفها «ألويس الزهايمر»: كانت هذه الحالات كلها تخص فئة الأفراد الشبان. كان عمر مريضته الأولى ٥١ سنة (عام ١٩٠٦م)؛ وكان عمر مريضه في الحالة الثانية ٥٤ سنة. وحتى إزاء هذه الأشكال من الداء، التي توصف اليوم بأنها مبكّرة، لم يكن طبيب الأعصاب الألماني متأكداً من أنه اكتشف عملية باثولوجية خاصة تتميز عن الخرف الشيخوخي، الباثولوجية الأخرى المرتبطة بالشيخوخة.

في ستينيات القرن العشرين، برز منعطف مفهومي، بتأثير من العلماء الأنكلو-سكسونيين، الذين قرروا أن يجمعوا المرضين في مفهوم واحد: داء الزهايمر الكهْلي Alzheimer présénile والخرف الشيخوخي démence sénile - بسبب تشابه الآفات الدماغية الحاصلة. منذئذ، يتحدثون عن الزهايمر مبكر البداية وآخر متأخر البداية. «كافح أطباء الشيوخ والأسر أيضاً من أجل استبعاد المفهوم الكارثي عن الخرف الشيخوخي والعمل بحيث ينظر

إلى الأشخاص المسنين على أنهم مرضى يشكلون حالة خاصة»، تقول «كاترين توماس أنتريون» Catherine –Thomas Anterion –، طبيبة الأعصاب وخبيرة علم النفس العصبي في مركز «سانت إتيين» الاستشفائي بباريس.

من المؤكد اليوم أن توسيع مفهوم داء الزهايمر ليس موضع إجماع. «من الخطأ دمج الخرف الشيخوخي بداء الزهايمر، لأن الوصف السريري ليس هو نفسه البتة في الحالتين»، حسب رأي «كريستيان درويسنيه» Christian Derouesné، الأستاذ المتقاعد من جامعة باريس الخامسة والرئيس السابق لقسم طب الأعصاب في مشفى «السالبتريير» بباريس. «يوجد ميل قوي نحو إجراء تشخيص متنام للناس، لكن هذا الأمر غير مبرر دائماً. حسب رأيي، الخرف الشيخوخي موجود خارج نطاق داء الزهايمر»، يقول من جانبه «رودولف كاستلاني» Rudolph Castellani، طبيب الأمراض العصبية في جامعة «ميريلاند». ويذهب البعض أبعد من ذلك، مثل «بيتر وايتهاوس» الذي لا يتردد بالدعوة إلى إعادة النظر بوجود الداء نفسه، بما في ذلك أشكاله المبكرة: «من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، فصل السيرورة المسماة اليوم داء الزهايمر عن شيخوخة الدماغ»، يضيف مؤكداً.

هل تشكل هذه التحفظات أساساً علمياً حقيقياً؟ الشيء المؤكد الذي يقبله علماء الأحياء العصبية هو «أن المرضى الشبان والمسنين لا يتقاسمون المشهد المرضي نفسه أبداً».

يؤكد «لوك بوييه» Luc Buée، رئيس فريق الأمراض العصبية التنكّسية والموت العصبي في مركز أبحاث «جان بيير – أوبير» (مدينة «ليل» / فرنسا)، ولكن دون إعادة النظر بوجود الداء. الشيء الغالب لدى المرضى الأصغر سناً المصابين بداء الزهايمر هو اضطرابات اللغة وإنجاز الحركات وتعرُّف الأشياء والوجوه. هذا بينما الشيء الغالب لدى المسنين المصابين به هو اضطرابات الذاكرة. ولكن كيف نصفهم على نحو مؤكد بأنهم مصابون بداء الزهايمر وليس بأمراض شيخوخة أخرى؟

٣٠٪ أخطاء تشخيص...

في الواقع، كبقية الجسم، يشيخ الدماغ ويمكن أن يصاب بالتالي بعدة أمراض مترابطة. «لا توجد لدينا الوسائل السريرية كي نقول لأحدهم: أنت، مصاب بداء الزهايمر حقيقي، ولآخر: أنت، غير مصاب. يلزم التمكن من التشخيص منذ علامات المرض الأولى»، يقول «بوييه».

الضبابية المحيطة بمفهوم داء الزهايمر موجودة بمستوى التشخيص. في عام

٢٠٠٠م، قدرت دراسة أمريكية أنجزها خبير علم النفس العصبي «أوسكار لوبيز» Oscar Lopez نسبة الأخطاء التشخيصية المتأتية من المعايير التشخيصية الدولية بنحو ٣٠٪. كان ذلك منذ أكثر من عقد طبعاً، ولكن بما أنَّ التوصيات الدولية لم تتغير منذ ذلك الحين، فكل شيء يدفع إلى الاعتقاد بأن هذا الرقم يبقى مرتفعاً حتى اليوم. «نُدرج، مع تطبيق هذه المعايير، كثيراً من الناس غير المصابين بداء الزهايمر، بل بنمط آخر من الخرف»، يؤكد «درويسنيه».

في الواقع، أية معايير نعني بالضبط؟ إنَّها معايير سريرية، لأنَّ الآفات الدماغية النوعية للمرض، أي اللويحات النشوانية والتكسات الليفيية العصبية، غير مرئية إلا بتشريح الجثة - حتى لو أنَّ التصوير الطبي في المختبرات قد أحرز تطورات - ، وهو ما يعقّد التشخيص حتماً.. يكتفي السريريون منذئذ بتقييم الاضطرابات الاستعرافية للمرضى على أساس التوصيات الدولية التي صدرت عام ١٩٨٤م الواردة في «الكراس التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية» DSMIV ولدى الهيئتين الأمريكيتين: Neurological (Disorders and Stroke (NINDS و«جمعية الولايات المتحدة لداء الزهايمر» (ADRDA).

كي يمكن وضع تشخيص للزهايمر، ينبغي أن يكون الشخص مصاباً بـ«خرف»، أي أن يعاني من اضطرابات الذاكرة المرتبطة على الأقل بوظيفة استعرافية عليا أخرى، مثل اللغة أو تعرُّف الأشياء. عدا ذلك، يجب أن تكون هذه الاضطرابات متدرجة، وشديدة بشكل يكفي للتأثير على نشاطات الحياة اليومية. مع ذلك، يمكن الاستعانة بفحوص أخرى، مثل المعاينة بالتصوير بالرنين المغنطيسي للكشف عن وجود ضمور تدريجي في الحُصَين، هذه المنطقة المخية التي تؤدي دوراً مفتاحياً في الذاكرة.

إلا أنَّ هذه المعايير هي بالأحرى ضبابية في النهاية. «ليس لدينا تعريف عملياتي للمرض. ماذا نعني بعبارة، تأثير على نشاطات الحياة اليومية؟.. نترك للسريري ولخبرته أمر الاهتمام بتقييم هذا الجانب»، يقول «جان - فرانسوا دارتيغ» - Jean François Dartingues، منسّق «مركز ذاكرة الوسائل والأبحاث» في «الأكيتين» بفرنسا. إذاً، ليس لدى الطبيب العام وطبيب الأعصاب التعريف نفسه للداء، حسب اعتقاده. من هنا ضرورة تدقيق التشخيص، باللجوء بشكل خاص إلى فحوص بيولوجية مثل البضع القَطَني حين يكون ذلك ممكناً، وفقاً لما أشير إليه خلال مؤتمر دولي حول داء الزهايمر عقد في تموز ٢٠١٠م في جامعة هونغ كونغ.

علامات مشتركة

في الواقع، يتيح البزل ponction معايرةَ واسمين بيولوجيين للويحات النشوانية والتكسات الليفية العصبية في السائل الرأسي السيسائي céphalorachidien: الببتيد النشواني بيتا والبروتين تاو.

يشكل تضاؤل الببتيدات النشوانية بيتا وارتفاع البروتينات تاو علامةً على أن هذه الببتيدات قد تراكمت في الدماغ على شكل لويحات وعلى أن الثانية قد رفضتها العصبوناتُ المتكسة.

هذه التقنية موجودة مثلاً في عدد من المشافي الفرنسية منذ وقت مضى، وإن لم تُدرَج بعد في التوصيات الدولية.

الأطباء السريريون واثقون من أنه كلما ازداد تطبيقها تزداد دقة التشخيص.

التعريف الباثولوجي العصبي السائد للزهايمر غير واضح. يفيد هذا التعريف بأن وجود اللويحات النشوانية مع التكسات الليفية العصبية هو ما يميزه. إلا أن هذه الآفات ليست نوعية: يمكن أن تلاحظ في دماغ مسنين سليمين (امتدادها لدى ١٩٪ من هؤلاء مماثل لامتدادها لدى الأشخاص المرضى) أو في دماغ أشخاص مصابين بنمط آخرَ من الخرف.

أكثر من داء الزهايمر واحد

ليس من النادر أن يلاحظ، بعد فتح جثة فرد مشخص على أنه مصاب بداء الزهايمر في حياته، أن اللويحات وحدها، أو التكسات الليفية وحدها، موجودة في دماغه. «هذا الوضع، الذي يشمل نحو ١٠٪ من الحالات، غير مشار إليه في الدراسات الطبية الوصفية. إلا أنه يطرح مشكلة حقيقية. هل هؤلاء المرضى مصابون بشكل لا نموذجي بداء الزهايمر أم بمرض آخر؟»، يتساءل «كريستيان درويسنيه». وجدير بالذكر أن «ألويس الزهايمر» نفسه أشار عام ١٩١١م إلى حالة المدعو «يوهان ف.»، الذي لم تظهر في دماغه سوى لويحات نشوانية: «أُهملت هذه الملاحظة على نطاق واسع، وأرى أن من شأنها أن تجعل تعريفنا لداء الزهايمر غير دقيق»، يضيف «درويسنيه».

من الصعب إذاً أن نطابق بين تشخيص سريري وفحص باثولوجي عصبي، بل وسننتهي إلى طرح السؤال مرة أخرى: ما هو داء الزهايمر؟ «لا وجود له، على الأرجح. هناك سيرورات باثولوجية مختلفة تظهر على شكل مجموعة أعراض مدروسة تسمى اليوم داء الزهايمر»، يقول «دروسنيه».

المشكلة هي أن هذه الشكوك المحيطة بالتعريفات السريرية والباثولوجية العصبية لهذا الداء موجودة بشكل منطقي في البحث عن أسبابه.

أشار الاختصاصيون إلى عدة فرضيات في تفسير حدوث الداء، ولكن تقدمتها

واحدةٌ استقطبت جهود الأبحاث الدوائية: الفرضية النشوانية. وفقاً لهذه النظرية، فإنه تبعاً لعوامل بيئية ولاستعداد وراثي خاص، تتراكم قطع صغيرة من البروتينات، أي ببتيدات نشوانية بيتا، في الدماغ، في البداية على شكل مركبات ذوّابة، ثم على شكل ترسبات غير ذوابة، أي اللويحات النشوانية. ربما كانت هذه الأخيرة تنشط بذلك عملية طبيعية للشيخوخة، أي التكسات الليفية العصبية، التي تفضي في نهاية المطاف إلى موت العصبونات. «رصدت الصناعة الدوائية مبالغ ضخمة بهدف إيجاد أدوية تمنع ترسب هذه اللويحات النشوانية. ومن هنا، ليست مستعدة للتخلي عن هذه الفرضية.

مع ذلك، ليس من المؤكد أن العلامات السريرية تتحسن عبر السعي القائم إلى منع حدوث هذا الترسب!»، يوضح «كريستيان درويسنيه». في الواقع، أوحت دراسات عديدة مؤخراً بأن ربما كانت اللويحات النشوانية تتمتع بوظيفة حماية من خلال اختزانها الخامل للمركبات البروتينية النشوانية بيتا، التي يمكن أن تكون هي المسؤولة الفعلية.

ولكن قد يكون من غير المجدي البحث عن سبب وحيد لداء الزهايمر، ذلك لأنه لا يمثل بذاته في شكله الأصلي مرضاً وحيداً. «ربما كان يتوجب علينا بالأحرى أن نتحدث عن متلازمة الزهايمر syndrome d`Alzheimer»، حسب ملاحظة «لوك بوبيه». وهكذا، فإنه قد لا يوجد داء زهايمر وحيد بل عدة أشكال من الزهايمر، مثلما لا يوجد سرطان وحيد، بل عدة أشكال من السرطانات. وكان قد لزم ما لا يقل عن ستين سنة كي يتمكن اختصاصيو السرطان من إيضاح ذلك وتطوير أدوات علاجية بالنتيجة.

لا يوجد حالياً أي دواء قادر على إبطاء تطور الآفات الدماغية في داء الزهايمر. والأدوية الموجودة حالياً لا تعالج منشأ المرض بل مظاهره: الاضطرابات الاستعرافية والسلوكية.

لكن هذه الأدوية محدودة الفعالية. «تبطئ إلى حد ما التدهورَ الاستعرافي ولكن لا نلاحظ أي تحسن يعتد به»، يوضح «بوبيه»: أمَّا العناية غير الدوائية، فتستند إلى رعيل من الطرق (التنبيهات المعرفية، والعلاجات النفسية- الاجتماعية، والحركية..) ذات الفعالية غير المؤكدة بشكل دائم.

إذن، تشخيص صعب، وعلاجات في بداياتها وغير مضمونة النتائج، ووَصْمٌ للمرضى أحياناً.. يطرح داء الزهايمر مشكلات وأسئلة عديدة من بينها نظرة المجتمع حول الشيخوخة.

كان من المعتقد حتى وقت قريب أن

نسيان أسماء العلَم، على سبيل المثال، أمرٌ عادي بعد بعض التقدم في العمر، لكن الأمر يغدو أكثر إثارة للقلق عندما ينسى الناس كيف يعودون إلى بيوتهم.

فضلاً عن ذلك، لا تمثل اضطراباتُ الذاكرة سوى عنصر بين أخرى. في بعض الحالات، يكون بعض الأعراض بالأحرى تغيرات سلوكية: تبلُّد (فتور الانفعال) apathie، واكتئاب، وانزواء اجتماعي..

أمّا العنصر الذي ينبغي أن يدفع إلى طلب الاستشارة الطبية فهو فقدان الاستقلال، أو اختلالٌ غير مسبوق في العلاقات الاجتماعية لدى المصاب.

في الواقع، هناك مصابون لا يعون مشكلاتهم، فيلزم أن يقوم القريبون منهم بالاستشارة. ولكن هناك من يذهب للاستشارة من تلقاء نفسه، مع انطباع لديه بأن شيئاً ما لا يسير على ما يرام. لا يوجد مريضان متشابهان، وليست الأذيات الدماغية نفسها ذات وثوقية دائماً.

داء الزهايمر متغاير إلى درجة أن علماء عديدين يرون أنه يمثل النتيجة الممكنة لعمليات كثيرة تبدأ منذ وقت سابق في الرحم مع تغذية الأم (التي تؤثر على نضج دماغ الرضيع)، ثم تستمر مع خبرات الحياة، ومستوى الدراسة، والمحيط، والشخصية. ذلك تماماً كالأمراض العصبية النمائية مثل الانطواء على الذات autisme والفُصام. يسبب ذلك كله غالباً صعوبات تشخيصية كبيرة جداً.

الأمر في الواقع دقيق ومحرج جداً حين الاشتباه بوجود الداء. عندئذ، هل ينبغي إعلام المريض بحالته؟ يرى عدد من الاختصاصيين أنه يتوجب الموازنة بين إيجابيات وسلبيات هذا الإعلام، وأن من الأفضل الاحتفاظ بالتشخيص، وإلا تفاقمت المشكلات.

يحتاج المرضى للاطمئنان، وللاستمرار في حياتهم الاجتماعية، والأسرية، وفي ذلك مراهنة على صورة أنفسهم. ومن شأن اطلاع المصاب على التشخيص أن يبعده عن المجتمع في عدة جوانب.

من جهة أخرى، تُظهر معطيات كثيرة أن المستوى الدراسي يشكل عامل حماية من الداء، ولكن، على نحو أشمل، من شأن الاهتمام بأشياء معينة، ووجود هوايات، والانضمام إلى شبكة علاقات كثيفة أن يترك تأثيراً وقائياً. علينا أن لا نهمل التوصيات المقبولة أيضاً بالنسبة للأمراض القلبية الوعائية: يساعد الأكل بشكل سليم، والتمرين المنتظم ابتداءً من سن الأربعين، على عيش شيخوخة أفضل. عدا ذلك، كلُّ تعرُّض لشدّة هامة مؤذٍ للدماغ.

المصدر

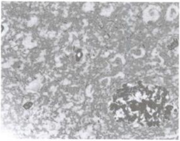
- Sciences Humaines.
- Science& Vie.

الفرنسيتان









اكتشاف أوّل عالم خفي

موسى ديب الخوري ✪

هل نحن على عتبة تحول كبير في التصورات الكونية مماثل للمنعطف الذي ألغى مركزية الأرض للعالم؟ ربما. فنتائج الأقمار الصنعية مثل القمر الأوروبي بلانك يمكن أن تقدم لنا البرهان على أن كوننا ليس سوى واحد بين عدد لا يحصى من الأكوان -الفقاعات الأخرى، أو بين ما يسمى الأكوان- الوديان، والتي تكون هي نفسها عبارة عن حلقة في سلسلة أوسع بكثير من الأكوان، بحيث نصل إلى ما بات يعرف بـ«الميغا كون»، أو الكون الكبير (mega-univers أو mégavers). ومع أن هذه الفكرة تبدو خيالية تماماً لكنها تفتح حقلاً جديداً كل الجدة للأبحاث بالنسبة لعلماء الكونيات. ويقول ليونار سوسكيند Leonard Susskind، «لا أعرف ما هي الأبواب الغاية في الغرابة التي سوف يفتحها لنا اكتشاف هذا المشهد التصوّري الشاسع، لكنني أراهن بأن الفلاسفة والفيزيائيين في مطلع القرن الثاني والعشرين سيعدّون عصرنا هو العصر الذي استبدل فيه مفهوم الكون بمفهوم الميغا كون الذي تبدو أبعاده وتناسباته ذات غرابة لا يمكن تصورها». سنحاول أن نقدم هنا بعض التصورات النظرية حول هذا التوجه العلمي الجديد، بل وأفكاراً حول الرحلة المحتملة لزيارة هذه الأكوان عبر ثقب أسود، رحلة ذات اتجاه واحد مع الأسف!

✪ باحث ومترجم ونائب رئيس الجمعية السورية الكونية.

القمر بلانك وآثار عالم آخر

هـل نحيا في كون فقاعة وسط فقاعات مـن الأكوان قـام أحدها بصـدم فقاعتنا الكونية؟

إن الخارطة التي سـوف يضعها القمر الأوروبـي بلانك في «عامنـا هذا، ٢٠١٢م» لخلفية الإشعاع الكوني، قد تكشف لنا الأثر الذي تركـه هذا الجار غـير المنتظر! فقد تأتي نتائج الإرصاد والتحليلات التي تجري خلال عام ٢٠١٢م لتفتـح لنا باباً على عالم أو كون آخر.

إن هـذه الرحلة في الزمـان وفي المكان قد تعد من رحلات الخيـال العلمي، لكنها اليوم أصبحت موضوع نظرية جادة طرحها ثلاثة علماء هم ماثيـو كليبان Matthew Kleban مـن جامعـة نيويـورك وتوماس ليفي Thomas Levi وكريس سيغردسون Kris Sigurdson مـن جامعـة كولومبيا البريطانية في كندا.

فللمرة الأولى وصف هـؤلاء العلماء ما يمكن أن يوافق أثراً لعـالم آخر على عالمنا، أو في عالمنا! ومـع وجود هذا المؤشر بحوزة العلماء فقد بات بإمكانهم رصده إذا ما كان قد انطبع يوما أو احتك بجسم كوننا!!

بـل ربما سنصـل قريباً جـداً إلى هذه اللحظـة الاستثنائية بكل معنـى الكلمة!!! فعـام ٢٠١٢م هـو الموعـد الـذي سيقدم فيـه القمـر الأوروبي بلانك (الـذي أطلق في ١٤ أيـار عـام ٢٠٠٩م) أفضـل خارطة تم إنجازهـا لاستقطـاب ولدرجـة حرارة الخلفية الإشعاعيـة للكون على كامل القبة السماوية، كما يقول كريس سغردسون Kris Sigurdson.

ويتابـع قائـلاً «سيكون ذلـك انطلاقة ممتـازة لأبحاثنا التالية حـول الموضوع». فبدراسة هذه الخارطـة يأمل الباحثون أن يكشفوا عن آثار تركها جانب من هذا الكون الغامـض علـى كوننا، وبالتـالي أن يؤكدوا حصـول سيناريو مدهش يظهـر كوننا فيه بكاملـه كفقاعـة بين عـدد لا يحصى من الفقاعات الأخرى.

ولكي نفهم هذه الرؤية الجديدة للكون، لا بـد من العـودة إلى نظريـة الأوتار التي أدت إلى فكرة الأكوان المتعددة. فقد ظهرت هذه الفيزياء الجديدة في نهاية الستينيات، وكانت تطمح للجمع بـين نظريتي النسبية والميكانيك الكمومـي، أي فيزيائي العالمين الكبير والصغير.

ولهذا فقـد عرّفت اللبنـات الأساسية للكون ليس كجسيمات نقطية بل كأوتار تهتز بطرق مختلفة. فكما أن أوتار الغيتار تصدر نوتات مختلفة فإن الأوتار الفيزيائية تصدر حسب تواتر اهتزازها كواركات وإلكترونات وفوتونات وباختصار كافة الجسيمات الأولية

في الكون. تقلب نظرية الأوتار توقعاتنا أو مفاهيمنا كافة، وتضمّن الكون عشرة أبعاد وليس أربعة كما اعتدنا منذ قرن تقريباً على النظر إليه.

غير أنّ الفيزيائيين وجدوا أنفسهم أمام طريق مسدود في الثمانينيات عندما كانوا يحلون معادلات هذه النظرية، إذ وجدوا مع تطوير هذه الحلول خمس نسخ لنظرية الأوتار وليس نظرية واحدة.

وبدا أن النظرية بدأت تخسر بعض قابليتها للنجاح. لكن على العكس من ذلك حيث يرى فيزيائيون كثيرون أن تلك السنوات لم تكن سوى بداية أو فجر نظرية الأوتار التي ستتألق أكثر فأكثر. ففي عام ١٩٩٥م برهن إدوار ويتن Edward Witten أن هذه النسخ الخمس ليست في الواقع سوى أوجه خمسة لنظرية أكثر جوهرية سماها النظرية M.

وقد يشير الحرف M حسب الكلمات اللاتينية إلى النظرية السحرية والغامضة والغائبة والأم إلخ.. لكن أحداً لم يعرف أبداً ما الذي قصده ويتن بالحرف M. وأياً كان الأمر، فقد أعادت هذه الرؤية الجديدة إطلاق اهتمام الفيزيائيين بنظرية الأوتار. هذا على الرغم من أن النظرية M أضافت بعداً جديداً للكون فصار يتكون من ١١ بعداً. وهو بعد كوني يمتد ليس داخل الكون بل خارجه!

ولكن إذا كانت النظرية M تصف فعلاً كوننا، فهذا يعني أن كوننا الصغير الذي لا يتعدى ١٣.٧ مليار سنة هو نفسه متضمن في شيء ما أكبر بكثير منه، هو ما يعرف بالميغا كون من ١١ بعداً..

وفي هذا الميغا كون، كل شيء ممكن! ويشرح ذلك ليونار سوسكيند، من جامعة ستانفورد، بقوله «الطبيعة يمكن أن تستكشف كل الإمكانيات»! ويتابع قائلاً: «هل توجد آلية طبيعية كانت قد أدت إلى نشوء البيئات الممكنة في ميغا كون كافة، وذلك بتحويل احتمالات الرياضيات إلى وقائع فيزيائية؟ هذا ما يعتقد به عدد متزايد من الفيزيائيين النظريين ومنهم أنا، وما أسميه إعمار المشهد».

لنتخيل إذاً هذا الميغا كون كمحيط واسع متحرك، تتشكل عليه جزيئات الزبد آنياً. ففي كل فقاعة من هذا الزبد تتشكل قوانين الفيزياء بشكل مختلف ويمكن للثوابت الرئيسية أن تأخذ قيماً مختلفة عن الثوابت المعروفة في كوننا، بحيث يمكن أن تؤدي في النهاية لانبثاق الحياة في كل من هذه الفقاعات الأكوان! غير أنه سيمكن أن تختلف إحدى هذه الثوابت بشكل طفيف، مثل ثابتة البنية الدقيقة للمادة، بحيث

لا تستطيع الذرات أن تتشكل. ومثل هذا الكون سيكون مكوناً من ضباب كثيف من الجسيمات الأساسية، لا غير!

وفي قلب هذا المحيط، هذا الميغا كون، يكون تشكل الزبد من الفقاعات الكونية ممكناً من خلال نوع من الفوران الكمومي! وهو فوران يمكن أن يغير بشكل مفاجئ وعنيف خصائص الفراغ. فوفق مبادئ الميكانيك الكمومي كما يقول ليونارد زوسكيند «كل ما يمكن أن يتخلخل فإنه يتخلخل. فإذا كان الفضاء قابلاً للتشوه فإنه يعاني أيضاً من فوران كمومي».

فلو توفّر لنا مجهر فائق الدقة والقدرة التكبيرية فإننا سوف نتمكن من رؤية الفضاء يتموج أو يتخلخل ويهتز ويتلألأ، مكوناً الفقاعات والعقد وأصناف وأشكال الكعكات «كافة!!

وفي بعض الأحيان يأخذ هذا الفوران فجأة منعطفاً آخر وتبدأ هذه الفقاعات بالتوسع وفق الأساس النظري الذي وضعه أندرييه ليند Andrei Lind. فتحت تأثير الحقل التدرجي، وهو الحقل الذي ترتبط كل نقطة فيه برقم، حيث يستخدم في الفيزياء مثلاً للإشارة إلى توزع الضغط الجوي أو الحرارة في منطقة معينة، وهو هنا يمكن ربطه بطاقة الفراغ الكمومية، فقد شهد كوننا هكذا منذ ولادته مرحلة تسارع خلالها توسعه بشكل أسي: وهذا ما سمي في أدبيات الفيزياء الكونية بالتضخم. وبالتالي، ثمة بالتأكيد في قلب الميغا كون فقاعات كونية أخرى تكون قد شهدت المصير نفسه من التوسع المفاجئ والتضخم، مما يخلق ما يسميه أندريه ليند بـ«رغوة من الفقاعات الكونية». وفي هذه اللحظة تحديداً يكون من الممكن أن تحدث الاصطدامات بين الأكوان!

وفي الواقع، يشرح كريس سيغردسون ذلك بقوله: «إذا تشكلت فقاعتان قريبتان جداً من بعضهما بعضاً فمن الممكن أن تصطدما عندما تبدأ كل منهما بالتضخم السريع جداً». ويؤدي تصادم الفقاعات الكونية إلى توليد نوع خاص من التخلخلات النوعية يسميها العلماء «المخر الكوني».

يشبه ذلك إلى حد ما أثر اصطدام حصاتين في بركة مما يولد موجات مميزة، وكذلك الأمر حيث يمكن رصد أثر اصطدام كونين من خلال هذا الالتقاء بين الموجات المتولدة عن اصطدامهما.

ومن هنا أهمية الخارطة التي يقوم القمر الصنعي بلانك بإعدادها حاليا (٢٠١٢م). وتشمل مهمة هذا القمر تصوير أول ضوء صدر في الكون بعد نحو ٣٨٠٠٠٠ سنة من ولادته، أو بعد ما يعرف بالانفجار الكبير. وهو تاريخ يعود بالتأكيد إلى مرحلة

لاحقة للتضخم، لكن هــذه الإنارة المفاجئة للسماء الكونية تحفظ لا شك آثار الأحداث التي حصلت قبلهــا والتي تعود إلى المراحل المبكرة لولادة الكون.

وهكذا يقوم مجموعة مــن العلماء على رأسهم ماثيــو كلبان Matthew Kleban وتوماس ليفــي Thomas Levi وكريس سغردسون بمحاولة التقاط أو اكتشاف هذه الخطوط المتموجة على سطح البركة، أو هذا الأثر المهيب الذي تركه كون آخر على خلفية كوننا البدئي!

ووفق هؤلاء العلماء يجب أن يكون شكل هــذا الأثر عبارة عن دائــرة متناظرة حيث يتوافــق مركزها مع اتجاه مركــز الفقاعة الكونيــة الأخرى. مع ذلك، يمكن أن يختلف موضــوع وهــدف الرصد بحســب معايير الرصد المختارة (مثل الحرارة والاستقطاب أو البنى الهائلة للمجرات).

فعلى خارطة الحرارة سيأخذ شكل الأثر صورة القرص الساخــن أو البارد، المتمركز باتجاه الفقاعة الكونية الأخرى.

أمَّــا على خارطــة استقطــاب الإشعاع المتحجــر أو البدئي للكون فإن هذه الطبعة أو الأثــر ستكــون بشكل بنيــة مميزة ذات ذروة مزدوجــة، أي حلقتــان متمركزتــان مــن الاستقطاب المتزايــد حيث سيكون من الصعــب تفسير ذلــك بآليــات أخرى غير حصول تصادم مع كون آخر.

أمَّــا وقــد أصبــح لدينا تصــور دقيق لطبعات الاصطدام المحتمل أو أثره الرقمي، فيبقى علينا اكتشافها. ومما لا شك فيه أنه كلمــا كان الصدم صريحاً أكثر وممتداً على مساحة أكبر، سيكون من السهل أكثر اكتشافه على الأقل ضمن مجال الاستقطاب.

وعلى العكس، إذا كانت الفقاعة المجاورة لنــا لم تصطــدم بكوننــا بل مستــه مساً أو صدمته صدماً خفيفاً، فسيكون من الصعب جداً ربما اكتشافها. أو سيكون علينا انتظار بناء تجهيزات ذات دقــة مضاعفة عشرات المرات عن التجهيزات الحالية، مثل الجهاز CMBPol، وهــو جهــاز خاص بقياس استقطاب الخلفية الإشعاعية الكونية، وهو لا يزال قيد الدراسة في أروقة الناسا.

أمَّــا إذا استطــاع الباحثون الكشف عن هــذا الأثر، فسوف نعيشــ عندها حدثاً لا يمكــن وصفه بكلمات عاديــة. ويقول ماثيو كليبان «إننا سنشهــد عندها تغيراً جوهرياً في نموذج رؤيتنــا للعالم. وسوف يبرهن ذلك علــى أن كوننا المرصود محتوى في قلب عدد لا يحصى من الفقاعــات الكونية الأخرى، مثلمــا هي مجرتنا ليست ســوى واحدة من عدد لا يحصى من المجرات الأخرى، ومثلما هــو كوكبنا ليس سوى كوكب واحد بين عدد لا يحصى مــن الكواكب الأخرى في مجرتنا نفسها».

إنَّ دواراً يصيبنا ونحن نتأمل هذا الميغا كون. ويزيد الدوار أكثر عندما نتأمل ونواجه نتائج هذا الحدث البدئي! ويشرح كريس سغردسون قائلاً: «إذا كان كون آخر قد صدم كوننا قبل مرحلة التضخم، فمن المرجح أن يكون قد تشكل عندها «جدار فاصل» بين الكونين».

ولا شك أنه ستكون لهذا الجدار خصائص أساسية، خاصة ما يتعلق بالتوتر العالي جداً لسطحه، إضافة إلى أن سرعة انتقاله ستكون عالية جداً وقريبة جداً من سرعة الضوء. ووفقاً لدفقة البداية فإنه سوف يتحرك إمَّا باتجاه الداخل أو باتجاه خارج فقاعتنا الكونية.

في الحالة الأولى، من الممكن أن يكون هذا الجدار في هذه اللحظة بالذات في طريقه باتجاهنا بسرعة الضوء ماحياً كل شيء على طريقه! والنتيجة، فإنَّ نهاية الأرض والمجرات وكل ما يشكل كوننا من الممكن أن يحدث خلال ثواني معدودة دون أن نستطيع اكتشاف أي إشارة على تقدم هذا الجدار!

لكن هذا السيناريو قليل الاحتمال كما يقول كريس سغردسون. أمَّا إذا كان الجدار يبتعد باتجاه خارج الكون فإن الاصطدام لن يترك وراءه سوى ذلك الأثر الفخم من الدوائر في الماء، ذلك المخر الكوني ذي الأشكال المميزة الذي سيسمح لنا أن نثبت بلا ريب حالة فقاعتنا الكونية بين فقاعات كونية أخرى.

هناك باب آخر لا يقل غرابة يمكن أن ينفتح أمامنا مع أرصاد التابع بلانك، إذا ما تمَّ التأكد من وجود الأبعاد الستة الأخرى التي تتنبأ بها نظرية الأوتار إضافة إلى الأبعاد الأربعة المعروفة (الثلاثة المكانية والزمن). فأين اختفت هذه الأبعاد وهل يمكن العثور عليها؟

هناك طريقان يحاول العلماء البحث فيهما. فهم يأملون من جهة الحصول على معلومات ثمينة من الخارطة المأمولة من التابع بلانك حيث يمكن أن يكتشفوا فيها آثار هذه الأبعاد المختفية والتي التفت على نفسها مجهرياً في قلب الإشعاع المتحجر للانفجار الكبير.

والتحدي في هذا الاكتشاف كبير جداً لأنَّ العلماء يأملون الكشف عن حجم لا يتجاوز جزءاً من مليار من مليار جزء من النواة الذرية! ومن جهة أخرى، فإنّ تجارب مسرع الهادرونات LHC الذي بدأ العمل به في عام ٢٠٠٨م على الحدود الفرنسية السويسرية يمكن أن يسمح أيضاً بالكشف عن جسيمات فائقة التناظر، وهي جسيمات تمَّ التنبؤ بها في عدة نظريات توحد قوانين الفيزياء. فلو تمَّ التأكد من الكشف عن مثل هذه المؤشرات فهذا يعني حصول نظرية

الأوتار أخيراً على قاعدة صلبة تجريبية، لأنها حتى الآن ليست نظرية قائمة إلا إذا ثبت وجود أبعاد إضافية.

بانتظار ذلك، يظل المبدأ الإنساني قائماً في قلب الفلسفة الكونية! طالما أن ذلك يمكن أن يسهم في تفسير لماذا يتشكل كوننا وفق هذا التحديد الدقيق والخاص، ووفق ثابتة كونية تقر بها النماذج الكونية النسبوية. مما يعني في النهاية سلسلة من «الأسباب» التي أدت إلى ولادة كوكب على مسافة معينة من الشمس وتوافق مجموعة من الصدف أدت إلى ولادة الإنسان الذي يطرح اليوم هذا السؤال حول أصل الكون!

لكن هذا المبدأ الإنساني سرعان ما يصاب بضربة قاسمة إذا اكتشفنا أن هذا الكون «الكامل» ليس سوى واحد من بين مليارات الأكوان الأخرى التي تصفها نظرية الأوتار. وعندها ربما يكون علينا التفكير بعبارات «مشاهد الإمكانات».

ويشير زوسكيند إلى ذلك في قوله: «يستقر كوننا في هذه المشاهد في قعر واد حيث تجتمع الصدف السعيدة كافة». فبالنسبة لنظرية الأوتار ثمة كون في الواقع ينشر بشكل أوسع أفقنا. فللمرور من المرحلة ذات الطاقة العالية، ذات التسعة أبعاد مكانية، إلى المرحلة ذات الطاقة المنخفضة ذات الأبعاد الثلاثة، هناك عدد كبير من الإمكانيات، حيث تعطي نتيجتها نموذجاً لفيزياء الجسيمات الدقيقة يشبه الواقع إلى حد ما. ويبدو أن عدد هذه الإمكانيات فائق الكبر، ويقدر بنحو ١٠٠٠٥٠.

إنها عبارة عن حلول مختلفة للنظرية نفسها، ولكن من وجهة نظر العلماء فهذه الحلول تمثل ١٠٠٠٥٠ نماذج لفيزياء الجسيمات مختلفاً. أي بعبارة أخرى هذا العدد الهائل من الأكوان الغريبة الممكنة. إنها أشبه بعدد هائل من الوديان الملتفة في كل اتجاه في قلب ميغا كون لا يمكن تصور اتساعه هو نفسه في حالة توسع لا ينتهي. فمع كل واد من هذه الوديان يتوافق ترتيب خاص للتحديدات الفيزيائية، تُترجم بعدد مماثل من الجسيمات المختلفة وبالتالي بحلول كونية، إنما التي تظل مخفية عن بعضها بعضاً.

وتوافق هذه الوديان المعنية في الواقع القيم الدنيا التي تأخذها مختلف العوامل الفيزيائية للجسيمات (الحقول التدرجية في نظرية الأوتار) عندما تنخفض درجة حرارة الكون. يمكن للمنظومة عندها أن تتطور نحو هذا الشكل أو ذاك من هذه الحدود الدنيا. ويشبه ذلك نوعاً من انتقال المرحلة.

وفي إطار الكونيات فإنه من الممكن جداً أن يتم الانتقال باتجاه حالات دنيا مختلفة في

نقاط من الفضاء ليست على اتصال سببي فيما بينها. فيكون لدينا عندها عدة مناطق تكون الفيزياء فيها مختلفة. وبالتالي يكون لكل من هذه الوديان طبولوجيتها الخاصة! وفي أحد هذه المرات سيكون المشهد في حالة توسع متسارع مما يؤدي إلى التماس مع كون آخر.

النهر الأسود

يقول جو بولشنسكي Joe Polchinski وهو باحث في معهد كافلي في جامعة كاليفورنيا: «نحن نعرف اليوم أن الكون أكبر بكثير مما كان عليه في الماضي وأنه على الأرجح أوسع بكثير مما يمكننا أن نرى منه!» ويضيف: «لقد أخفى عنّا التوسع الكوني الأجزاء من جارنا الكون القريب القريبة جداً من كوننا والمختلفة عن كوننا.

والحال أن هذه الأكوان الأخرى تنبثق هي أيضاً من معادلات بسيطة ومعروفة بالنسبة لنا. لهذا أعتقد أن هذه العوالم الأخرى يمكن أن تكون واقعية تماماً». فهل نحصل يوماً على برهان أكيد على وجودها؟ وما هي هذه القوة التي تجذب بالسرعة نفسها الغازات والغبار والنجوم في منطقة تقع إلى وراء الأفق الكوني؟ بل إن السؤال الفعلي كما يقول أحد العلماء هو ما الذي يجري فعلاً في قلب الكون؟ وهل لكون آخر قريب تأثير لقواه علينا كقوة الجذب مثلاً؟

لقد استحق هذا السؤال الطرح بعد أن اكتشف في عام ٢٠٠٨م ما سمي في حينه النهر الأسود الغريب الذي يخلخل المجرى الهادئ لحشودنا المجرية. إن هذا النهر الأسود Dark Flow عبارة عن تيار غامض يجر معه آلاف المجرات نحو منطقة تقع إلى ما وراء الكون المنظور!! هذا، كما لو كان يوجد بعيداً جداً جبل كوني يجذب بقواه الثقالية هذه المجرات نحوه!!!

بدأت قصة هذا الاكتشاف عام ٢٠٠٠م عندما بدأ كل من الفيزيائيين الفلكيين ألكسندر كاشلنسكي (مركز غودار في الناسا) وفرناندو أتريو. برنديلا Fernando Atrio-Barandela (من جامعة سالامانك في إسبانيا) بعمل يتطلب صبراً ودقة غير عاديتين، ألا وهو قياس سرعة آلاف الحشود المجرية، هذه التجمعات الشاسعة التي تضم عدة آلاف من المجرات. وتكمن الطريقة التي اتبعاها في تسجيل الأثر الدقيق للتشوه. المسمى أثر سنيائيف زلدوفيتش Sunyaev-Zeldovich. الذي تتعرض له الفوتونات الآتية من الخلفية الكونية عندما تجتاز الغازات التي تملأ الحشد المجري. فهذا الغاز المنتشر ما بين المجرات يصدر أشعة سينية. وعندما تجتازه الفوتونات القادمة من الإشعاع البدئي (المتحجر كما يسمى)

فإنها تسجل بطريقة ما سرعة واتجاه حركة الحشد المجري.

يشرح ألكسندر كشلينسكي ذلك بقوله: «من الصعب القيام بهذه القياسات، لأنَّ سطوع أثر سنيائيف- زلدوفيتش ضعيف جداً بالنسبة لكل حشد مجري منفصل عن الحشود الأخرى.

لكن الخدعة تكمن في إمكانية إجراء القياس لمجموعة من هذه الآثار معاً، وذلك باستخدام فهرس الحشود المجرية التي تغطي السماء كاملة، والذي تمَّ ربطه بخرائط الخلفية الإشعاعية الكونية». وهكذا قام العالمان، بمساعدة من هرالد إبلينغ Harald Ebeling الخبير في كشف الحشود المجرية بالأشعة السينية من جامعة هاواي، بجمع العناصر التي تشكل فهرساً واسعاً طبقوا عليه منهجهم في الرصد.

كانت حركة هذه الحشود المجرية متوقعة مسبقاً بشكل كامل، لأنَّ حركتها تعود كما هو معروف إلى ديناميكية التوسع الكوني. لكن النتائج جاءت معاكسة تماماً لما كان متوقعاً!

ويقول كشلينسكي: «كانت النتائج غير متوقعة على الإطلاق. فقد أشارت (...) أن العينة من الحشود المجرية كانت تنتقل بكاملها بسرعة متجانسة عموماً وفي الاتجاه نفسه!.. فعلى بعد نحو ٢،٥ مليار سنة ضوئية عن الأرض كانت الحشود المجرية ترتحل بسرعة تتراوح بين ٦٠٠ و١٠٠٠ كلم/ثا نحو ميناء مجهول».

ومثل هذه الحركة بمثل هذا الاتساع وعلى هذا المستوى الكوني لا يمكن أن تنشأ من خلال توزع المادة المرئية في الكون. وفي الواقع فإن الحشود المجرية تتحرك هنا كما لو أن تياراً غريباً كان يجرها أو يحركها إلى ما وراء الأفق الكوني، هذا الأفق الذي لا نستطيع رؤية شيء إلى ما وراءه. وبما أن سرعة المادة منتهية، فإذا كان ثمة جسم ما يضيء إلى ما وراء هذا الأفق فإن فوتوناته لن تستطيع الوصول إلينا. بالتالي سيظل هذا الجسم غير مرئي بالنسبة لنا.

هل سنعرف يوماً ما هو سبب هذا التحول الكبير في حركة هذه الحشود المجرية؟

يرى الباحثون إن مصدر هذا النهر الأسود العجيب هو ربما شبح يسكن في جوار عالمنا منذ اللحظات الأولى من عمر الكون.

وكما يشير كشلينسكي: «نعتقد أن أصل النهر الأسود موجود في البنية الأولية للحمة الزمكان، والتي تعود إلى ما قبل بداية التضخم الكوني الكبير. لقد دفع هذا التوسع الفائق السرعة للكون بنىً ضخمة الكتلة إلى ما وراء الأفق الكوني الحالي الواقع على بعد نحو ٤٥ مليار سنة ضوئية. أي الحدود

الكونيـة بالنسبة لهذا الكون الموازي المتسلل إلى عالمنا»!!

هل كوننا وليد كون آخر؟

يقودنـا الحديـث عن نهـر الأسود إلى مسألة الثقوب السوداء، التي سبق وطرحت فكـرة أنّهـا تقودنا إلى عـوالم أخرى، حيث تولد بعض هذه العوالم في قلب هذه الثقوب! إنّها أكوان عجيبة حقاً، حيث نبدأ رحلة بلا عودة في الزمكان.

فبالنسبة لجميع الذين يحلمون بالسفر يوماً لاستكشاف عـوالم محتملة يتم الكشف عنهـا، كانـت النظرية النسبيـة العامة قد وجدت عبر معادلاتها وسيلة للنقل والسفر! إنّهـا مـا بـات يعـرف في أدبيـات العلم بـ«المـمـرات الدودية»، وهي عبارة عن ثقوب سوداء تتحـول إلى ثقوب بيضـاء (وتسمى أيضاً الينابيع البيضـاء) في مواضع أخرى من كوننا أو في كون آخر!

إنَّ الثقـوب السوداء هي هـذه المناطق مـن الفضاء -هي عموما بقايا نجوم ميتة- تنهار علـى نفسها بشـكل لانهائي. وتكون قدرتهـا الجاذبية هائلة لدرجـة أنّها تأسر كل ما يمر في طريقها، بما في ذلك الضوء. ولكن من الجهة الأخرى يمكن لهذه الثقوب أن تنعكـس، وأن تعيد نظريـاً إطلاق هذه المـادة والضوء كنبع يصدر عنه إشعاع المادة والطاقة! الأمر الذي يعطي الأمر للمغامرين في المستقبـل بإمكانية سلـوك هذا الطريق نحو عوالم أخرى، حيث سيخرجون من هذه الأنفاق الدودية على شكل جسيمات أولية!

هـذا إذا لم يصادف هـؤلاء في طريقهم داخـل الثقب الأسود كونـا آخر! وهذه هي الفرضيـة الأساسية التـي صاغها نيقوديم بوبلافسكـي Nikodem Poplawski وهو فيزيائي من جامعة إنديانا في الولايات المتحدة.

يقـول: «ترتكـز الفكرة علـى ضبط أو موافقة للنسبية العامة لأينشتين التي عدلت وفـق ما بات يعرف منـذ نحو خمسين سنة بنظرية النسبية لأينشتين- كارتان- سياما- كيبـل (Einstein-Cartan-Sciama-Kibble). فهـذه النظريـة توسـع بشكل طبيعـي النظريـة النسبيـة العامـة لتأخذ بعـين الاعتبار العزم الـزاوي (أو ما يعرف بالسبـين، اللف الذاتي) للجسيمات الأولية، التي تؤدي بالزمكان لإظهار خاصية تسمى «الفتل». ففـي درجات كثافـة عالية جدّاً، أعلى بكثير مـن كثافة المـادة النووية، فإنَّ انفتال الزمكان يظهر عندها مثل قوة تقاوم أو تعارض الجاذبية.

فعندمـا تنضغط المـادة في قلب الثقب الأسـود إلى الحـد الأقصـى، تتغلـب قوة الانفتـال وتوقف صيرورة الانهيار. بل وأكثر مـن ذلك، تعود المادة فتندفـع وتبدأ توسعاً

سريعاً بعد تدخل قوى جاذبة هائلة جدّاً مما يؤدي لإنتاج جسيمات جديدة.

إنَّ هــذا الارتــداد الكبــير (مقارنــة بالانفجار الكبــير) يمكن أن يكون هو تماماً مــا حصل قبيــل ولادة كونـنــا. ويفسر ذلك وفــق هذا المنظور لمــاذا تبــين أرصادنا أن كوننا مسطــح، ومتجانس ومتناظر من دون الحاجة إلى العودة إلى التضخم الكوني كما يقول بوبلافسكي.

مــا هو أكــثر إدهاشاً أنَّ هــذه النظرية تؤدي إلى ولادة كون جديد في كل ثقب أسود. ويصبح هذا الأخير بالتــالي ثقباً دودياً بين الكون الأم والكون الابن. هذا يعني أن كوننا يمكــن أن يكون وليداً من ثقب أسود موجود (أي الثقب الأسود) في كون آخر.

مع ذلك، يشير بوبلافسكي إلى أنَّ مرور المادة عــبر أفق الثقب الأســود لا يمكن أن يكــون إلا في اتجاه واحد، ما يــزود الكون الجديد بلاتناظر زمني. وهذا يعني أنَّ سهم الزمــن في الكون الوليد نشأ أو جرى توارثه من الكون الأم.

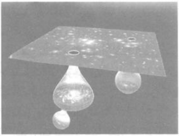
تبقى المشكلة طبعــاً أنَّ هذا الكون الأم لا يعــرف أننا موجودون، طالمــا أنَّنا نشكل في النهايــة مجرد فرع مــن انفتال الزمكان المنفصل والملتف على نفسه.

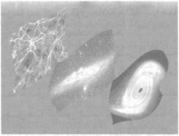
لكن ربما يكــون هذا الكون قد ترك لنا مع ذلك «هدايا» منذ الولادة. فإذا كنا نحيا في قلب ثقــب أسود في حالة دوران- معظم النجــوم في الواقع في حالــة دوران- يكون كوننا بالتالي قد ورث اتجاها مفضلاً. فهل لهــذا السبــب، أي لأنَّها تتبــع هذا الاتجاه المفضل يكون لغالبية المجرات اتجاه الدوران نفسه؟ ربما.

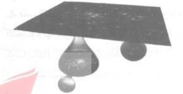
أمَّا بالنسبة للنهــر الكبير من المجرات، النهر الأسود كما سمي، فإنه يمكن أن يخرق تفاعــل كوننا مع نوع من الكــون التوءم، أي كــون آخر داخل ثقب أسود آخر هو في طور التداخل مع ثقبنا الأسود المضيف!.

المراجع

- Premiers échos des mondes cachés / Sylvie ROUAT in Sciences et Avenir, N°778 (Décembre 2011).
- Actualités in Sciences et Avenir, N°766 (Décembre 2010).
- Dossier: Testez votre science in Sciences et Avenir, N°774 (Août 2011).
- Thomas Lepeltier, Univers parallèles, Seuil, Paris, 2010.
- Leonard Susskind, Le Paysage cosmique, Robert Laffont, Paris, 2007.









كيف نصنع المستقبل

د. ناصر محي الدين ملوحي ٭

عند تأمل الواقع البشري، نجد الإنسان يشكل أحياناً عنصراً فاعلاً حيّاً في التاريخ، ويسيطر على الأحداث ويصنعها، ويمتد حضوره في البلدان، ولكن قد نجده أيضاً ساكناً خاملاً تسيطر عليه الأحداث، وينكمش حضوره في مجتمعه، فالملاحظة التاريخية العملية تؤكد بأن الإنسان يمثل معادلتين:

- معادلة طبيعية بيولوجية تمثل جوهره كإنسان خلقه الله تعالى في أحسن تقويم، وميزه على العالمين بالتكريم، وأفضل الأمور توزعاً بين الناس وبالتساوي هو العقل، وإن اختلاف الآراء لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر، وإنّما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا في طرق مختلفة، ولا ينظر كلٌّ منّا في الشيء نفسه الذي ينظر إليه الآخر، فلا يكفي أن يكون للمرء عقل، بل المهم حسن استخدامه.

- معادلة صنعية اجتماعية تمثل الإنسان ككائن اجتماعي، تختلف من مجتمع إلى آخر، وفي مجتمع واحد تختلف من عصر إلى آخر حسب الاختلاف في درجة التنمية.

والمعادلة الاجتماعية تحدد فعالية الإنسان، فهو لا يتغير في جميع أطوار التاريخ ومراحل المجتمع، ولكن تتغير فعاليته ونشاطه، ومن هنا نلج إلى أمر هام وهو التحكم في صنع المستقبل، عندما نصنع الإنسان المتحضر الفعال، الذي يملك المنهج العقلاني النقدي على مستوى التفكير والتخطيط والبحث والتنفيذ والاجتهاد، إضافة إلى امتلاكه المنهج العلمي الواقعي

٭ طبيب وباحث سوري.

على مستوى الإنتاج والبناء والنشاط والتجديد في كل مرافق الحياة، ويتمتع بشخصية واثقة وعزيمة قوية تستسهل وتعالج التحديات أثناء تقدمه.

ولكن كيف نبني ونصوغ هذا الإنسان المتحضر؟

إنَّ الإنسان المتخلف اجتماعياً، وليد بنية اجتماعية متخلفة، فنمط التخلف السائد في المجتمع العربي المعاصر ليس نمطاً متأصلاً، وإنَّما هو صدأ متراكم نتيجة ظروف تاريخية ونفسية واجتماعية، ومتى انحسرت هذه الظروف السيئة سيزول حتماً نمط التخلف، فقوة التربية والتثقيف والتعليم والتصنيع قادرة على تحطيم نمط التخلف وتشكيل المجتمع من جديد، ولكن مناهج التعليم مستوردة من الغرب فإنَّها عاجزة عن النهوض بالمجتمع لأنَّها تكرس التخلف وتجعله تابعاً للغرب، وهذا يحتم إنشاء مناهج وبرامج تربوية وتعليمية حديثة تنبع من صميم ثقافتنا وهويتنا وتراثنا وأهدافنا.

والآن من أين نبدأ في تربية وتعليم الإنسان؟

– بدء المشروع الحضاري هو الإنسان كصانع للتاريخ ومحرك وقائع الحاضر لابتكار المستقبل، وهذا جوهر الحضارة، فيجب أن نضع المشكلات في مكانها الصحيح، (ومن هنا يجب أن نضع المشكلات في إطار اجتماعي، فقلنا هي الجهل، أو في إطار اقتصادي فقلنا هي الاستعمار، فإننا في هذا كله إنَّما نبحث نتائج لأسباب سابقة، أصولها في أنفسنا).(1)

وهناك سبيلان لصياغة الإنسان الفعال الجديد في مجتمعنا:

أ- أسلوب البناء والتربية والتعليم في المدرسة الرحمية (تعليم وتربية الأجنة) والمدرسة والعائلة والمجتمع (تعليم وتربية الأطفال).

ب- أسلوب تغيير ما بالأنفس للكبار.

– أما أسلوب البناء فيبدأ من مرحلة الجنين لأنه من المعروف طبياً وعلمياً أن جنين الإنسان هو جنين البناء والنمو وفقاً لبرنامجه الوراثي المنظم لتطوره البيولوجي لمختلف الأجهزة العضوية، وكذلك وفقاً لبرنامجه الحضاري في بيئته الخارجية بما يحويه من منظومة ثقافية وشبكة علاقات اجتماعية وعوامل نفسية وعائلية..

وهذه المرحلة تبدأ بالشهر السابع من الحمل، فيعتبر الجنين تلميذاً داخلياً فعالاً في المدرسة الرحمية، علينا أن نحترمه ونعلمه ونثقفه، فيجب فتح روضات لتعليم الأجنة، ونشرها في المدن والقرى وتأهيل الكادر الفني والتعليمي، حيث يجتمع الأطباء وخبراء التربية والنفس والدين لوضع البرامج التربوية التعليمية لتثقيف الأجنة

كبرنامج لتعليم القرآن الكريم واللغة العربية والموسيقى ومبادئ الرياضيات الأولية.

وذلك بالاستفادة من الوسائل التعليمية العديدة، وتقنيات الحاسوب والنظم المعلوماتية، ويستمر البناء الحضاري للإنسان في مرحلة الوليد بالمحيط الاجتماعي الأسروي، ثم في مرحلة الطفل عن طريق الأسرة وروضات الأطفال والمدارس.

- بينما أسلوب تغيير ما بالنفوس، يقرر أن أي واقع بشري هو نتيجة طبيعية للأفكار التي يحملها الناس في مجتمع ما، وأن تغيير رصيد ما بالنفوس من أفكار ومفاهيم سوف يغير الواقع الاجتماعي، وهذا القانون الاجتماعي موضح في الآية:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأنفال، ٥٣.

وله ثلاث نتائج مترابطة:

أ- إعلاء كرامة وحرية الإنسان، لأن مفاتيح التغيير الاجتماعي بيده، فيكفي أن يغير ما بالنفوس نحو الأفضل حتى يتغير واقعه وسلوكه نحو الأحسن والأجود.

ب- أهمية النقد الذاتي، فأعظم فضيلة يتدرب عليها الإنسان هي ألا يلوم أحداً، بل يلوم نفسه عند مواجهة أي خطأ، لأنَّ أسرار التغيير تحت يديه، وأن الظلم الذي يقع على الإنسان هو من صنع يده، فيجب ألا يلعن الظروف بل يفهم قوانين حدوث تلك الظروف تمهيداً للسيطرة عليها.

حـ- أهمية كشف القوانين الاجتماعية والطبيعية والكونية لتسخيرها لمصلحة الإنسان، وهي متاحة لجميع البشر، فالذي يعمل ويزكي نفسه ينجح، والذي يكسل ويعجز يفشل، وإن كان التخلف الحضاري في البلاد عائداً إلى الإنسان نفسه، فإنَّ العلوم الإنسانية من آداب وعلوم اجتماعية ونفسية وسلوكية ودينية، هي التي تمد الشخصية بعوامل التكوين والبناء من أجل تغيير الإنسان ودفعه للعطاء في سبيل التحرر والتقدم وصنع المستقبل، فلابد من التركيز على هذه العلوم وتحديثها وتأصيلها تماماً كالعلوم الفيزيائية والكيميائية والطبيعية.

ويجب أن تُحدّث التربية وأنظمة التعليم من خلال قيم وأفكار ومبادئ الثقافة العربية، فتبدأ عملية البناء انطلاقاً من الإنسان الذي سيتم تغييره لبناء علاقات إيجابية بين الإنسان ومحيطه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، ليسمو كل فرد ويعمل ضمن الجماعة، مما يؤدي إلى تحرر المجتمع وتقدمه وإنتاج الحضارة.

فالشرط الأوّل العام لتحقيق المشروع الثقافي، هو تطبيق منهج تربوي أخلاقي يعمل على توجيه صنع العلاقات الاجتماعية على مستوى عالم الأشخاص، فالأخلاق هي

العمود الفقري لأية خطة تربوية يراد لها النجاح المستمر، وهذا منطق إسلامي أصيل حيث يصف الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم،٤. لأنَّ الأخلاق تُكوِّن الأساس في الشخصية والأسوة الحسنة للأجيال على مرّ التاريخ، كبناء المنهج التربوي النقدي والعقلاني في فهم الواقع وإعداد الأجيال والالتزام بقيم حضارية نابعة من واقع العالم العربي. وكل عمل مدروس مخطط بشكل موضوعي يكون مصيره النجاح، وكذلك المنهج التربوي، وبالتالي إن (مهمة تربيتنا الشعبية والمدرسية، تتمثل في تبصيرها لنا بأن ليس هناك شيء سهل، ولا شيء مستحيل، وإنما لكل مشكلة واقعية حلها، الذي تنحصر القضية في تطبيقه بالجهد الذي يستلزمه، لقد آن الأوان لكي نتحرر من جميع حروب العطالة التي توقف الجهد، ومن سائر أغدار العطالة التي تبرر كسلنا).(٢)

فالفكر يؤثر في السلوك، فغيّر أفكارك تغير حياتك ومجتمعك وتصنع مستقبلك، ومن أهم آليات هذا التغيير نستعرض العلاقة العضوية والوظيفية بين الملفات الذهنية الفكرية والأحاسيس والسلوكيات عند الإنسان، فالأحاسيس هي وقود الإنسان، وهي رد الفعل الطبيعي لما يحدث داخلنا من أفكار وملفات ذهنية، نتيجة مؤثرات خارجية أو داخلية، ومن نعم الله سبحانه وتعالى علينا أن جعلنا نعرف معنى كل إحساس مهما كان، سواء أكان إحساساً إيجابياً كالحب والحنان والسعادة والهدوء والراحة والاسترخاء، أو إحساساً سلبياً كالغضب والغيرة والكره والحقد، وأعطانا الله سبحانه وتعالى القدرة على التحكم في أفكارنا، وقال في كتابه العزيز:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد،١١.

وكلما درسنا العلوم الحديثة نجد قوة هذا المعنى لأن التغيير فعلاً إنَّما يكون من الداخل، من الأفكار والملفات والصورة الذاتية والتقدير الذاتي، من القيم والاعتقادات الراسخة المخزونة في العقل الباطن، كل ذلك داخلي وكذلك الأحاسيس والشعور والجذور كل ذلك سببه (الأفكار). لذلك إذا أردت فعلاً أن تغير حياتك للأفضل، وعندك الرغبة في هذا التغيير، وقررت أن تبدأ فابدأ من اليوم، ولاحظ أفكارك وتحكم فيها، وسترى بنفسك الفرق الكبير والتغيير الإيجابي الذي سوف يحدث في حياتك.



الفكر يؤثر في السلوك، فغيّر أفكارك إيجابياً تغير حياتك وشخصيتك نحو الأفضل

حتى الآن تكلمنا عن قوة الفكرة، وكيف أنّها تؤثر على الذهــن، وتجعلك تركز على الشيء الذي تفكر فيه، وهذا التركيز يسبب لك الأحاسيس، والأحاسيس ستأخذك إلى السلوك، وهنا تظهر على وجهك التعبيرات، ويبدأ جسمــك في التحرك، ليدعم كلامك، وكل ذلــك سببه الأساسي هو الفكر، وهناك حكمة صينية تقول: «لو فعلت الشيء نفسه ستحصل على النتيجة نفسها»..

فالفعل يسبب رد فعــل من نفس نوعه، وبعضهم يسمي ذلك بقانون السببية، فالبذور التــي تزرعهــا تعطيك محصــولاً من النوع نفسه فلو زرعت بذور التفاح ستحصل على تفاح، ولو زرعت بذور العنب ستحصل على عنب، وهكذا مع الأفكار لو زرعت في ذهنك بــذور التفكير السلبي فسيكــون محصولك ونتائجــك سلبية، ولو زرعت في ذهنك بذور الحب والتسامح والفعالية والنشاط والإنتاج فسيكون محصولك إيجابياً ومردودك كبيراً كماً ونوعاً.

فأي فكرة تضعها في ذهنك ستتحول إلى التركيز ثم الأحاسيس ثم السلوك ثم النتائج من النوع نفسه، وسوف تستمر في الحصول على النتائــج نفسها، ولن يحدث التغيير إلا إذا قررت قراراً قاطعاً، بتغيير الجذور التي بدأتهــا وهي الأفكار، كما قــال الفيلسوف بلاتو: «غير أفكارك تغير حياتك».(٣)

ومــن ناحيــة أخــرى نجــد أن الأفكار الإيجابيـــة تساعد على بناء الثقة في النفس مما يؤدي إلى الفعل الإيجابي الذي يساعد الشخــص على التقدم تحت أي ظرف مهما كان صعباً، وكان محمـــد علي كلاي الملاكم الشهير يقول ويكرر لنفسه دائماً «أنا ملاكم رائع، مهما كانــت الظروف أنا ملاكم رائع، أنــا أفضل ملاكم في العــالم»، وعندما سئل في مقابلة تليفزيونية لماذا يقول هذا الكلام ويكرره؟ أجاب: «لأن ذلك يعطيني الثقة في نفسي، ويقوي عزيمتي، ويجعل تركيزي على الفوز حتى ولــو كانت هناك خسارة سأتعلم منها وأتدرب بطريقة أفضل حتى أفوز».

ثم قال: «الأفكار خطيرة جداً وقد تكون هي السبــب في الخســارة أو الكسب لأنها جذور الثقة بالنفس».

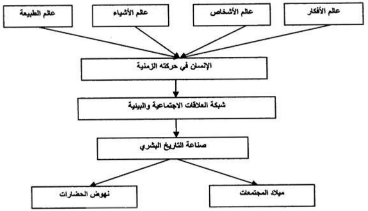
والشيء نفسه تكرر مع مايكل جونسون الأمريكي لاعب السلة الشهير عندما كان في حفل تكريم له قال: «من أهم أسباب نجاحي هو المهارات الذهنية، فأنا أضع الأفكار الإيجابية في ذهني وأربطها بأحاسيسي، وأتخيل نفسي وأنا متمكن وواثق من نفسي تحت أي ظرف من الظروف التي قد تقابلني، وبذلك فأنا أساعد ذهني كي يساعدني في تحقيق أهدافي».(٤)

كيف نصنع المستقبل؟

يصنع الإنسان الجديد مستقبله عن طريق بناء شبكة العلاقات الاجتماعية بشكل إيجابي وفعال، وحضوره ثقافياً بشكل شاقولي عبر الزمن على مستوى التراث والأصالة والهوية وأحداث التاريخ، وافقي على مستوى الجغرافيا السياسية الأرضية والكونية والحداثة والتطوير والتنمية المستدامة المستقلة العامة.

- فأمّا بناء الشبكة الاجتماعية، فهي العمل التاريخي الأوّل الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده ونهوضه، ويقول المفكر مالك ابن نبي في كتابه ميلاد مجتمع (إن صناعة التاريخ تتم تبعاً لتأثير عوالم اجتماعية ثلاثة: تأثير عالم الأشخاص، تأثير عالم الأفكار، وتأثير عالم الأشياء، لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقاً لنماذج أيديولوجية من عالم الأفكار، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء، من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص، إنَّ عمل المجتمع ليس مجرد اتفاق عفوي بين الأشخاص والأفكار والأشياء، بل هو تركيب هذه العوالم الاجتماعية الثلاثة، بحيث يحقق ناتج هذا التركيب في اتجاهه وفي مداه، تغيير وجوه الحياة، أو بمعنى أصح تطور هذا المجتمع).(٥)

ونحن نضيف عالماً رابعاً، هو عالم الطاقة والطبيعة والكون إلى تلك العوالم الثلاثة في إنشاء المجتمع البشري، فالإنسان يتحرك على صفحة الزمن من خلال البيئة أولاً، وما تحويه من حياة وماء وهواء وجماد ومناخ وإشعاع كوني ومجالات مغناطيسية وظواهر طبيعية أخرى، وثانياً من خلال حركة الكوكب الأرضي حول نفسه وحول الشمس في المجموعة الشمسية، وكذلك دوران المجموعة الشمسية حول مركز مجرة درب التبانة، وما يترتب عن هذه الحركة وذلك الدوران من ظواهر كونية تؤثر على الكرة الأرضية بعضها معلوم ومعظمها مجهول حتى الآن.(٦)



آلية صنع المستقبل عبر التحكم بالعوامل الأربعة المكونة لشبكة العلاقات الاجتماعية والبينية لبدء نهوض الحضارات

- وأمّا الحضور الثقافي، فله نوعان:

أ- شاقولي زمني:

إنَّ الذين يصنعون التاريخ يتسلحون بخبرات السابقين وتجاربهم في معارك المستقبل، إنَّهم يضيفون أعمار الذين سبقوهم إلى أعمارهم، فتزداد الإمكانات التي يواجهون بها المستقبل، فالتاريخ بهذا المعنى علم من علوم المستقبل وليس مجرد قصص للاستمتاع، والبعض يظن بأنَّ الدراسات المستقبلية تهتم بالواقع وإمكانياته المادية وما تملك الأمة من طاقات علمية كافية لبناء الإطار النظري والعملي لتلك الدراسات، ويجهلون بأن لتراث هذه الأمة علاقة عضوية بأية دراسات مستقبلية تخطط لمستقبلها المنشود.

فالتراث العربي الإسلامي مازال مستمراً في الحاضر وكما أسلفنا بأنَّ التاريخ علم مستقبلي بما يفيد من العبرة وبما يسلح الحاضرين بأسلحة الخبرات السابقة، فإنَّه يشكل الروح التي تسري في عقل الأمة ووجدانها لارتباطه بالعقيدة الروحية التي توجه الأمة وتحفظها وتفجر فيها الطاقات المعينة على مواجهة التحديات، وتراث الأمة العربية الإسلامية قد صاغ عقلها وعاطفتها وحسها ومزاجها، وأصبح معلماً بارزاً من معالم واقع هذه الأمة، بحيث لم يعد ممكناً دراسة هذا الواقع وبحثه مستقبلاً من دون هذا التراث، وهذا يؤكد فكرة التجديد

التأصيلي في الحضور الثقافي الزمني، حيث يحدث التطور والتغيير باستمرار.

وهذا التطور هو واحد من سنن الله تعالى في الكون، تلك التي تعلمناها ونتعلمها من التراث، ولهذه الدنيا المتطورة كذلك، ومن ثم تطبيقاتها المتطورة آنفاً، لكن هذا التطور لا يقتلع كل شيء في حياة الأمة ومكوناتها من الجذور، فالخلق الجديد هو جديد وحامل للأصالة التي تضمن له الاستمرارية والتواصل والتميز والنمط الخاص، فمع التطور والتجديد هناك التواصل لتأصيل الموروث النافع، وهنا مكان التراث من المستقبل ودور هذا التراث في صياغة المستقبل المأمول.

وأخيراً إنَّ التخطيط للمستقبل جزء من عملية صنع المستقبل، الذي هو للمجموعات المتحدة وليس للشعوب المجزأة، كما أن التخطيط لثقافة المستقبل، وفي الوطن العربي بالذات لا معنى له ولاشيء يضمن له النجاح إذا لم يكن جزءاً من التخطيط للثقافة العربية ككل، ثقافة الماضي والحاضر والمستقبل، تخطيطاً يعتمد النظرة العلمية النقدية، ويستهدف إعادة ترتيب العلاقات داخل ثقافة الماضي والحاضر، وفي الوقت نفسه يعمل على بناء علاقات متينة بين خصوصيتنا الثقافية وعمومية عطاءات العلم والتقانة.

إنَّ وقتنا الزاحف صوب التاريخ يجب أن لا يضيع هباء، كما يهرب الماء من الساقية، والتربية هي الوسيلة الضرورية التي تعلم الشعب العربي الإسلامي تماماً قيمة هذا الوقت.

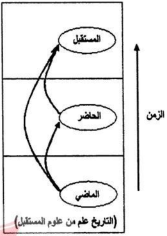
إن من الصعب أن يسمع شعب ثرثار الصوت الصامت لخطا الوقت الهارب! ولكل علم مرحلة تجريبية تتصف بالمحاولة والاحتمال والتكرار، وهما يسبقان الفكرة الواضحة التي يستخلصها العقل في المرحلة التالية، ولكي نعلّم العربي والمسلم علم الزمن، يجب أن نعلم كل طفل وامرأة ورجل تخصيص نصف ساعة يومياً لأداء واجب معين، فإذا خصص كل فرد هذا الجزء من يومه في تنفيذ مهمة منتظمة وفعالة فسوف يكون لديه في نهاية العام حصيلة هائلة من ساعات العمل لمصلحة الحياة العربية الإسلامية في جميع أشكالها العقلية والخلقية والتقنية والاقتصادية والمنزلية.

وسيثبت هذا عملياً فكرة أهمية الزمن في العقل العربي الإسلامي، وبالتالي في سلوك الأفراد ضمن أسلوب الحياة في المجتمع، فإذا استغل الوقت فلم يضع سدىً ولم يمر كسولاً في حقولنا ومصانعنا، فترتفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي. وهذه هي الحضارة.(٧)

ما يتخطى الحضور إلى مناطق أوسع عالمياً وكونيـاً. وإنَّ الإنسان العربي المسلم مطلوب منـه الشهـادة على العالم كلـه، فالله تعالى يقول في كتابه:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة،١٤٣.

فالواقـع أن الشاهـد في أساسـه هـو الحاضـر في عالم الآخريـن، فهو مجبر على الحياة بشكل وثيـق وإيجابي بأكبر عدد من الأفـراد في المجتمعـات البشريـة، ودراسة مشاكلهم بمجرد الحضور الإيجابي الفعال فإنه يؤثر على الأشياء وعلى أعمال الآخرين، إضافـة إلى تبليـغ رسالـة المسلـم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورفع الظلم عن البشر وتقديم العون لكل محتاج على مستوى العالم، (فعندما يكون الشاهد حاضراً، يمكن لحضوره فحسب أن يغير من سير الأحداث، وأن يجنب الوقـوع في المحظور، وعلى هذا فـإنَّ رسالة المسلم في عالم الآخرين لا تتمثل في ملاحظـة الوقائع ولكن في تبديل مجرى الأحداث بردها إلى اتجاه الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً..).(٨)



صنع المستقبل بالحضور الثقافي الشاقولي الزمني بين الماضي والحاضر والمستقبل

ب- أفقي جغرافي:

يتكـون المستقبـل أفقياً علـى مستوى الجغرافيـا السياسيـة والكونية بـدءاً من التطور النفسي والاجتماعي والثقافي، الذي يبدأ في الثلث الأخير من الحمل في المدرسة الرحميـة، ثـم يستمـر في مرحلـة الأسرة فالروضة فالمدرسة فالمجتمع فالوطن العربي فالعالم الأفريقي الآسيوي، ثم الكرة الأرضية قاطبة فالمجموعة الشمسية، وأخيراً الدائرة الكونية، وبقدر ما ينمو عـالم الأفكار بقدر



صنع المستقبل بالحضور الأفقي على مستوى الجغرافية الاجتماعية والسياسية والأرضية والكونية.

الهوامش

١- تأملات، مالك بن نبي، ط٣، دار الفكر، دمشق، د.ت، ص١٢٤.

٢- مالك بن نبي، مفكراً إصلاحياً، د.أسعد السحمراني، دار النفائس، ط١، د.ت، بيروت، ص٢٢٦- ٢٢٩ .

٣- قوة التفكير وتأثيره على أحاسيسك وسلوكك ونتائجك وواقع حياتك، وكيف تحول التفكير السلبي إلى إيجابي وتحقق أهدافك، د.إبراهيم الفقي، دمشق- سورية، دار التوفيق، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، الفكر يؤثر على الأحاسيس، ص٣٢-٣٣- ٣٩.

٤- قوة التفكير، د.إبراهيم الفقي، م.س، الفكر وتأثيره على الثقة في النفس، ص٤٧-٤٨. (بتصرف).

٥- ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط٢، ١٩٧٤م، دار الإنشاء، لبنان، التاريخ والعلاقات الاجتماعية، ص٢٣- ٢٤ .

٦- النظرية الحلزونية الكونية التوحيدية (رؤية جديدة لواقع ومستقبل العلوم)، د.ناصر ملوحي، دار الغسق للنشر، سلمية- سورية، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

٧- شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط١، د.ت، ص١٤٠- ١:١.

٨- فكرة كومنولث إسلامي، مشكلات الحضارة، مالك بن نبي، مكتبة عمار، القاهرة، ط٢، د.ت، ص١٠٧ .

أسئلة حول الرأسمالية(١)

سيلفان ألمان(٢)

ترجمة: د. ماري شهرستان ✿

ما هي الرأسمالية؟ هل هي متناغمة مع ضرورة ومقتضيات العدالة الاجتماعية؟ هل نحن ذاهبون باتجاه رأسمالية عالمية؟ هذه بعض من أسئلة تبلورت من خلالها الجدالات التي دارت حول الرأسمالية خلال القرنين الماضيين. الأجوبة التي تلقتها هذه الأسئلة كانت متناقضة لكنها في الوقت نفسه قد تطورت عبر الزمن.

- ما هي الرأسمالية؟

لا يزال مفهوم الرأسمالية إلى يومنا هذا موضوع جدل ومصدراً لكثير من سوء الفهم والخلاف. يصطدم تحديده بأربعة صعوبات:

الرأسمالية هي مفهوم وعقيدة. فمن جهة هي مفهوم يفيد في وصف طرق الإنتاج. ومن جهة أخرى، هي عقيدة بمستوى الاشتراكية نفسها نظراً لتركيب الكلمة المتشابه: رأسمالية - اشتراكية وحيث كانتا تاريخياً متعارضتين. بهذا المعنى يمكن استخدامها كـ «تعبير صراعي» وفق رأي فرانسوا بيرّو François Perroux.

واقع معقد. بالنسبة إلى بعضهم الرأسمالية هي في الأساس ظاهرة اقتصادية ويمكن تحليلها بشكل مستقل عن الحقل الاجتماعي، كما يفكر على سبيل المثال ف.بيرّو.(٣)

بهذا الشكل قد تعرَّف الرأسمالية بشكل مناقض للاشتراكية التي تتميز بأولوية السياسة على الاقتصاد.

أمَّا بالنسبة إلى باحثين آخرين،

✿ باحثة ومترجمة سورية.

الرأسمالية هي أبعد من أن تنحصر في الاقتصاد فقط، لدرجة يذهب بها جوزف شومبيتر Joseph Schumpeter باقتراحه إلى دراستها وكأنها حضارة.

برأي فيرنان بروديل Fernand Braudel، الرأسمالية لا تغطي فقط كل الاقتصاد بل تشكل «الطابق الأعلى» فوق الحضارة المادية واقتصاد السوق. وهناك آخرون ينكرون وجود رأسمالية كواقع اجتماعي موجود بنفسه ويتمتع بنوع من الاستقلالية وبمقدرة على التقرير الذاتي، خاضع لقوانين وتطورية خاصة به.[4]

حال في تغير مستمر

هناك مصدر آخر للصعوبات ناجم عن التغيرات المستمرة التي تلم بالرأسمالية. وكما يشرح ذلك الاختصاصي بالاقتصاد ميشيل بو Michel Beaud، «الرأسمالية هي أبعد من أن تكون واقعاً مجمداً أو إطاراً صلباً، أو مجموعة علاقات ثابتة، بل هي ديناميكية، وذاتية - التحوّل في عملها من دون توقف».[5] وكان ماركس أو شومبيتر هما أول من أشار إلى تلك الخاصية. ومن هنا يصعب تعريف الرأسمالية وتحديدها بسمات نهائية، كما سقطت النعوت التي ألصقت بها (بائع، صناعي، ما بعد صناعي..)

هناك كميات كبيرة من الوقائع. في النهاية، تغطي الرأسمالية وقائع متنوعة: تراكم رأس المال والملكية الخاصة، والتنظيم بوساطة السوق، والعلاقات التجارية، والرواتب.. لا يتفق جميع المفكرين حول أهمية كل من هذه الخصائص، حتى لو أنَّ فكرة التطور التدريجي للتراكم غير المحدود موجودة في غالبية التعاريف.

- هل الرأسمالية والعدالة الاجتماعية قابلتان للتوفيق فيما بينهما؟

لقد قابلت هذه المسألة وما تزال تقابل وتقارن بين ثلاثة أنماط من الفكر، يميل النمط الأوّل إلى اعتبار أنَّ الرأسمالية في جوهرها مصدر لعدم المساواة ولذلك ينبغي تجاوزها والانتقال إلى الاشتراكية الثورية، والنمط الآخر من الفكر هو على العكس من الأوّل إذ يعتقد أنَّ الرأسمالية تتيح الفرص لأكبر عدد ممكن من الناس عن طريق الليبيرالية؛ أمَّا النمط الثالث والأخير فبالنسبة إليه يمكن للرأسمالية أن تُنظَّم وتؤطر: مثل الفكر الاشتراكي - الديمقراطي الذي ظهر بين الحربين، والليبيرالية الاجتماعية. ومنذ القرن التاسع عشر، اعتبر الإصلاحيون الليبيراليون أمثال ج.س.ميل J.S. Mill أنه من الممكن إصلاح تجاوزات الرأسمالية.

في الواقع، وفي الوقت نفسه الذي حصل فيه تطور الرأسمالية، تمَّ تدريجياً تثبيت

تشريع اجتماعي انطلاقاً من القرن التاسع عشر. ومنذ عام ١٨٧٠م، خلال العصر البيسماركي، تبنت ألمانيا أولى القوانين الاجتماعية. تلتها فرنسا في تبني قوانين تحدّ من مدة عمل الأطفال والنساء ثم العمّال.

وانطلاقاً من فترة ما بعد الحرب، حصل تنظيم الدولة- العناية في الولايات المتحدة (عبر العقد الجديد New Deal)، وفي إنكلترا (تقرير بيفريدج Beveridge) ثم في البلدان الغربية، استجابة لضرورة التوفيق بين ديناميكية الرأسمالية والعدالة الاجتماعية. ترافقت سنوات النمو ما بعد الحرب بتقدم معمم على مستوى الحياة.

الجدالات حول أزمة الدولة - العناية التي ظهرت مع الصدمات النفطية ومع إعادة طرح مسألة السياسات الكينسية(٦) keynesiennes في السنين بين ١٩٧٠ - ١٩٨٠م، دفعت ببعض المؤلفين للتفكير بأنَّ الدولة - العناية لم تكن سوى معترضة في تاريخ الرأسمالية الطويل. وهم يشرحون السياق الحالي وكأنه إعادة طرح التحول الكبير الذي وصفه كارل بولاني Karl Polanyi. بتعبير آخر، في إطار العولمة، قد تجد الرأسمالية طبيعتها الحقيقية، التي هي اقتصادية بشكل أساسي ومنفصلة عن الشأن الاجتماعي.(٧)

غير أن في سياق سنة ١٩٩٠م التي تميزت بتبني سياسة التقشف والحد من النفقات العامة في البلدان الغربية، حاول بعض المؤلفين إعادة طرح الجدال بتعابير جديدة. وكان ذلك حال جائزة نوبل في الاقتصاد لـ «آمارتيا سين Amartya Sen» التي فكرت في إمكانية التوافق بين إنقاص النفقات وبين العدالة الاجتماعية.

وفي منظور مدرسة التنظيم، يشير آخرون إلى ضرورة تصوّر مواثيق اجتماعية جديدة. من بينهم ميشيل آغليتا Michel Aglietta فهو لا يستثني إمكانية ربط هذه المواثيق بـ مساهمة العمّال في الأرباح.

ويعتبر آخرون أنَّ الدول واقتصادياتها القومية لم تعد الإطارات الملائمة للتفكير بالعلاقة بين الرأسمالية والعدالة الاجتماعية، وأنَّ الإعدادات والوسائل ينبغي من الآن فصاعداً أن يتم تصورها وتخطيطها على مستوى عالمي أبعد من القومي. في هذا المجال نذكر: الاتفاقات ضد إغراق الأسواق بالبضائع أو فرض ضريبة على هجرة الأموال (ضريبة توبان Tobin الشهيرة التي تخيلها وهو الحائز على جائزة نوبل، وأوصت بها جمعية آتاك Attac).

- هل الرأسمالية أخلاقية؟

إذا كان الجواب على هذا السؤال يستند إلى مشاهدات موضوعية مثل (شدة الفروقات الطبقية وعدم المساواة، واستغلال الأطفال..)، فهو يرتبط أيضاً بالمفترضات الثقافية والدينية.

في البلاد التي تسود فيها الكاثوليكية، تنبع الريبة تجاه الرأسمالية من فكرة الإدانة القديمة: وهي الفائدة الفاحشة والاغتناء، والموجودة سابقاً عند أرسطو أو في العهد القديم.

بالنسبة إلى جونوفيف إيفن- غرانبولان Geneviève Even-Granboulan الفيلسوفة والاختصاصية بعلم الأخلاق المالي،[٨] وقد ألفت حديثاً كتاباً حول هذا الموضوع: «لقد كانت الكاثوليكية معادية للرأسمالية لمدة طويلة، وعلى الرغم من بعض التخفيف من هذه الإدانة، لم يتم رفع التحفظ بالكامل». نجد ذلك على الأخص عند إدانة الممارسات في المضاربات المالية.

الشروحات نفسها ذكرت فيما يخص البلدان ذات الأغلبية المسلمة التي لا تزال ممارسة الربا مدانة فيها.[٩]

منذ بزوغ «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» لماكس فيبر Max Weber، أصبحت البلدان البروتستانتية أكثر استعداداً وتقبلاً للرأسمالية. لا يعتبر فيها تراكم الأموال كفاية بحد ذاتها بل هو وسيلة لعيش جيد. بهذا المعنى أصبحت الرأسمالية نظاماً لكل العصور.

لكن ما يصحّ بالنسبة إلى رأسمالية البدايات هل يصح بالنسبة إلى الرأسمالية المعاصرة؟ العديد من المؤلفين يشكّون في ذلك معتبرين أنَّ «القيم التي يتحدث عنها فيبير قد زالت منذ مدة طويلة باجتياح الفكر الاقتصادي لموطن خيالنا».[١٠]

بينما بالنسبة إلى ج. إيفن - غرانبولان G. Even-Granboulan: «يتم غالباً الطعن بالرأسمالية بسبب لاأخلاقيتها: لكن في الواقع، هذه اللاأخلاقية تخص أشكالاً ناقصة في الرأسمالية والتي لم تصل إلى مرحلة النضج بعد. قد نجد وجوب طرح أمثلة معاصرة للنمو الفوضوي للرأسمالية المافيوية. إنَّ حمى التملك من دون كابح أخلاقي قد وجدت على مرّ العصور ولا علاقة لها بالرأسمالية وأخلاقياتها الأساسية. ونجد الفكر الرأسمالي مضطراً للنضال ضد هذه الممارسات التي تشكل هذا الكم الكبير من الانحرافات المؤسفة والمدانة».

بالنسبة إلى بعضهم الآخر، ليست الرأسمالية سوى تطور تدريجي لتراكم مالي مجرد من غاية سوى هذا التراكم. ففي مثل هذه الحالة هي ليست جيدة ولا سيئة، هي

فاقدة الحسّ الخلقي. المسألة إذاً هي في معرفة كيف نعطيها معنى واتجاهاً.

شهدت الأعوام الأخيرة محاولات إصلاح أخلاقي عبر سن قوانين للعمل (علم الواجبات الأدبية) في قطاعات النشاط المهني. وتتجسد واقعياً بتوقيع مواثيق في الواجبات الأدبية déontologie ضمن مؤسسات العمل. وقد أعلن بعضها عن رفضها المتاجرة بمنتجات محسوبة على أنها غير أخلاقية، والانتقال من البلدان التي تستغل الأطفال والنساء إلخ. والجدير بالذكر أنه انتشر حديثاً فكرة «الأرصدة الأخلاقية» المعدة في الأصل لإدارة أموال المتحدات الدينية ثم انتشرت عند العامة، وظيفتها انتقاء الأعمال وفق معايير أخلاقية. وقد بدا مردود هذه الأرصدة مرتفعاً بمقدار نسبة الأرصدة الكلاسيكية. ويرى اختصاصيّو المال في ذلك مجالاً ينبغي عدم إغفاله لتحسين أخلاق الرأسمالية المعاصرة.[11]

- هل نحن ذاهبون باتجاه رأسمالية عالمية؟

فإذا كان المفكرون جميعهم متفقين حول فكرة الانتشار الحتمي للرأسمالية غير أنهم جميعاً لا يستنتجون من ذلك فرض رأسمالية عالمية واحدة.

وجهة نظر ناقدة.

كان سابقاً رأي الماركسيين اللينينيين أنَّ الرأسمالية معدة للانتشار لامحال عن طريق اللعبة الإمبريالية وعلى مستوى كل الكرة الأرضية.

ومنذ ذلك الحين، كثرت وشاعت الجدالات التي طرأت بين أعوام ٨٠-٩٠ حول العولمة عامة وحول العولمة المالية، وحول ازدهار التجارة العالمية، وظهور بلدان صناعية جديدة، إلخ، فكرة بزوغ «رأسمالية عالمية».

ومنذ عام ١٩٧٠م، وفي كتاب «الرأسمالية العالمية»[12] يوصي شارل- آلبير ميشاله Charles-Albert Michalet بأن يجري تبديل أنموذج الاقتصاد العالمي بالاقتصاد الدولي. ويبرز دور الشركات متعددة الجنسيات وازدهارها منذ عام ١٩٥٠م. يتحدث الآن كاييه Alain Caillé عن رأسمالية عملاقة mégacapitalisme، مقاومة تماماً تجاه الهجمات التي تحصل على أساس قومي فقط.[13] ويرجع بعضهم الآخر أمثال سيرج لاتوش Serge Latouche فكرة حصول «سوق على مستوى الكرة الأرضية» تخضع لسلطة «آلية عملاقة mégamachine» مرتبطة ببنية تقنية (أخطار السوق العالمية، صحافة العلوم السياسية، ١٩٩٨م).

المقاربات المقارنة.

في الأعوام بين ١٩٨٠م و١٩٩٠م، بينت العديد من الدراسات المقارنة أنَّ المجتمعات الرأسمالية الأكثر تقدماً مستمرة في إظهار تباينات هامة وملحوظة. فعدا الكتاب الشهير لـ «ميشيل آلبير Michel Albert» هناك أعمال التيارات التنظيمية أو المؤيدة للمؤسسات. فهي تركز على ثقل المؤسسات والمسارات القومية أو على ظواهر التهجين (الخلط).

تم اعتبار التقارب على أنه قليل الاحتمال، لأنَّ كل نظام إنتاجي يتجدد بشكل مستمر بتبني تحديثات تأتيه من الخارج في السياق الاقتصادي لكن أيضاً الاجتماعي والثقافي للبلد.

في كتاب «الرأسماليات في أوروبة» (لاديكوفيرت La Découverte، ١٩٩٦)، يكتب كولان كروغ Colin Crough وفولفغانغ ستريك Wolfang Streeck: «بعكس الفكرة السائدة، التقنيات والأسواق ليست العوامل الوحيدة المقرِّرة للحياة الاجتماعية في النظام الرأسمالي، حيث تمتلك المجتمعات مخططات متنوعة لتحديد أسلوب إدارة رأسمالياتها الخاصة، وبالتالي، تحديد المجتمعات التي تريد تطويرها».

في بعض الحالات، قد تمت هذه الخيارات منذ زمن بعيد وهي اليوم متجذرة عميقاً في «ثقافة» قائمة، قد غابت عن اللاعبين المعاصرين، لفترة قصيرة على أقل تقدير. هذه النظرية قابلة للجدل والنقاش خصوصاً في الولايات المتحدة.

ففي كتاب «الاقتصاد المعولم» (دونو Dunod، ١٩٩٣) المخصص لـ«رأسمالية القرن الواحد والعشرين»، يعتبر روبير رايش Robert Reich سكرتير الدولة السابق لشؤون العمل، أنَّ امتداد المجال التجاري على مستوى الكوكب يعيد طرح مسألة المفهوم الاقتصادي القومي حيث تصبح الخصوصيات القومية للرأسمالية أموراً أكل الدهر عليها وشرب.

أمَّا ميشيل آلبير Michel Albert من جهته فقد اقترح حديثاً فكرة تلاقٍ بين الرأسمالية الأنغلو- ساكسونية ورأسمالية نهر الراين (من أجل رفض أشد لفكرة تفضيل الأول على الثاني).[١٤] ومن جهتهما يعترف ستريك وكروغ في كتابهما بإعادة طرح مسألة الخصوصيات القومية في ظل تأثير العولمة المالية: «لن يقع التنوع المستقبلي للرأسمالية أبداً بشكل رئيسي ضمن تضارب بين البلدان، إلا إذا قامت سلطة قادرة على الحكم على المستوى القومي، وهذا مايبدو غير محتمل على الإطلاق». فبرأيهما، سوف تتمركز الخصوصيات في هذا السياق، على صعيد الصفقات أو المناطق.

الاقتصاد السياسي الدولي.

من وجهة نظر اختصاصيي الاقتصاد السياسي الدولي، ليس هناك من شك أبداً بأنّ الفروقات القومية مدعوة إلى التلاشي وحتى إلى الزوال. بالنسبة إليهم، إن تطوّر المال الدولي والمركز المهيمن للولايات المتحدة أمران يؤديان إلى تغيير التوزيع. وتشير الأمريكية سوزان سترانج Suzan Strange إلى الصعوبات المتزايدة التي تعاني منها الدول في إدارة اقتصادها بشكل مستقل، وثقل القوانين الدولية وإلغاء تأميم الشركات، والاندماجات - والاستملاكات.. كما أنها تؤكد على تأثيرات الوضع المهيمن للولايات المتحدة وخصوصاً في الموضوع القانوني (نظم التلوث الناجم عن السيارات، قوانين المحاسبة..) في هذا التطوّر التدريجي للمجانسة. وتشرح قائلة: «بما أن المجتمع قد أصبح متعدد القوميات بسلوكه، أو على الأقل بمظهره، لا يمكن للرأسماليات إلا أن تتلاقى أكثر من أن تختلف وتتباعد».[١٥]

- هل الرأسمالية أزلية؟

النظرية الماركسية.

بالنسبة إلى ماركس، لا يوجد أدنى شك بأنّ الرأسمالية سوف تزول. والأسباب التي يطرحها بالإمكان البحث عنها في التناقضات الموجودة ضمن الرأسمالية: إنّ نمط الإنتاج الرأسمالي يولد ديناميكية تنتج تأثيرات مناقضة لمبادئه (التنافس الحر والملكية الخاصة). التنافس يدفع إلى التحديث، الذي يتطلب بدوره تكاليف متزايدة تشجع على التركيز والحصر وعلى تبديل اليد العاملة بالآلات. ينتج عن ذلك انخفاض في نسبة الربح واحتدام في الصراع الطبقي.

من هذا المنظور، ينبغي أن يسبق زوال الرأسمالية أزمات تشتد تأزماً وخطورة. غير أنّ ماركس والماركسيين لا يستبعدون إمكانية التصدي الآني لانخفاض نسبة الربح بفضل عوامل خارجية مثل (الاكتشافات العلمية، وتنظيم العمل..). وهذا ما جعل النقاد والمعلّقين يقولون إنّ النظرية متعذر تزويرها (بالإمكان على الدوام التذرع بعامل خارجي) وبالتالي لا تمتلك صفة علمية.

العديد من الكتّاب الماركسيين دعموا فكرة نهاية قريبة للرأسمالية حتى يومنا هذا، مثل إيمانويل فالرستاين Immanuel Wallerstein المؤرخ والاختصاصي في علم الاجتماع.[١٦] فكرة نهاية الرأسمالية حاضرة أيضاً عند مفكرين غير ماركسيين.

أطروحة شومبيتر Schumpeter.

وقد تمّ شرحها موسعاً في فصل من كتاب: «رأسمالية، اشتراكية، وديمقراطية» (١٩٤٢م)، بعنوان «هل يمكن للرأسمالية أن تصمد»؟ فقد كتب شومبيتر فيها مايلي: «الإنجازات التي تمّ تحقيقها، والإنجازات

القابلة للتحقيق بوساطة النظام الرأسمالي تسمح باستبعاد فرضية تفكك هذا النظام تحت وطأة فشله الاقتصادي، لكن نجاح الرأسمالية بحد ذاته يؤدي إلى تآكل المؤسسات الاجتماعية التي تحميها ويخلق بشكل لا مفر منه ظروفاً تجعل من الاستحالة بمكان أن تصمد الرأسمالية وتستمر، كما يُظهِر بوضوح تام أنَّ الاشتراكية هي وريثتها المنتظرة».

فهو ولو التقى باستنتاجه مع الماركسيين، لكن شروحاته تختلف. فبالنسبة إليه، إنَّ سبب التحطم الذاتي للرأسمالية ليس اقتصادياً بل اجتماعياً: فهو يعود إلى زوال الطبقات الاجتماعية المفيدة لها (المقاولين) إضافة إلى ضعف القيم البورجوازية والعائلية.

أطروحة المجتمع مابعد الرأسمالي

التحولات المتعلقة بنمو القطاع الثالث،[17] وبالتقنيات الجديدة، والجدالات الدائرة حول تراجع وأفول الدول- الأمم أوحت بالثقة ببزوغ مجتمع ما بعد الصناعي، غير المادي، أو معلوماتي.

ما استنتجه بعض المؤلفين في نهاية الرأسمالية.

إنه حال الشيخ الروحي الشهير بيتر دروكر Peter Drucker. في كتاب له صدر عام ١٩٩٣م (مجتمع ما بعد الرأسمالية، هاربر بزنس Post-Capitalist Society، Harper Business)، يعلن فيه عن بزوغ مجتمع ما بعد الرأسمالية المبني على المعرفة، وذلك مع ثورة الإدارة. «يعلم الجميع الآن أنَّ المجتمع القادم سيصبح أي شيء عدا الماركسية.

لكن الكثيرين منا يعلمون أيضاً أو على الأقل يتوقعون بحدسهم أن ما سوف تصبح عليه الدول المتطورة سوف لن يتحدث أحد فيه عن شيء اسمه رأسمالية. لكن من المؤكد عملياً أنَّ السوق سيبقى كأداة للاندماج الاقتصادي. إنما في البلدان المتطورة، قد دخل المجتمع في عصر ما بعد الرأسمالية منذ زمن طويل».

أطروحة التجدد

على العكس من المفكرين السابقين، هناك مفكرون آخرون يعتبرون أننا نشهد بزوغ رأسمالية جديدة. لقد كتب الاختصاصي في علم الاقتصاد ميشيل بو Michel Beaud في النسخة الأخيرة من كتابه «تاريخ الرأسمالية» (بوان سوي Point Seuil، ١٩٩٩): «نحن نعتقد أنَّ الرأسمالية هي أكثر قوة وأكثر حيوية من أي وقت مضى؛ ما بدأ هو عصر جديد للرأسمالية، يتميز بتحرك متصاعد للعلوم التقنية وبشركات التجدد، وبوساطة خلق منتجات جديدة وآليات جديدة والكفاح

المستمر في التنافس، لإعادة خلق أوضاع فيها امتيازات واستئثارات (احتكارية)».

«عندها، وبعد انتقال الصناعة إلى القطاع الثالث، الظاهرة السياسية الجارية هي الحركة المزدوجة للتراجع النسبي للرأسمالية الصناعية (..) لمصلحة رأسمالية ما بعد الصناعية (..)». أما من منظور تنظيمي يحلل ميشيل آغلييتا Michel Aglietta أيضاً الوضع الحالي وكأنه انتقال من رأسمالية أجنبية إلى رأسمالية ذات أنموذج موروث، مبنية على مساهمة العمّال في الأرباح وعلى النقابات الحرفية، وأرصدة المعاشات..

إذن، كان لابدّ للرأسمالية من أن تموت، وذلك لتعود وتولد من جديد من رمادها بأشكال جديدة.

الفكر الرأسمالي.

يبقى لنا أن نعرف لماذا استمرت الرأسمالية ولماذا ستشهد ازدهاراً جميلاً. من أجل شرح هذه الاستمرارية قدّم الاختصاصيان في علم الاجتماع، لوك بولتانكي Luc Boltanki وإيف شيابلو Eve Chiappelo نظريات غريبة. إذا صمدت الرأسمالية والواضح أنها ستصمد بفضل قدرتها على تلافي الانتقادات التي توجه لها وعلى استيعابها، سواء أصدرت عن حركات اجتماعية أم عن أوساط فكرية وفنية. «عندما تستطيع الرأسمالية الانتشار من دون أية معارضة وتحطّم الأساس الاجتماعي الذي ازدهرت فيه، تتعرض لأخطار يخفف من وطأتها مقدرتها على فهم الانتقاد الذي يشكل من دون أدنى شك العامل الرئيسي لمتانتها المعروفة منذ القرن التاسع عشر». ويبين الكتاب كيف أنّ الخطاب الإداري في أعوام ٨٠- ٩٠ قد دمج تطلعات عام ٦٠ (إعلاء المسؤولية، الاستقلالية، التحرك..).

- هل هناك بدائل لاقتصاد السوق؟

إنّ انهيار الاتحاد السوفييتي في سني ٨٠ -٩٠، والعولمة، ومعارضة تدخل الدولة، إلخ.. هي وقائع أثبتت فكرة انتصار اقتصاد السوق. أعلن الأميركي فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama انتصار الديمقراطية الليبرالية واقتصاد السوق وذلك في مقال شهير له حول «نهاية التاريخ» نشره عام ١٩٨٩م. سواء أكانت هذه الفكرة صحيحة أم خاطئة، لكنها لم تمنع نمو وانتشار تيارات من التعليقات والملاحظات الهادفة إلى تجاوز الخيار الكلاسيكي بين الترابط العفوي بوساطة السوق والترابط بوساطة الدولة.

«المسلك الثالث».

حتى يومنا هذا، هناك تعارض في الجدالات حول السياسات الاقتصادية

بين فريقين: فمن جهة نجد الليبيراليين والليبيراليين المتطرفين دعاة عدم التزام الدولة بهذه السياسات، والمؤمنين بخصخصة الأعمال بأنواعها وصولاً إلى الخدمات العامة، ومن جهة أخرى نجد الاجتماعيين- الديمقراطيين دعاة تدخل الدولة في السياسة الاقتصادية. أمَّا المسلك الثالث فيهدف إلى إقامة توافق بين فعّالية السوق والعدالة الاجتماعية، وهي فكرة أُدخلت إلى الولايات المتحدة منذ الثمانينات من القرن الماضي بوساطة «الديمقراطيين الجدد»، ثم إلى أوروبة بوساطة أنطوني جيدنز Anthony Giddens.

الاقتصاد التضامني (المتكافل).

منذ أعوام ٧٠- ٨٠، أخذ بعض اختصاصيي علم الاجتماع وعلم الاقتصاد بالترويج لفكرة الاقتصاد التضامني أي وضع الاقتصاد بخدمة الرابط الاجتماعي، على قاعدة التطوع والتبرع والتكافل. يجري تعيين حقيقي ملموس لمجموع الشركات والجمعيات التي تساعد في إعادة توظيف العاطلين عن العمل، أو تشجع المبادلات غير التجارية، والخدمات القريبة.. صحيح أنّ هذا النوع من الاقتصاد هو من ضمن الاقتصاد الاجتماعي، لكنه يتجاوزه جاهداً لإيجاد حلول للمجتمعات المهددة بالبطالة العامة وبانهيار الرابط الاجتماعي. أما بالنسبة إلى اختصاصي علم الاجتماع جان- لوي لافيل Jean-Louis Laville وهو من الباحثين الرئيسيين لهذا الأنموذج من الاقتصاد، فهو يجد أنه يسد ما ينقص عن تدخل الدولة وفي الوقت نفسه يساعد على تجنب المنطق التجاري لحل مسألة البطالة العامة. فهذا الاقتصاد لا يبحث إذاً عن أن يكون بديلاً عن الدولة ولا ليحل مكان السوق بل ليحقق معهما تهجيناً منسجماً انطلاقاً من ديناميكيات المشروع. وبذلك يهدف أيضاً إلى تجاوز فكرة الاقتصاد المنفصل عن الشأن الاجتماعي والسياسي. لقد تمّ تكريسه حديثاً في فرنسا بإنشاء سكرتارية دولة لشؤون الاقتصاد التضامني (تحت وصاية وزارة العمل).

اقتصاد من دون مال.

يتابع بعض الأنتروبولوجيين والباحثين في الاقتصاد الاجتماعي تحليلاً ناقداً للاقتصاد التجاري وللعقيدة النفعية المتعارضة مع منطق هبة ضد هبة في التبادل التجاري.[١٨] وفي اتجاه مشابه، هناك تيارات أخرى تناضل من أجل إيجاد أشكال جديدة للمبادلات غير التجارية التي قد توجد مع الأشكال الكلاسيكية للتبادل التجاري. يساهم في هذا الاتجاه المبادرات التي تعمل لتنشيط أنظمة التبادل المحلي.

الهوامش

١- أسئلة حول الرأسماليةLe capitalisme en questions، مقالة نشرت في مجلة العلوم الإنسانية في العدد الاستثنائي رقم ٢٩ شهر حزيران ٢٠٠٠م عنوان العدد: الوجه الجديدة للرأسمالية.
Les nouveaux visages du capitalisme Hors-série N° 29 - Juin 2000.

٢- سيلفان ألمانSylvain Allemand، باحث وصحفي فرنسي في مجلة العلوم الإنسانية، وأستاذ كرسي في تعليم التاريخ، ومجاز من معهد العلوم السياسية في باريس.

٣- ف. بيرّو، الرأسمالية، ١٩٤٨م، بوف، كوسيج
F. Perroux (Le Capitalisme, 1948, Puf, Quesais-je

٤- فرانسوا فوركه، «هل الرأسمالية موجودة؟» مجلة موس رقم٩، الفصل الأول ١٩٩٧م
François Fourquet, « Le capitalismeexiste-t-il », Revue du Mauss, n° 9, 1er semestre 1997.

٥- م. بو، «الرأسمالية، منطق اجتماعي وديناميكيات تحولية»، في برنار شافانس وآل.، رأسمالية واشتراكية في المستقبل، لاديكوفيرت ١٩٩٩م
M. Beaud, « Capitalisme, logiquessociales et dynamiquestransformatrices», in Bernard Chavance et al., Capitalismeet Socialisme en perspective, La Découverte, 1999.

٦- المتعلقة بمذهب كينس الاقتصادي القائل بالتدخل الرسمي في سبيل إنماء الإنتاج والوظيفة.

٧- جاك أدّا، عولمة الاقتصاد، لاديكوفيرت، روبير جزء١، ١٩٩٦م
Jacques Adda, La Mondialisation de l'économie, La Découverte, «Repères», tome I, 1996.

٨- إيفن- غرانبولان، أخلاق واقتصاد، لارماتان
Even-Granboulan, Ethique et Economie, L'Harmattan, 1998

٩- كزافييه كوبله، دانييل هوشين، أديان ونمو، اقتصاد
Xavier Couplet, Daniel Heuchenne, Religions et Développement, Economica, 1998.

١٠- جوزف هادجيان، «واقع الحال المتناقض للتحوّل الكبير»، الحداثة لكارل بولاني
Joseph Hadjian, » L'actualitéparadoxale de la Grande Transformation « in Jean-Michel Servet et alii (dir.), La Modernité de Karl Polanyi, L'Harmattan, 1998.

١١- أندري أورليان، سلطة المال، أوديل جاكوب
André Orléan، Le Pouvoir de la finance، Odile Jacob، ١٩٩٩.

١٢- الرأسمالية العالمية، (بوف، ١٩٧٦م، إعادة طبع بوف، كادريج، ١٩٩٨م)
(Puf Le Capitalismemondial، ١٩٧٦، Quadrige Puf، réed، ١٩٩٨)، شارل آلبير ميشاله Charles-Albert Michalet.

١٣- كيف يمكن أن نكون ضد الرأسمالية؟ مجلة موس رقم ٩، الفصل الأول ١٩٩٧م

Comment peut-on êtreanticapitaliste ?, Revue du Mauss, n° 9, 1er semestre, 1997.

١٤- مجلة سوسييتال، كانون الأول العدد رقم٢٧

.٢٧ °n ،١٩٩٩ .Sociétal، déc

١٥- س.سترانج، «مستقبل الرأسمالية العالمية. هل يمكن للتنوع أن يستمر أبدياً بلا نهاية؟»

S. Strange, « L'avenir du capitalismemondial. La diversitépeut-elleexisterindéfiniment ?

« in C. Croughet W. Streeck, op. cit.

١٦- انظر المقابلة الواردة في مجلة العلوم الإنسانية في العدد ٧١ لشهر نيسان ١٩٩٧م.

١٧- الفئة السكانية التي تعمل في التجارة والخدمات والتأمينات، إلخ.

١٨- مجلة موس التي يديرها آلان كاييه

la Revue du Maussanimée par Alain Caillé

الكلمة تُطْرِقُ خَجَلاً!

✪
سليمان العيسى

في افتتاح إحدى الندوات

أعترفُ..
أنَّ الكلمةَ تُطرقُ خجلاً
حينَ أهُمُّ أن أتكلّم،
وجُثَثُ شُهدائنا
تملأُ شوارعَ أرضنا المحتلّة.

ماذا يمكنُ أن يقولَ شاعر
لآخرِ طفلٍ فلسطيني
يتلقّى من الوحش الصهيوني
رصاصةً في رأسه..
ويسقطُ مُضَرَّجاً بدمهِ؟

لآخِرِ فتىً..
في عمر الورد
يُفَجِّر الشمسَ في جسدهِ
دفاعاً عن أنقاضِ
بيته الذي هُدِّم فوق رأسه؟

لآخِرِ فتاة..

✪ شاعر الطفولة والعروبة الكبير.

في رَيْعانِ زَنْبَقة
تفجِّر الشمسَ في جسدِها
ثأراً لأسرتِها التي
أُبيدت فجر اليوم..؟

ماذا يمكنُ أن تفعلَ الكلمة؟
ومع ذلك.. فلا بُدَّ أن نقفَ معهم
ولو من بعيد..
إنهم يدفعون الضريبة..
ضريبةَ الدم عنّا جميعاً
عن ثلاثمئةِ مليون عربي..
عن مليارِ مُسلم على وجه الأرض

الكلمةُ.. تُطرِقُ خجلاً!
أمامَ جُثثِ الشهداء
التي تَرُجُّ الأرضَ العربيةَ كل لحظة،
والأرضُ العربيةُ.. تتفرَّج.
الكلمةُ.. تُطرِقُ خجلاً!
ولكنْ.. لابُدَّ من كلمة
لابُدَّ من صوتٍ يرتفع..
سمّاه الأجداد: أضعفَ الإيمان.

فَلْنَكُنْ.. مع أضعفِ الإيمان..
ومع الخَجَلِ والشهداء في آنٍ!

أين أنا من وطني؟

جميل حسن ٭

ما الذي يمكنني أن أفعله؟
في لساني خدَرٌ
وبفكري خَدَرٌ
وبنفسي كلُّ آنٍ زلزلةْ

٭ ٭ ٭

وطني يفتح للّريحِ ذراعيهِ
وتمضي الرّيحُ
تمضي الرّيحُ
لا تعبأُ في أن تسألَه

٭ ٭ ٭



ما الّذي بين المهبّاتِ رماهُ

٭ أديب وشاعر سوري.
العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

عارياً مُستلَبَ الهمَّة

مبذولاً بلا جدوى

ومحمولاً على كفِّ الطَّواغيت الغُزاة القتلةْ

* * *

وطني الثاكلُ يستجدي سؤالاً

زائغَ المعنى

ويمضي الناسُ.. يمضي النَّاسُ

ما من سائلٍ يسألُ عمَّن أثكله

* * *

وطني عاش يتيماً فاقدَ النِّسبة

مفزوعاً

يداري ليله الفاقد الوجهة

في أذنيه طوالَ اللَّيل أصواتُ الرَّزايا الموغلة

* * *

وطني كان بعينيَّ رؤىً

وبأذنيَّ صدى

وبروحي نكهة المعنى

وفي شعري القوافي المرسلة

* * *

كان كالسَّروة في شمختهِ

والإباءِ الصَّعبِ في عزَّتهِ

كان نَحاتاً وإزميلاً

وشتَّى من تماثيل لرباتِ الجمالِ المذهلة

* * *

وطني كان رؤىً وتصاويرَ

وأقوالا

معانيها كملح الأرض

بين القولِ والقول سؤالُ الكون عمَّن شكَّله

وطني الآن جروحٌ وقروح

وفراغٌ يسعُ الدُّنيا بخيمات النزوحْ

وعلى كل مَهَبٍ دفعوهُ

ليسوِّي منزلَهْ

* * *

من بنيه خسفُهُ

يا تُرى.. هل هم بنوه؟

وطني.. منذ متى هذا الأسى يأتيك بالأنساب

والألقاب، والفرسانِ في هذي الدّروب الموحلة؟

* * *

وطني. وأنا ضيَّعتُ فيه نسبي

راغ عن عينيَّ بينَ الكتبِ

منذ واريت الثّرى وجه أبي

قتلوه. وأنا أسألُ عمَّن قتَلَهْ

٭ ٭ ٭

يجلدون الآن ظلّي كلّما

قيل شقّت شُهُبٌ صدرَ السما

إنّها الصيحةُ تأتيهمُ كما

يسبقُ البركانَ عصفُ الزَّلزلة

٭ ٭ ٭

احمِ هذا الهمّ.. همّ النبلاء

إنما أنت أمانُ الهمِ مذ كان البلاء

وطني.. لا تبتئس

أنت الذي بعد غدٍ تكتب نصّ المسألة

٭ ٭ ٭

أيُّها الفاتنُ!.. مهما قيل. أنتَ المنتدى

ونصوصُ الغزل الحالمِ أو حرفُ النّدا

والنَّدامى

وطيوفُ الأمل السّاهر تحتَ المقصلة

٭ ٭ ٭

لا تلمْني أيُّها الواهب عمري كلَّ معنى

فثمانوني نأت عن دربها كي تصبح سجناً

قيَّدتني. لم أعد أملك إلاّ ذكرياتي

ولقد كنّ، ومازلن نداءَ الجلجلة

(غـــزل)

قصة: محسن يوسف ✿



- الفتاة:

((.. أيها العجوز. نظراتك تخترقني كالسهام. يهاجمني إحساس بالعري، وحولي تتدافع كلاب شرسة. أنفاسها تغزو مسامي، حارقة كالنار. أهرب والنظرات تحاصرني، من أمامي وخلفي، فوقي وتحتي. أحتمي بيديّ. أضم بهما جسدي المرتعش.

تحيط بي النظرات. ألمح فيها توسلاً. يسيطر على حواسي. يزداد ارتعاشي وخوفي. أتوهم أني أنقض عليه. أفقأ عينيه. أمزق وجهه، لكن

✿ أديب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

ابتسامته توقــف كل شيء. يا الله ما أجمل ابتسامته؟..)).

- العجوز:

((يا إلهي.. ما أبهــى هذا الوجه؟. إنَّها هي.. أجل: إنَّها هي.. حبيبة القلب)).

- الفتاة:

((يدور بي المكان. أي رجل هذا؟.. أتمنى الاقتراب منه، وأخشــاه كوحش. اتق الله يا رجل. ماذا سيقول الآخرون، وهم يشاهدون ما يحدث؟.

صبية بعمر الزهور، ورجل عبر بعشرات النساء، فأخذن عمره، وغيرن ملامحه ولون شعــره، لكنّ الغبيات أغفلــن أحلى ما يميز الرجال: الابتسامة التي تضيء وتشع وتزرع الأحاسيس الدافئة)).

- العجوز:

((.. اللهــم.. اغمــر وجــوه الأحباب، بالفرح والابتسامات..)).

- الفتاة:

((أتابع سيري حائرة مضطربة. خطواته بطيئة لكنهــا متزنة. أود لو أســرع وأبتعد، لكني لا أقوى على ذلك. عيناه تهمسان لي. تتكلمان وتبوحان بما يبهــج الروح، ويجعل القلب يرقص فرحاً. ياإلهي. هل كتب لي أن أعشق عجوزاً هرماً؟.

يقترب العجوز بخطواته الوئيدة. تغوص نظراتــه الحانية في داخلــي. يأتيني صوته مضمخاً بالحنان)).

- العجوز:

((.. آه.. يا صغيرتــي الجميلة، حسبت أنك إحدى حفيداتي الغاليات)).

- الفتاة:

((لم أتمالــك نفســي. اندفعــت نحوه. طوقت وجهه بكلتا يديّ، وأنا أدنو بفمي من رأسه، لأشبعه تقبيلاً..)).

طـــلاق

عبد الكريم جمال الضحّاك *

بعبــارات قصــيرة، خاطبــت أولادهــا المتحلقــين حول مائدة الإفطــار، وهي تهمّ بالخروج بسرعة..

– أنـــا ذاهبة مع خالكم أسعد بسيّارته.. لن أتأخر.. نظر الأطفال إلى بعضهم بدهشة واستغراب، وتابعوا تناول طعامهم.

عندمــا عادت، كانت تحمــل بين يديها صندوقين ملفوفين بــورق لامع، فتراكضوا باتجاهها وهم ينادون.

– حلويات.. حلويات..

– لأنهم يعرفون ما يحتويه الصندوقان، كون جارهم «أبو فادي» قد أرسل إليهم مثلها عندما زوّج ولده «فادي».

إلا أنّهم لم يستطيعوا التهام الكمية التي تطلبها نظراتهم، فقد كانوا متخمين بطعام الإفطــار.. ولما حضر زوجهــا «أبو محمود» تقدمــت نحــوه، وهي تحمــل الصندوقين، وتعلو وجهها ابتسامة خائفة:

– تفضّل..

سألها زوجها، وهو يفتّش في الصندوقين عن قطعة تستهويه:

– مَنْ تزوّج في قريتنا هذا اليوم؟!

حاولتْ أن تضبــط ابتسامتها وكلامها، لتبدو عادية:

– لا أحد..

وضــع في فمه قطعة الحلــوى التي عثر عليها.. ثم عاد ليسألها:

– إذن.. من أرسل لنا هذا؟!

تباطأت في الجواب:

– أخي.. أسعد..

توقــف (أبو محمود) عــن المضغ، ونظر إليها باستغراب متسائلاً:

* أديب وقاص سوري.

- ومتــى كان أخوك أسعــد يرسل إلينا شيئاً؟! ما المناسبة؟!

أحسّت أنّها ستختنق، وهي تبلع ريقها..

وعندمــا كرر السؤال، تنحنحت.. ثم أجابت بصوت مبحوح، وبعبارات متقطعة:

- لأنني تنازلت.. له عن.. حصتي في.. إرث والدي..

قفــز واقفاً كأنه كان جالســاً على لغم، وبــدأ يبصق ما في فمه، وهو يكرر ما سمعه بغضب واستهجان:

تنازلتِ له عن حصتك في إرث والدك؟! كيف تمّ هذا؟!

تقوّست أمامــه لتسقط الصندوقين عن راحتيها المرتجفتين كجناحي عصفور ذبيح، ثم أجابت بصوت متهدّج:

- عندما طلبني البارحة لزيارته.. طلب مني ذلك..

بعد أن أكمل بصق ما بقي في فمه..

- من أجل ماذا؟!

- قال لي: إن ثروة الوالد يجب أن تبقى مع الذكور من أولاده، لأنّهم سيحملون اسمه بعد وفاته..

- من شرّع ذلك؟!

- قال لي: عاداتنا وتقاليدنا..

- وأنتِ أيّ اسم تحملين؟!

- ...

- وأولادك؟!

- قال لي: والدهم مسؤول عنهم؟!

- وأنت؟!

- ...

- ولماذا لم تسأليني؟!

- قال لي.

ولم يدعها تكمل.. ركل صندوقيّ الحلوى، وحدّق في وجهها الذي صار بلون الجثث، ثم تقدّم منها مهدّداً:

- أعيدي الصندوقــين إلى أخيك.. ولا ترجعــي إلى هنا إلاّ بعــد أن يلغي ما سرقه منك، ومن أولادك..

ولــما حملــتْ الصندوقــين، واستدارت لتخرج.. أكمل:

- وأخبريه أيضاً، إذا لم يتراجع، فسأجعل هــذا القليل الــذي سلبه منــك يعكّر بحر ثرواته..

داهم «فطمة» شعور مخيف، إنّ الأمر ليس سهــلاً وبسيطاً كما صــوّره أخوها «أسعد» عندما اصطحبها إلى السجل العقاري.

وفي اليــوم التــالي.. عــادت «فطمة»، ووقفت متضرعة أمام زوجها:

- أرجوك.. لقد أخطأتُ..

- أنتِ لم تخطئي فقط.. لماذا رجعتِ؟!

- قــال لي: المــرأة ليس لهــا سوى بيت زوجها..

وقف قبالتها، وكأن عينيه ستقفزان من وجهه.. ثم صرخ:

- فطمة.. مــا دمتِ غــير مسؤولة عن زوجــك وأولادكِ.. فلا مــكان لك في هذا البيت.

• • •

انسحب الأقارب والأصدقاء والجيران.. بعد أن يئسوا من حلّ المشكلة، إلاّ أنّ «فطمة» حاولتْ بدموعهــا.. وتوسلاتها، وباعترافها بذنبها أن تعود.. لكنّ زوجها امتلأ بألم الغدر والخديعــة، أمسكهــا بيدها وجرّهــا.. ثمّ أوقفهــا بمواجهة باب البيت، وبعد أن فتحه علــى مصراعيه، وضع راحتيه على ظهرها، ودفعها بقوّة وعنف، ولما صارتْ في الشارع، وقبــل أن يغلق الباب خلفهــا، أطلق بأعلى صوته ثلاث قذائف:

- الأولى: انفجــرت في منزله، وأحدثت فيه الخراب.

أمَّــا الثانية: فقد حملتهــا «فطمة» إلى منزل أخيها «أسعد» حيث انفجرت ونشرت فيه الحرائق والدخان..

بينمــا استطاعت الثالثــة أن تصل إلى وسط القرية، وتنفجر في ساحتها الرئيسية، ليهزّ صداها بيوت القرية..

غالينا شيرباكوفا
برغل للجسد وخاتم للروح

د. هزوان الوز ٭

كلُّنا يعلم أنَّ القصة السوفييتية أعطت العالمَ الأدبي الشيء الكثير، وقدَّمت أسماء كُتّاب عمالقة، أمثال نيكولاي غوغول، وفيودر دوستويفسكي، وليف تولستوي، وأنطون تشيخوف، ومكسيم غوركي، وميخائيل شولوخوف، وفالنتين راسبوتين، وغيرهم.

منذ زمنٍ راودني السؤال التالي: أين هنَّ الكاتباتُ السوفييتيّات؟

القارئ العربي نادراً ما اطلع على نتاج الكاتبات السوفييتيّات.. عدا ترجمات متفرقة لقصص قصيرة لبعضهن.

وأمام هذا السؤال ولاعتباراتٍ أخرى تتعلق بالكاتبة وأدبها، ترجمت بعض نتاج الكاتبة غالينا نيكولايفنا شيرباكوفا، واخترت قصتين ورواية قصيرة بعنوان (الجدار) من كتابها الثاني الصادر في موسكو عام ١٩٩٧م، والذي يحمل عنوان (عام الكرمنتينا)، وقد ضم هذا الكتاب ثلاث روايات وست قصص. وتركز غالينا شيرباكوفا في رواياتها وقصصها على ما هو حياتي، أبدي، على المشاعرِ الإنسانيةِ الحقة، منتقلة من نثرية الحياة اليومية إلى رؤى فلسفية، وتتحدث عن كل ذلك بصوتٍ خافتٍ بسيط، وهذا هو مبعث انطلاقة نتاجها وصداه الواسع في نفوس الكثير من القرّاء.

٭ قاص وباحث سوري- وزير التربية.

صاغ تشيخوف هدفه الإبداعي وفق الآتي: ((أهدفُ إلى اصطياد عصفورين: أنْ أُصوِّر الحياةَ بأمانةٍ وصدقٍ، وأنْ أبرز في هذا السياق مقدار انحرافها عن الصواب)). والكاتبة غالينا شيرباكوفا تسير على نهج تشيخوف، وهي تدرك بشكلٍ عميق واقعها، ولهذا تغدو حقيقة اللوحات التي ترسمها حادة، فتعرّي أخطاء منظومة العلاقات الاجتماعية السائدة ولا معقوليتها، وتتطلع إلى حياة أخرى، محاولة رسمها كما يجب أن تكون.

فهي تصوِّر لحظات ومواقف حياتية في لوحاتٍ فنية ناطقة، لعلها لا تستكمل صياغتها القصصية بالمعنى الشائع للقصة محبوكة الأطراف، ولكنها مزق من الحياة، ومع ما يبدو من بساطة ظاهرية في هذه اللوحات، فإنها تنطوي على معانٍ عميقة، وتحليل للنفس البشرية بشكل دقيق.

وُلدت الكاتبة غالينا نيكولايفنا شيرباكوفا في ١٠ أيار ١٩٣٢م في مدينة دزيرجينسك التابعة لمنطقة دونيتسك في جمهورية أوكرانيا إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي سابقاً.

كان وباء الجوع في تلك السنوات يحصدُ الكثير من الأرواح في أوكرانيا، وتقول الكاتبة شيرباكوفا فيما بعد عن ذلك «لأنني لم أمت في صغري فقد وزعت جدتي خواتم الخطوبة، والكثير من النقود لشراء البرغل. ومنذ ذلك الحين فإنَّ الخواتم والبرغل هي مفاهيم مقدسة في حياتي».

قضت غالينا شيرباكوفا الصغيرة سنوات دراستها الأولى في جو الاحتلال الألماني، فنشأ لديها شعور منذ ذلك الحين – كما تقول– أنَّ العداء للوطن هو الخطيئة والإثم الأكبر.

وبعد إنهاء مرحلة الدراسة الثانوية انتسبت غالينا شيرباكوفا إلى المعهد التربوي في تشيليابينسك، وبعد تخرجها توجهت فوراً للعمل كمعلمة في المدرسة، درَّست اللغة الروسية والأدب، وبذا جمعت تجربة غنية لمؤلفها الخالد «و ما تحقق حلمه». وبعد ذلك اتجهت للعمل كصحفية في الجريدة. لكنها رأت أنَّ هذا العمل يأخذها باتجاه بعيد عمَّا تريد مما يجعل طريقها للكتابة طويلاً.

كتبت غالينا شيرباكوفا في الفترة الممتدة إلى نهاية السبعينات ما وصفته بالأغراض الجدية، وكتابات وقصائد نثرية ومواضيع في الفلسفة، لكن لم تجد من يريد نشر هذه الكتابات. فقررت يوماً كتابة قصة عن الحب وهكذا ولدت عندها قصة «القصة والسروة» التي نُشرت في خريف عام ١٩٧٩م في مجلة «الشباب»، والتي أُخرجت فيما بعد فيلماً سينمائياً تحت اسم «وما تحقق حلمه».

وعلى غير ما كانت تتوقعه الكاتبة حصلت القصة (والفيلم) على نجاح صاعق. وتروي الكاتبة عن القصة قائلةً: «كتبتُها على خلفية سقوط ابني اليافع إثر تسلقه أنبوبة لتصريف الماء للبناية قاصداً الوصول إلى حبه الأوَّل»، حيث أحدث هذا الأمر صدمة كبيرة لدى الكاتبة الأم دفعها لكتابة القصة، وبعد الانتهاء منها أرسلتها للنشر في مجلة «الشباب». وقد مرَّ شهر وشهران ولم تنشر القصة، فذهبت إلى المجلة تستفسر فأجابها رئيس التحرير بلهجة مهذبة أنه لا يستطيع نشرها خشية أنْ يقلِّد جميع العشاق الأولاد بطل القصة (ابنها). فتناولت القصة عن الطاولة وخرجت، وهي تسير في المشى توقفت وأسندت الأوراق على ركبتيها وأعادت صياغة النهاية بكتابة احتمالين: في الاحتمال الأول (بطل القصة) استشهد. وفي الاحتمال الثاني اقتراحات مختلفة عدّة مع إمكانية المعالجة بالطرق الممكنة، وأعجب هيئة تحرير المجلة الاقتراح الثاني.

وبعد النشر وفي عام ١٩٨٠م تمَّ إخراج القصة إلى الشاشة حيث تمَّ تغيير النهاية بموافقة من شيرباكوفا لأنها خافت إذا كانت نهاية القصة موت البطل فإن مئات الأولاد سيتخذونه مثالاً وقدوة مختصرين حيواتهم معبرين عن بطولاتهم بالتضحيات والقفز من نافذة إلى نافذة.

وفي عام ١٩٨١م حصل الفيلم «وما تحقق حلمه»، بناء على استفتاء قرّاء مجلة (الشاشة السوفييتية) على اسم أفضل فيلم لعام ١٩٨١م، وقد حصل في المهرجان السينمائي لعموم الاتحاد السوفييتي في مدينة فيلنوس على الجائزة الرئيسة. وفي عام ٢٠١٠م تقلدت شيرباكوفا في تشيليابينسك الوسام الشعبي باسم «الماضي المضيء».

كانت كتابات شيرباكوفا موضوع اهتمام المخرجين السينمائيين على الدوام، وقد تمَّ إخراج بعض منها أفلاماً كتبت الكاتبة السيناريوهات اللازمة لها، ومنها:

- وما تحقق حلمه.
- الصورة.
- العمل الشخصي للقاضي إيفانوف /حوارية.
- اثنتان وواحدة/ قصص قصيرة.
- افترض أني أموت سيدي.
- والفيلم التلفزيوني «النساء في اللعبة بلا قواعد».

عانت الكاتبة في سنوات حياتها الأخيرة من المرض وقسوته، وقد تركت السنون الطويلة بصماتها عليها، وبصعوبة استطاع الأطباء والأقرباء إقناعها بالخضوع لعملية جراحية داخلية، لكنها لم تتعاف منها. وكان آخر حديث أدلت به في كانون الثاني عام

٢٠١٠م، أي بعد مرور ثلاثين عاماً على بداية عملها الأول، فيلم «وما تحقق حلمه».

في الصباح قدمت سيارة الإسعاف إلى منزل الكاتبة غالينا شيرباكوفا في شارع بوتيرسكي وكان وضعها الصحي من سيئ إلى أسوأ، وعلى الرغم من الاجتماع الذي عقدته لجنة من الأطباء المختصين لمساعدتها ودام ساعات عدة، فإنَّ ساعة الفراق قد حانت، وفارقت غالينا شيرباكوفا الحياة في يوم الثلاثاء ٢٣ آذار عام ٢٠١٠م عن عمر ناهز ٧٩ عاماً.

لقد عانت كثيراً من المرض الشّاق ولكنها كانت تستجمع قواها دائماً، وصمدت حتى النهاية، وظلت تكتب حتى أيامها الأخيرة، وتركت قصة مكتوبة لم تُنجز.

رحلت غالينا شيرباكوفا عن ولدين (إيكاترينا وألكسندر) من زوجين مختلفين، وحسبما كتبت إيكاترينا يتبين أنَّ حياتهم الأسرية لم تكن مستقرة، وكانت العائلة مشتتة،لا انسجام فيها، والابن طبيب يعاني من إدمان الكحول، ولقد ترك ذلك آثاره السلبية على حياة الكاتبة وصحتها.

كانت الكاتبة غالينا شيرباكوفا نجمة حقيقية في النثر السوفييتي، وقد كتبت أكثر من ٧٥ مؤلَّفاً ما بين رواية وقصة وقصة قصيرة ومسرحية وحوارية (سيناريو).

التقت كثيراً مع قُرَّائها، وسافرت مرَّات عدّة في البلاد، طُبعت مؤلَّفاتُها بأعدادٍ هائلة من النُسخ، ونالت أوسمة ومكافآت، وكل ذلك لم يُغيِّر في تواضعها، أو يخلق لديها شيئاً من الغرور أو الأنانية أو السعي لمجد خاص.

وقد قالت شيرباكوفا: «الكتابة بالنسبة لي هي قبل كل شيء عمل شاق- جهد، وأنا حتى الآن أكتب كتبي عادة بقلم ناشف عادي، ولم أحاول حتى استيعاب الحاسوب، فأنا لا أثق كثيراً بالآلات. فالنثر المكتوب بالحاسوب يبدو لي نثراً ميكانيكياً».

غالينا شيرباكوفا تقود القارئ إلى الاستنتاجات بشكل غير ملحوظ، بانية قصتها بشكل ينبثقُ فيه الحكم النهائي كأمرٍ لا جدل فيه اقتضته طبيعة الحال، ولا يتكون عبر افتراضات ومحاكمات معقَّدة، بل يوحي به أو يفرضه المنطق الطبيعي السليم ومجمل الأحاسيس والمشاعر التي يثيرها السرد القصصي.

لقد باتَ معروفاً أنَّ الكاتب ابن عصره دائماً، والمتاعب والهموم القائمة هي العامل الأساسي الذي يستحث إبداعه. ويتميز الكاتب المبدع بقدرته على رؤية القضايا الخالدة عبر الأحداث الجارية، وبالتالي يصوغ نماذج ولوحات تدفعنا للتفكير ملياً بالمسائل الجذرية للوجود الإنساني والمصائر البشرية.

وأعتقد أن هذا ما قامت به الكاتبة غالينا شيرباكوفا.

شاعر الشام (أنور العطار)

عدنان مصطفى العلي ✪



تحل في مطلعِ عـام (٢٠١٣م) الذكرى الأربعـون لرحيـل فقيـد الأدب والوطن الشاعـر (أنور العطار) الـذي تميز شعره بوصف الأزهـار والحدائـق وكان مغرماً بهما يحرص على مزج الطبيعة في فنونه الشعرية فأنت لا تقرأ في شعره غزلاً وإنَّما تقرأ وصفاً رائعاً في وصف الربيع والطبيعة فكان منهما كل معاني النور والبحر والفجر ولـه قصائـد في الرثاء والمـدح والفخر. دمشقيُّ المولد والوفـاة (١٩٠٨-١٩٧٢م)، (١٣٢٦-١٣٩٢هـ).

تلقـى علومـه الابتدائيـة في بعلبـك

✪ أديب وناقد.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

والثانوية (في مكتب عنبر) وتخرج من كلية الآداب في الجامعة السورية وأمضى حياته في تدريس الأدب العربي في ثانويات سورية والعراق والسعودية. تولى رئاسة ديوان الإنشاء في وزارة المعارف مدةً قصيرة طبع ديوانه الأول «ظلال الأيام» (عام١٩٤٨م) ثم كتاب الأدب والنصوص.

وهناك مخطوط من شعر البواكير (وادي الأحلام) (منعطف النهر) (وعلمتني الحياة) (وديوان ربيعٌ بلا أحبة) وإلى الآن لم ينشر ومن كتبه غير المطبوعة الوصف والتزويق عند البحتري وأسرة الغزل في العصر الأموي وكان يميل إلى العزلة ويبتعد عن الأحزاب السياسية.

إنَّ الشاعر مؤمن بأمته العربية مؤمن بماضيها الرائع ومستقبلها الزاهر اتخذ البطولة رمزاً لتاريخنا الطويل ومرَّ في لمحات خاطفة بمراحل هذا التاريخ المجيد إنه ابن دمشق الذي تغنى بها وبغوطتها وملأ شعره الآفاق بسحرها وجمالها لقد عشق الشام فكان أكثر الشعراء مدحاً لهذه الأرض التي نشأ وترعرع فيها منذ حداثة سنه لقد وهبها حبه وروحه فماذا هي وهبته؟

إنَّ القارئ يجد في شعره نغمة موسيقيه تبعث في النفس الارتياح وأجمل ما كتب بوصف الربيع فأستمتع بما فيه من روعة اللون وصفائه ووضوحه وجمال سبكه واستواء أسلوبه وإليك بعض الأبيات من قصيدة الربيع:

يا حبيبي أفق فقد ضحك الرو ... ض وأبدى جماله المحجوبا

واستعاد الوادي الأنيس سناه ... وبنى الطير عشه المخروبا

طرب القلب فانتشى وتغنَّى ... ومن الحب أن أعيش طروبا

وأنا الشاعر الذي يغمر الأر ... واح ضحكاً وما يريم كئيبا

في فؤادي اللهيف داءٌ قد استع ... صى وجرح يمضني تعذيبا

ورياض فيها العشاش تغني ... فيذوب الغناء خمراً صبيبا

إن هذا الجمال ياقلب نهبٌ ... فابتدر تخطف السنا المنهوبا

إحيَ للنور للمسرة للشدو ... وخلِّ الأسى وخلِّ النحيبا

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا بأن الشاعر أتقن صناعة وفن التعبير في الشعر وأجاد وتبصر في اللغة العربية فأعاد بشعره رونق

الماضي وإبداعه ليعيد ما مضى من تراثنا الجميل لربطه بمستقبل هذه الأمة ويكشف عما أثّر في ضمائر العصور لقد سطع نجمه على الطبيعة إبداعاً فوق إبداع وروعة ما بعدها روعة لقد أدرك علمه قبل أن يولد شعره والشعر هو مادة الفن لقد توافق شعر العطار بدقته فكان ذلك هو القاسم المشترك بينهما.

إن الذي يعرف العطار يجد فيه دقة الملامح وأناقة المظهر ورقة الحديث فقد عرفته كما عرفه أخوانه كلهم سمح الطبع رضي النفس حلو العشرة عذب الحديث لم يجرِ لسانه يوماً بفاحشة فكانت منزلته رفيعة في نفوس أهله وذويه ومعارفه كافة.

الميزة بشعره أنه يخرج من القلب واللسان ليستقر في قرارة النفس. لقد عزف على قيثارة الشعر أروع الأحاسيس وأصدق الحب على شفتيه أبياتاً تنبض بالألم والحنين واليك بعض الأبيات وهو يصف الألم:

أنا في عزلتي يطيف بي الرعب
فأبكي من طول شجوي وأفرقْ
تعتريني الهموم فالطرف حير
ان مُنَدَّى من الدموع مؤرَّقْ
عشت من طول حسرتي أتشكّى
مثلما يشتكي الحمام المطوَّقْ
ضاع عمري كما تضيع الينابيع
وتخفى أمواهها وتُغلق
وانطوى مثلما تمر الضبابات
ويفنى خيالها ويمزَّقْ

منحى العطار واتجاهه في الشعر:

إنَّ من يقرأ شعر العطار يجد فيه مسحة من تأثر لأنه كان يألف الحزن ويصادق الأسى أحياناً كل ذلك يعود إلى بداية حياته حيث البؤس والشقاء تفتحت عيناه على الدنيا والحرب العالمية الأولى قائمة ودمشق في أشد بؤسها الجوع والدموع. الجياع ينبشون القمامة، وكان العهد العثماني يملأ القلوب رعباً وفزعاً ومن خلال ذلك رأى المشانق ترتفع ويعلق عليها رجالات البلاد والذين كانوا يطالبون بالاستقلال والقضاء على الظلم الاجتماعي والتخلف إضافة إلى تحقيق العدالة لقد عبر الشاعر عن الحزن عندما ترجمه إلى صور شعرية تظهر مدى شجونه حيث يقول:

غفلتُ عني المنون
ولحن الحياة لحنٌ قصيرُ
ففنيت وبنفسي قيثارة تتشكى
وأنا الدمع والأسى والشعورُ

أين زهوُ الحياة في متع العيش
وأيـن الهـوى وأيـن السـرور

حياة شاعرنا وبيئته:

ولد هذا الشاعر العظيم في عائلة فقيرة لا تعـرف الترف يتيم الأبِ يسكن مع عائلته في دمشـق بحي بسيط وهو حـي السمانة لقد كانت حياتـه مليئة بالفضيلة يجنح إلى الهـدوء فلا يكاد يخلو بنفسـه إلا والكتاب معه يستظهره حفظاً وفهماً إضافة إلى كتب الشعر والأدب.

إنـه فتى حالم فيه سمـات النبل والوفاء حين تسمع صوته تسمع صوتاً حنوناً يمتلك منّا الحواس والعقول، كان يقرأ الشعراء الجاهلية وشعراء العصر الحديث من أمثال أمـير الشعـراء (أحمد شوقـي) (وحافظ إبراهيـم) (وخير الدين الزركلي) لقد حفظ الكثير من الشعر حتى غدا مهنته.

بداية الشاعر حين بدأ يتلمس طريقه:

لقد بدأ حياته بقصيـدة رائعة كان لها دورٌ في حياته وهي (قصيدة الشاعر) والتي ألقاها في المجمع العلمي بعد أن فتح المرحوم رئيس المجمع العلمي (محمد كرد علي) باب المجمع على مصراعيه وكانت هذه القصيدة طويلة ولم يذكرهـا في ديوانه (ظلال الأيام) ولم يثبت منها في هذا الديوان إلا: (مقطوعة الحمامة) وإليك بعض أبياتها:

ونـائـحـة مـن بـنـات الـهـديـل
تـبـثُّ إلى الـروض أحـزانـهـا
عراها من الدهر غلب الخطوب
فـهـبـت تـودع بـسـتـانـهـا
وعـزَّ عليـهـا فـراق الغصـون
ومـا يـمـلـك الـقـلـب هـجـرانـهـا
أطـافـت بـهـا زمـر القـانـصـين
وأفـقـدهـا الـدهـر أعـوانـهـا
وراحـت تـؤم فسيـح الـغـيـاض
وتـبـكـي مـدى العـمـر أوطـانـهـا

وعلى إثرها شـق طريقـه إلى مجلة الزهـراء وكان يصدرهـا آن ذاك: (محـب الدين الخطيـب) وبدأت الصحف تنشر كل روائعـه الشعرية الجميلـة المنمقة بعبارات صاغها البيان شعراً وسحراً.

ومن المحـزن أنَّ أشعـار العطار وقسماً كبـيراً منهـا بقي في طي الكتمـان ولم تجد طريقهـا إلى دور النشـر. وطبع لـه ديوان واحد سماه (ظلال الأيام) أهداه إلى والدته التـي تأثر بها أشد التأثر وكان الإهداء: إلى التي علمتني الطيبـة والحنان وحب الخير

وأفاضت علي مــن حبها وحنانها مما جعل
صحراء أيامي جنات وظلالاً.

بين شوقي والعطار: اللقاء الأول الذي تمَّ بين شوقي والعطـار كان في آب من عام (١٩٢٥م) عندمـا زار شوقـي دمشق وألقى قصيدته الشهيرة يصف فيها دمشق وبردى وهي معروفـة لدى الأدباء وندع الحديث للشاعر (أنور العطار) حيث يقول: كنت من بين الذين كانوا يتوقون لرؤية شاعر العرب وأميرهم.

ذكريات لا تفنى وصور لا تموت: لحظات فيها لذة وأي لـذة وإرواء الروح من ينابيعه لسحـر وأي سحر. كان الأدباء يزدحمون في المجمع العلمي كي يتمتعـوا بمرأى الشاعر الكبير ويغذوا القلوب والأرواح بهذا الشاعر الذي أصبح إرث الخلود ونشيد البقاء.

ومن الذين حضـروا هذا اليوم المشهود المرحوم (محمد كرد علـي) والأستاذ (شفيق جبري) والمناضل (فخري البارودي) والأستاذ الجليـل (فارس الخـوري) والأستاذ (نجيب الريس) صاحب: (جريدة القبس) وهو الذي ألقـى قصيدة أمير الشعـراء وفي هذا اليوم بالذات كان اللقاء بين العطار وشوقي لحظات من العمر تمتع العين وتسر الخاطر.

بقـي اللقاء أثـراً ماثلاً بنفسـ العطار كلحن من ألحان الروعة والجمال والإبداع. وعندما توفي شوقي (رحمه الله) نظر العطار في الشوقيات فوجد فيها أكثر من ألف بيت لم تنشر فأرسل في حينـه إلى ولديه (حسين شوقـي وأخيه علـي) عن طريـق السفارة المصرية، وكانت غايته إغناء المكتبة العربية بهـذا الإرث الهائل ليخـدم الأدب العربي لكنه لم يفلح في مساعيه وسبب ذلك انشغال أبناء شوقي فحـرم القارئ العربي من هذا التراث الذي بقـي في مكتبة العطار والذي رأيتـه بأم عيني عـام (١٩٧٠م) والأصدقاء أناس عجزت الأحاسيس عن إدراكهم.

الوظائف التي شغلها شاعرنا الراحل: عمل في حقل التعليم فـكان مديراً لمدرسة في بلـدة جميلة تدعى (عـين منين) فكانت أجمـل لحظات عمره فمنهـا استمد شعره الرقيق الذي يبعث في النفس الأمل ويزجي الفؤاد بعباراته اللطيفة ومن ثم عين أستاذاً في حي عريق مــن مدينة دمشق وهو: (حي الصالحية) ولقد خيل له وكأنه يعانق دمشق من قاسيون مما أوحى إلى الشاعر أن ينشد عــن دمشق أبياتاً تفيض حركـة وألواناً في دمشق وقد أبدت محاسنها. فترى دمشق من

خلالها هذا هو شاعر الطبيعة يصور فيفتن فمن فاته أن يرى دمشق (فلينظر إليها من خلال هذه الأبيات)

زنبقةَ الصحراء يا فتنة الوجودِ
وشوشت في الأسماع قصائد البقاءِ
من أطيب الأسجاع وأسلس الغناء
كأنها الزمان قديمه جديد
(وقاسيون) لاحا وأنت بين سوحِه
مترعة مراحا تلعب في سفوحه
دمشق أنت مأوى للحسن والفتون
عشت الدهور نجوى للشاعر المفتون

الشاعر والعراق:

ومن خلال عمله كمدرس انتدب إلى بغداد ودرّس فيها فترة كان يعتبرها من أجمل لحظات عمره وأحلى ذكرياته لقد تفتحت ملكاته الشعرية حين رأى الآثار الباقية المعبرة وقصور الخلفاء العباسيين وجلسات المحبين ومواطن الشعراء ومقابر الأجداد وأطلال الغابرين وبقايا الماضي.

ففي هذه المدينة اختزن في نفسه أجمل الصور ونظم أروع قصائده فازدادت بذلك هذه الآلة السحرية وتراً جديداً خرجت منه أطيب وأعذب النغمات. فكانت غذاء الروح وحديث القلب إلى النفس. الليل في بغداد لا ينام. سهرات تصبو لها روحه مليئة بالأنغام والأنس والشعر والأحلام. صفاء في اللغة وتخير للفظ على أجمل وجه وأدقه وأصفاه وأقدره على تصوير الحس الدقيق. رسام بارع لقد تغنى بهذه الأبيات بعد أن رأى نهر دجلة وبغداد وهنا يصفها .

إيه بغداد هل يعود الجلال الذي اندثر
فأرى تاجك النضير على الكون ينضفر
وأرى الأرض كلها وهي مهد ومستقر
آية أنت فذة كل ما فيك مبتكر
من تلاه فقد تلا مصحف المجد والسور
حفظ الدهر ذكرها وروى للغد الخبر

آخر عمل للشاعر كان مديراً لمدرسة الإمام النووي الإعدادية (عمارة سبع طوالع).

العطار والكاتب الأديب معروف الأرناؤوط:

في عام (١٩٢٩م) (تعرف الشاعر الكبير على الكاتب معروف الأرناؤوط عضو مجمع العلمي العربي) ومن المؤسف أنهم قليلون الذين يعرفون هذا الأديب الرقيق في قلمه والذي اشتهر بتصويره البياني للأحداث التي كان يرويها في كتبه.

ومن أجمل هذه المؤلفات سيد قريش وفاطمة (رضي الله عنها) ورائعته الخالدة رواية عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وفي سياقها علم فياض ومخزون عظيم من الأدب إضافة إلى بعض الكتب. إنه صاحب جريدة فتى العرب. الذي تميز بعقل كبير وثقافة موسوعية تآخى فيه العلم والأدب بأسلوب رائع ممتع وهو أحد الذين رفعوا راية التجديد الأدبي وبراعة الوصف صاغها الكاتب من أجل أن نعيش معه هذه اللحظات المشرقة.

إنه صاحب أدب ممزوج بصفاء الكلمات ورفعة المعاني لقد عبر أجمل تعبير حين وصف العطار بأنه (صناجة العرب) ومن أقواله المنشورة عن العطار بأنه كما يقول (ألفريد دي موسييه) شاعر الحيلة التي نعرفها في الآلام والمسرات في الحظوظ اللامعة والحظوظ الكابية بل هو كما يقول (لورد بايرون) قيثارة بعض أوتارها للغناء وبعضها للبكاء. جريدة (فتى العرب) تشرين الثاني (١٩٢٩م).

ويقول أيضاً إن هذه القطع الفريدة من الشعر قبس أنور العطار ألوانها وأصبغتها من إحساس رقيق يجيش في روحه فإذا هي تطلع على الناس بالألوان والشذا. كما يطلع الربيع بألوانه وعطوره. فتى العرب آذار (١٩٣١م).

رحم الله معروف فقد كانت جريدته منتدى الفكر وملتقى الأدباء.

كل ما يدور على البقاء مؤملاً

وعلى الفناء تديره الأيامُ

أصدقاء العطار:

لقد علمتنا مدرسة الحياة أن الوفاء هو الصفة المثلى التي يجب على المحب أن يلتزم بها تجاه من يحب. وسلامة الصبر تفرض على الإنسان أن يتمنى الخير للناس كافة وإن عجز عن سوقه إليهم بيده. إنَّ الكثير من الذين عايشوا العطار منهم (زكي المحاسني) والأستاذ (نسيب سعيد) والشاعر (شفيق جبري) (وخير الدين الزركلي) والأستاذ الكاتب (ممدوح حقي) والأديب (سامي الدهان) وشاعر القلمون (عبد المجيد التجار) رحم الله العطار حيث قال عن الأصدقاء:

لأن أنارت طريقي شعلة سطعت

فودهم هو مصباحي وأنواري

إنَّ الشاعر بقي مغموراً باستثناء الأستاذ

(أحمد الجندي) الذي كتب عن حياته في مجلة العربي الكويتية. لفتة كريمة تستحق التقدير والاحترام والذي يتأمل الفضلاء يجد أن حظهم قد بخس وأصبح الجاهل يداهنُ كي يصل إلى بعض حاجته ويكفي العطار فخراً عندما كتب عنه الأستاذ (ميخائيل خليل الله ويردي) مؤلف فلسفة الموسيقى الشرقية فكان فخماً في مديحه بارعاً في وصفه وتصويره:

إني لألقى العبقرية رهن ديوان طريفِ
جمع النعومة والجمال بأي أسلوب طريفِ
فكأن أحلام الحياة تراقصت بين الدفوفِ
والناي والأوتارُ تعزف لحن أوراق الخريفِ
شيدت قصراً للعروبة ليس من حجر صفيفِ
لكنه باقٍ بقاء الفن والشعر اللطيفِ
لكن أنور خالد كروح مالئة الفضاء
وظلاله تبقى على مدى الأيام وارفة الرواء

إن أنور العطار ينتظر وهو في ذمة الله من ينصفه ويخرج بقية تراثه إلى حيز الوجود من أجل إغناء المكتبة العربية.

رحم الله شاعرنا الذي كان يسمعنا هذه النبرة الإنسانية الحلوة في كل عبارة من دواوينه الرائعة التي تصف ثمرات العلم بلغة الأدب وجمال الأسلوب وخفة الروح فأفاد وأجاد وأصبح أثره فيها باقياً بقاء الزمان:

كم كنت أصغي لأنفاس معطرة
من شاعر الشام يهديها رياحنا
فكم رعيت حواراً في مجالسنا
وكم رويت لنا أخبار ماضينا
يا شاعر الشام طبت اليوم منزلة
فانعم بخلدك في مرضاة بارينا

وأصدقاء الصفاءِ خيرٌ من مكاسب الدنيا.

الشاعر عبد القادر أبو رحمة.. احتراقات الغريب

عبد الرزّاق معروف *

ولد الشاعر عبد القادر أبو رحمة في مخيم النيرب بحلب عام ١٩٦٤م، وتلقى تعليمه في ابتدائية (عيلبون)، وإعدادية (عكا)، وثانوية (محمود أبو الحسن) في مخيم النيرب، وتخرج من كلية الحقوق في جامعة حلب عام ١٩٩٠م، ويعمل محامياً في مدينة حلب.

أصدر مجموعتين لقصيدة النثر، الأولى: (دون أن ينتبه الماء) عام ١٩٩٩م، والثانية (الوردة موجز الحديقة) عام ٢٠٠٢م.

شارك في العديد من الأمسيات الأدبية في اتحاد الكتّاب العرب، والمركز الثقافي العربي بحلب منذ الثمانينيات وبداية التسعينيات، وقد فاز بعدد من الجوائز الأدبية وكان أبرزها تلك التي فاز فيها بالمرتبة الأولى للشعر عام ١٩٩٢م، وكان المرحوم الدكتور الناقد الأدبي نعيم اليافي رئيساً للجنة التحكيم، ومما قاله آنذاك: (إنَّ صور عبد القادر أبو رحمة جميلة ومضيئة مثل حبات الكريستال).. وإن (عبد القادر أبو رحمة) يستفيد من كل الفنون فيسخرها في تصوير تجربته، وقد نشر نصوصه في العديد من المجلات والجرائد العربية والمحلية، (كالناقد) في عدديها (٦٠ و٦٩) و(السفير) عندما كان بول شاوول محرّراً للقسم الثقافي فيها.

* أديب وشاعر سوري.

وكُتب عن أبي رحمة في جريدة (النهار) في عام ٢٠٠٠م، كما كَتَبَ عنه في جريدة الثورة الناقد طارق عبد الواحد مقالاً آخر عام ٢٠٠٤م، ونشر في جريدة أخبار الأدب المصرية التي يرأس تحريرها الروائي جمال الغيطاني في صيف ١٩٩٦م، وفي جريدة الأهالي والفينيق الأردنيتين، ومما كتبه الناقد طارق: (ليس بالجمل التجميلية وحدها دائماً، أيضاً بالجمل النافلة يصوغ عبد القادر أبو رحمة نصوصه من دون أن يكون طامحاً بالسؤدد، أو الإبهار الطاغي، بل مكتفياً بإشعال شمعة في تلك الزاوية التي نعرفها جيداً، كي يجعلنا نذرف الدمع والحسرة الكاملة).

ومما قاله صالح دياب في جريدة (النهار) في نصوص منشورة لأبي رحمة وغيره: (يهتمون بتكثيف اللحظات الداخلية عبر ضربات سريعة، خاطفة، جارحة، ترسم مجتمعة المشهد التراجيدي الداخلي الذي هو صورة طبق الأصل عن الخارج).

وكان يردد: (الشعر قدري ونصيبي، وإنني أحاول أن أقبض به على طفولتي الهاربة، وإذا كان الفكر هو فائض المعرفة، فإنَّ الشعر هو فائض المعرفة الراقية، وطفولتي كما كتبت المرأة والوطن).

ثم يصمت قليلاً، والمح في عينيه عمق المأساة!، فيتابع في لوعته قائلاً: (الشاعر اليوم ليس مريضاً بما يكفي ليكون شاعراً).

وقد صدق فإنَّ مجموعتيه تدوران في هذه المحاور الثلاثة: الطفولة، والمرأة، والوطن، شغوفاً بالأمل والحرية. كلفاً بالعفوية، مهيماً بالبراءة، وهو في ما بين سطوره يتراءى ذلك النص الغائب لاحتجاجاته، وعمق مأساته، لذا فإنَّ في المجموعتين تنفُّساً شعريّاً لحالات انفعالية، يستنفر خيال القارئ بالأسلوب البسيط في نبله، المستساغ للذائقة الشعرية، وذلك لصدق التجربة، وعدم جنوح الخيال فيها إلى عبثية التغريب والمغايرة، كنماذج الركام الغثّ الغامض للأدعياء باسم (التجريب والتخريب).

هذا، وإنَّ ارتباطه الوجداني بواقعية مأساوية، جادة، شفافة، تتداعى نثارات بينها فراغات كالإشارات لمعنى غائب في النص، متحرك في خيال القارئ، وخاصة ذلك القارئ الذي عانى من حميمية الذكرى لقديم عزيز مفقود، أو لطفولة لم ينل حسها العاطفي حقه من الارتواء، إنَّ ذلك استحضار للمفقود واعتزاز به، وبرهان جميل على الفارق بين الحيوان والإنسان بما منحه الله تعالى له من آية البيان، وبما زوَّده من همَّة لها أشكال عديدة لإزالة الغمّة.

ثم إنَّ هذه الذكريات ملجأ عفوي لصرخات آلام الشتات، للمغيَّب الذي

يستمطر حضوراً في الطبيعة، وتعيُّناً في الوجود بحساسية تشحن الجمل بالتوتر والاحتجاج، والإنسان منذ كان هو ذلك الناقد الجدّي في صميمه لذات تأبى الانشطار والتشظي خارج مفاهيم الحق والخير والعدالة، وليست تلك الاحتراقات في أزياء الحداثة الفلسفية الغربية السلبية منها إلا برهاناً على نص حقيقي غائب وراسخ في ضمير الإنسان.

إنَّ طعنة الغدر التي أصابت حس الانتماء الوطني الإنساني في نفس الشاعر العربي الفلسطيني، جعلته يتلمس العزاء للمقهورين في هذا العالم، حتى من خلال عزائه لنفسه الرقيقة التي فقدت حقها من الارتواء بمراتع الطفولة وحنان المدرسة، وهي بين سقف الصفيح وعصا المعلم، تقتات بعلب السردين وتهتزّ لصرر النساء، وتشتعل في أتون المأساة، وهي ترى الأم وقد أدركها العجز، قاعدة على حجر، تستند على عصاها، وتحدق في الأفق البعيد، وربما سيكون آخر ما يقال عن هذا الشاعر وأولاه بالاهتمام، هو أن معيار قيمته الأدبية إنما يتجلى للمتأمل في تشبثه بما هو إنساني، وبالمستقبل، حيث لا تزيغ عيناه.

الحق هو بؤرة القيم، وفي التأرجح بين الإحباط والتحدي تكون ألوان الإصرار كالتنظير والتنبؤ والاحتجاج والصراع، ولكل جدواه، ما لم يكتف بأحلام اليقظة المؤدية إلى عبث أو جنون، أو لتناقض السلوك بين كياسة الخارج وشراسة الباطن، أيّاً كان، أو الشعور بالدونية، وهذا ما يرفضه أبو رحمة.

إنَّه صرخات احتجاج على الصهيونية التي كانت وما زالت تعمل على تشويه النقاء الأصيل للإنسان في التعامل مع العالم بحق وحرية وعدالة، ولأنَّ الحق هو بؤرة القيم فإنَّ الصهيونية جرثومة العالم.

سيبقى الشاعر الحقيقي هو الوجدان الحاضر في مواجهة تشتت الحياة اللامحدود على يد صاحبها الآخر في مأساته الكبرى:

تنهمر الذكريات، كما تنهمر القرى في المدن
أعلق قلبي على عمود كهرباء مطفأ
أنتقل على جناح طير، ولا أخشى غير طلوع الحنين
من بقايا الصور.. في بهاء الباحة
كنت أبحث عن عرق طفولتنا التائهة
عن سبب مقنع لاصفرار الوجوه.

وعلى غلاف مجموعته (دون أن ينتبه الماء):

لم تكن الساحة خالية
ولم تكن النساء مستريحات من حرب مضت
كانت الريح تدفع الأوراق بالعكس الأكيد
بالموارية الشفوفة
بوطأة الأقدام في المحابر السوداء

بحفيف أصوات وموت

لم تكن الهاوية لتلهي النسيان عنه

حين بالخطيئة بعثر أيامه، وبالتسبيح ظلّ بعيداً

وإذا كان الشعر تلميح التصريح، فإنّ في هاتين المجموعتين تصريح التلميح لتجربة طفولة كابدت فقدان حقها في الارتواء بسبب الغربة، وحزن الأم، وعصا المدرس، وسقوف الصفيح، وحبة زيت السمك من منظمة (الأونروا)، وظلام ليل مبهم:

هكذا يبدأ يومي

بنشيد وعصا، ورائحة مساء غامضة

هذا المقطع من مشهدية حسية عارمة بالذكريات الحزينة بعنوان (الإعدادية نائمة في عصا المدرس) حيث شيوع الجمل الفعلية الذي يكسب النص حركية الحدث.. ومشهدية درامية تاريخية لإنسان يتلمس جمالية السلام عبر أنقاض الفجائع: (إنه العالم المكتظ في ساحة واحدة، تبدو للبصيرة مملوءة بالخواء، وقواعد النساء المنكوبات بطيش الرجال وأحكام الذكورة، والريح رمز النحس المستمر لكائنات بشرية تصر على تبرير حماقاتها وتزييف رهاناتها بحروف تلمع بالسواد، وتلتحف تحت وطأة القهر باحتضار إثر احتضار، في هذه المأساة التراجيدية للحضيض ربما يضطر الشاعر لعبثية الاحتجاج من دون أن يفقد روحه التي تأبى آخر المطاف إلا السمو بتسبيح الله الحكيم العالم وحده بسر النقائض وحكمة الأحزان).

بهذه المشهدية يفتتح أبو رحمة مجموعته (دون أن ينتبه الماء) لتكون قصائده صبايا يعزفن على أوتار المأساة التي أحرقت صدأ العيش ليحيا، فالحياة غير العيش، وشتان بين كائن يعيش سنيه بطول الغباء وكأنها لحظة فاقعة، وآخر يحيا كل سنة بعرض الفضاء، وكأنها قرن الحساسية الرائعة، وقد قال الفيلسوف هيدجر: (أين الحياة التي ضيعناها في العيش؟). ويلتفت الشاعر إلى أمه قائلاً:

وأنا بك أقول

لولاك ما استطعت أن أخط على الورق شيئاً من نبيذ روحي

وأنت تشكرين الرب الذي لا ينسى عباده اللاجئين

وكأننا يا أمي نحيا لنشكر الصفيح!..

وهذه هي (النملية) تباع من الدار، وتستبدل بها الثلاجة، ولكنها تبقى في ذاكرته فيتساءل:

ما الذي كخوف مدّ لها يد الحاجة؟

أسأل وصحن العشاء في أعلى النملية ينتظر من يفرغه،

في بطن العتمة!..

وهكذا ما زالت (النملية) في ذاكرة شاب يتأملها عن بعد وكأنها صورة عن كل فقيد،

وتتحول قصة النص إلى إشارة العادي والمألوف كيف يتحولان إلى ما فوق العادي والمألوف، وربما يأخذنا النص في فضائه إلى تأمّل القويّ الغاشم وهو يستبد بنا من خلال مصطلحات حضارية.

وفي نص (بهاء الباحة) تتبدّى الطفولة المصادرة في ظلّ العصا، حيث المدرسة كالثكنة أو الملجأ في معونات بسيطة من (الأونروا)، ورايتها التي ترمز لقيم يلتبس بها المستقبل البعيد أمام شباب مرشح للإبداع:

ولا بدّ لي أن أحيي زرقة العلم الدولي

الأونروا ومطعمها/ الأونروا وبقجها

شكراً لها/ وهي تصر على تعلمنا

مهنتي الحدادة والنجارة

شكراً لها وللأسبرين/ للأزقة التي تحلم أن

تكون حدائق

للطرقات التي تستقبل البعثات

وسيكبر في خيالهم اللون/ ويبتسمون لفكرة غامضة

إنّها معاناة الطفولة البريئة الغريبة، وحضن الأم حيث لا يستدفئ الطفل إلا برياح العذاب وحقائب البلاء، فيا لها من طفولة!. وماذا تقول؟ إنه مقطع سردي يفتح فضاء آخر لمعانٍ وجدانية حادة:

وكأننا يا أمي نحيا لنشكر الصفيح

ونشكر الصفيح لنحيا

سأبقى أقول عنك واصطاد منك

رياح الجرائد في ضجة المذابح/ وأنت حقائب أوجاع

ولا تخلو المجموعتان من ومضات، كومضة الكائن في حصار القهر وهو يستفُّ تراب العيش من الأونروا بين أقنعة الغثاء، ويتوهم الحنان في الكائنات الجوف فيتماسك لتحية مزيّفة مقهورة، لها في عمقها ما يبرّرها في مجتمع مَنْ تمسّك فيه بالحقيقة افتقر، وسقاه الزيف من كأس الحذر:

أخجل..

حميمي هذا العناق رغم الخديعة

رغم الشعر الذي منه يشرب

ثمة في الخديعة بعض الحقيقة لكنها مقفلة مائلة كظل.. الحقيقة حافية وتسقى من نعاس، ومن تلقائية النصوص وتداعيها الحُرّ أقتطف بعض الومضات مع الإشارة إلى أن ما يأتي من شرح أو تأويل إنّما هو المناخ العام للمجموعة لأن الجزئية مرتبطة بكيانها:

أخضُّ آلامي وأصقلها

أرنو لقلب دافئ

لفتاة تكشفني قبل أن أكشف لها قلبي

ربما ذلك عن سياق القهر التاريخي لحسّ الارتواء العاطفي في مجتمع يعاني من صراع الأقنعة وادعاءاتها.

أستيقظ باكراً، معولي فنجان قهوة
أبتكر للفتى غزالته
وهو يندفع واضعاً دمه في الأواني، بأذن
الفنجان وليس السكين، والوهم وليس
الحقيقة، والأيام المبرمجة للانكسار؟
فأين أخبئ وجهي حين الوهم يراني؟

إنّه الكائن الذي فقد ظله، ووقع في حصار نفسه وهي بين يديه مثخنة بالخيبة!.. وهذه إدانة لمجتمع لا عزاء لإنسانه إلا بذكريات الطفولة واستعادة الزمن الضائع، ليتحد بمعناه النقي وسرّه الجامع وحيويته الواعدة:

لا تجرحي بكاء الينابيع
لا تجرحي هواء الطفولة
اصمتي قليلاً/ كي ينمو الماء..

ويبقى الرسم بالكلمات خلاص الفنان، وهو يمارس طقس الإنسان البدئي الذي يستحضر جوهر الأشياء بتشخيصها، فيستعيد توازنه ولو في الخيال، والمتعة ولو في فسحة البال، والماء ولو في السلال:

أنسى ملامحك
فأحاول أن أرسم صورتك من جديد،
فم من نبيذ.. من سماء عالية
وأناناس لذيذ../ ووجه من خرائط آدمية
أعيد خلقك/ في ظهيرة من نعاس
وحين أصل إليك/ أنسى ملامحك/ فأحاول
من جديد

وعلى صعيد الوطن، ما الفائدة من النياشين والشعارات، بينما الصمت لجام اليقظة، وخدر الحلم فسحة المعاناة:

إنّنا هنا بكل النياشين التي على الصدر
وحتى نلجم اليقظة التي تعني الحقيقة
والسؤال
نستشفّ النعاس والمطلق
وننهمر كصرر النساء في خريف النكبة
وأنت تخبئ ذاتك، وتعلق هذيانك على الراية
التائهة في النقصان

وتأتي الأفعال والجمل: أصرخ.. ألقي.. أركض.. أبكي، و: ينفرد العواء بي!..، و: لنا خيبة شعار معلق على جدار منسي، متعلقون بقشة، مقطوعون من شجرة، و: أقترف الضحك - كنا فقدنا الزغاريد في أول جنازة شهيد.. كنا.. كنا.. كنا اقتتلنا!.. لتؤكد جميعها راهنية المأساة وامتدادها في الحاضر.

وكنا: تساوي حسّ الاستلاب، إذاً: الهذيان يحرك من شقيق اللهفة، من نسيج يكشف القلق، وينطفئ جمال العالم، وهو أصل ارتباط الإنسان بالحياة بسبب عبث القهر:

ما الذي تقوله كي تبرر سرورك؟
ما البرتقال؟ ما الزيتون؟ ما يافا؟ ما الأمل (الخرفان)؟
والأعمى يقودك من قرون إلى لا طريق
إن الأرض وجسدها يلخصان موتك

وهـل من حـلّ؟! يُكـثر أبـو رحمة في نصـ (الأكيد) من: ربما .. ربما ... وفي نص (الـوردة موجـز الحديقة) يأخـذ الشهيد أو القائـد رمز المسيـح المخلص في حالات استغـراق ميتافيزيقي خاص بـه، يتخلله حضور الوعي واللاوعي الجمعي، بين الأنا والنحن، مخاطباً أرضه من خلال رؤياه:

مات لكنه قام فينا

احفظنا.. وامكث فينا مسيحاً دافئاً..

أتوضأ بعرق جبينك، وأقيم صلاة الغائب

على روحك الحاضرة

وأدعو الشجر إليك.. وبك

ألمحك تصعدين درج الكاتدرائية

تمرغين خبزك بالنبيذ الإلهي

وتمررين أصابعك على رؤوس الأطفال

وغير ذلك فهـو، يكاد ييئس من واقع الشعراء وادعاءاتهم النحيلة:

أرواحهم مخدوشة

وقمصانهم معلقة

سماء الشعراء أظلمت!..

وفي نصـ (رجـال) تراهـم مستهلكين كفزاعـة مهـزوزة، وعلى شفاههـم نبرات مهزومة، وعلى الرغم مما يعانيه أبو رحمة فإنه يلتزم بقضايا مجتمعه، فهذا نص (الوقت الإضافي) يسرد مأسـاة امرأة عانس تنتظر رجل الخيـال بعدما رفضت رجالاً عدة، ولم يبق لديها إلا فرصة الوقت الإضافي المعلقة على سارية الأمل بين الرياح.

والسرد في هذا النصـ تقرير الوجدان في حيرة الإنسان بـين نسبية الوعي المغرور وكليّة القدر الغامضة:

والآن تجلس أمامي في المكتب

وقد اضمحلت../ هي الآن تريد ولداً

أقصد زوجاً/ في الوقت الإضافي

من شوط عمرها الأخير!..

وفي نص (حقيبـة هاربة) لم تله ذكريات الطفولـة ومراتـع الأحلام أبـا رحمة عن التزامه بهمـوم اللاجئين فـإنَّ هذا النص يصـوّر مأساة زوجـة وأطفالها الزغب، في عاصمـة عربية حيث تزوجها رجل وأنجبت منه طفلين في حلم الاستقرار، ولكنه هجرها بمزاجية الثري الجاهل، وما أكثر أشباهه:

وكما يخترع الشاعر قصيدة

اخترعت جواز سفر/ وعادت وفي قلبها بياض شاسع

في غضبها الذي أضاعها/ في عاصمة عربية

وللخيـال الإنسـاني أن يتملّـى السطر المأسـاوي الأول في تناصـ الشاعر مع هذه المـرأة. والقصيـدة هي مأسـاة تراجيدية مستمرة لتجـارب تختلف في أزيائها ولكنها في العمـق ذات دلالات مرة على وضع المرأة العربية عامـة واللاجئة خاصة، مع كائنات تنتـج التخلّف، وتتوارث أقنعة القيم لترسيخ محنـة الإنسان بأخيـه الإنسـان، وتذكرنا

بفلسفة اللامنتمي والوجودية والعبثية، كما يبرز كثيراً من قصائد نزار قباني.

وفي نص (جنازة عصفور)، نجد مشهدية الحلم المصادر، فالسماء الفسيحة رمز القيم النبيلة وفضاء الحرية في ظهيرة تاريخ الشاعر الإنساني في أفق ذكرياته ينتشر شذى أغنيات لشاعر غريب يرقب تأويل حلمه قبل استحكام الظلام، وتمر الأيام فارغة من المعنى عارية من الوصف حتى آخر الأسبوع، رمز الزمن المتكرر لعمر يمضي في شُبَه واشتباه، وإذا بالحلم تحمل جنازته ميتاً أحلام أخرى مازالت قيد التأويل، تمارس في الواقع دفن موتاها وفي الخيال التحديق في الفراغ، إنَّها الأحلام المصادرة في عالم يدعي الإنسانية.

هذا، وإنَّ نص (لوحة) يعتبر رؤيا فنية في تبادلية الفن بين اللوحة وهي رؤيا الرسام، والقصيدة وهي رؤية الشاعر، ولذلك يمكن لقارئ هذا النص أن يضع كلمة لوحة مكان كلمة قصيدة، وكلمة قصيدة مكان كلمة لوحة، وتكون النتيجة واحدة في متعة التواصل مع النص، والدلالة على أهمية ذلك الخيال الفسيح لأبي رحمة، واستلهامه لأشكال الفنّ في وحدتها الأولى.

صحيح أن ما يسمّى بقصيدة النثر يعتوره في ساحة النثر كثير من التيه والضباب والهذر وضعف التوتر ونمطية التكرار، غير أن هاتين المجموعتين محاولة صادقة في تلمس إيجابيات النثرية الشعرية، وما يسميه الفيلسوف الفارابي (القول الشعري)، وقد نرى نصوصاً في الساحة الأدبية يتلبسها غموض واضطراب من نوع ذلك التوجه لوعي الذات وانتمائها في عالم يتسم بالغموض أحياناً وبالزيف أحياناً أخرى، وتلك مأساة الشاعر كما أنَّها شفيعته في بعض تمرده على صيغ من اللغة كانت كالمساحيق لتماثيل الشمع، وأراني أتوحد مع أبي رحمة في هذه المشهدية.

سماء الشعراء أظلمت
كنت أرى القرى تنهمر من صرر النساء
في كل صرة قرية
وفي كل قرية فلسطين

هذا، وإن فلسطين التي لم تبرح مخيلة الشاعر، ولم تغادر قصائده لحظة واحدة، كما هي دائماً في قلوب وعيون وقصائد الشعراء الأوفياء والمخلصين، ستبقى الأمل، وتبقى قبلة المجاهدين إلى أن تعود حرَّة بإذن الله، إلا أنني أمام المشهد الحالي، وما يتخلله من صور قاتمة، ومن خلال حبي العارم لفلسطين، أهتزُّ رعباً من أن تكون هناك فلسطين أخرى؟!.

قراءة في «التفاح الأزرق» لـ د.إياد ناجي

ماجدة الرحيباني *



رواية (التفاح الأزرق) هي الرواية الحادية عشرة للأديب الشاب الطبيب اياد ناجي وقد صدرت في أواخر عام (٢٠١١م) وتقع في (٢٠٣) صفحات موزعة على ثلاثة وثلاثين مقطعاً سردياً يتضمن آخرها خاتمة الرواية.

ومما يلفت انتباهنا في هذه المقاطع أنها متساوية تقريباً مما يدل على أن الكاتب قد خطط مسبقاً لما سيقول، وربط الأحداث بقوة وسرعة ببعضها، كما عرف بالشخصيات بتساوٍ وكذلك فقد طرح الأفكار التي ستعالجها الرواية بوضوح.

تدور أحداث الرواية في حي شعبي

* نائدة وكاتبة.

قديم من أحياء دمشق وقد دوّن الكاتب على الغلاف الأخير للرواية هذه العبارة ((الخطوط العريضة لهذه الرواية مستوحاة من حياة بول سيزان)).

فماذا عن الخطوط الدقيقة في الرواية؟ مجموعة أحداث متحققة أو متخيلة ولكن لا تخرج عن حدود الإمكان، تتشابك بحرفية وبراعة مع الأشخاص الفاعلين في الرواية بتصاعد وتسارع إلى أن تبلغ الذروة وتنبئ عن الفكرة التي قصد إليها الكاتب وهي.. أسرة في حي الميدان كان الأب «حمدي» قد جاء إليه في صباه من إحدى القرى البعيدة ليعمل أجيراً لأحد الحذائين، ثم اشترى المحل الخاسر مما جمعه من جهده وتقتيره، وصار يصلح الأحذية ويصنعها، ومن ثم افتتح ورشات صغيرة لصنع الأحذية وبيعها، ورغم كل ما جدّ في حياته لم يكن يُعرف بالحي سوى بـ (الصرماتي).

كان متسلطاً يثير النكد لأسرته، والغريب أنه في الوقت نفسه كان متحرراً من قيود المجتمع والدين (ص٨ من الرواية) ثم اشترى منزلاً فسيحاً بالميدان له حديقة. فالأب «حمدي» إذاً أحد أفراد الطبقة البورجوازية الصغيرة التي نشأت في سورية في تلك الآونة، وهو يمثل الشخصية السلبية من هذه الطبقة.

في البيت الجديد الفسيح نشأ الفتى «نزيه» وأخته كان نزيه يعاني من صياح أقرانه به: إنك لست من دمشق أنت - دخيل- ولكنني ولدت في الميدان، وبذلك يبدو أثر المكان قوياً، بيئة التمسك بالتقاليد والنسب كما هي بيئة القيل والقال والتي امتدت إلى عالم الأطفال البريء، فيزيدون بذلك على معاناته من مشكلة أنه غير جذاب يعيرونه بحذائه المثقوب فأبوه على الرغم من جريان المال في يده، وعلى الرغم من كل ما أصبح يملك تجاهد الأم في سبيل تخصيص راتب شهري لابنها فيما بعد، وكذلك يفعل الابن عندما يطرده الأب خارج المنزل ويكثر الدائنون (البقال واللحام) يلوذ بأبيه فيخيب أمله.

وهكذا أفلح الأب بتسلطه وجهله لأبسط أمور التربية أن يشوه شخصية ابنه «نزيه» وبدا هذا التشويه واضحاً في مرحلة اليفاع والشباب فأصبح ذا شخصية غير متوازنة -يلازمه الارتباك- ويعاني من سوء التكيف مع المجتمعات بل ويؤثر العزلة، والأب لا يوفر فرصة إلا ويدعوه باستمرار للعمل معه في الأحذية ولا يعرف الابن كيف يرد على هذا الطغيان إلا بضرب قدمه بطرف البحرة زاعقاً في غيظ (ص٢٠ من الرواية).

وقد رمى الكاتب من وراء ذلك إلى دور

التربية الهام في مرحلة الطفولة بتكوين شخصية الفرد.

أمَّا أم (نزيه) فكانت طيبة مطيعةً محافظة جاهلة، تتفانى في خدمة زوجها وأولادها، ولكن لم يكن ليسمع لها رأي، ولم تكن تجرؤ على اتخاذ قرار، ترى ابنها يتعذب وهي ساكتة ولكنها تتعذب أكثر منه فكيف لو علمت أن ابنها يبقى في المدرسة منبوذاً منتحياً جانباً من الباحة على حين تمر به أرتال من الطلاب الذين يمرحون ويلهون..!؟

وبينما هو على هذه الحال لاحظ منبوذاً آخر شاباً طويل القامة حزيناً وظهره إلى الحائط، كلاهما في الصف الخامس ولكن بشعبتين مختلفتين اسمه «حبيب» يناديه أقرانه (مدلل أمه) وهنا يبدو خط عريض مميز في الرواية فنزيه يمثل بول سيزان الرسام وحبيب يمثل صديقه «إميل زولا» الكاتب ومن هنا بدأت رفقة الطالبين فاستبشرت أم نزيه خيراً في صديق لابنها، بينما زارت أم حبيب الوافدة حديثاً إلى الحارة بيت «أم نزيه» لترى أي الأفراد يعاشر ابنها، وهي متعلمة قوية الشخصية تشجعه على القراءة وملازمة الكتب فيبدأ مبكراً بقرض الشعر وكتابة القصص (ص١٨-١٩ من الرواية).

ويمضيان في دروب الحياة فيغدوان شابين وأقرب صديقين، وبعد نيلهما الثانوية يدخل حبيب في كلية الآداب طبعاً بينما يبدو تسلط أبي «نزيه» عندما أجبره على كلية الحقوق متخيلاً نفسه في الحارة (أبا المحامي).

وتفترق دروبهما فيزداد «حبيب» وسامةً وتألقاً وطولاً، بينما يبقى نزيه على طوله ويزداد سمنةً ويبدأ بالصلع سريعاً ولازمه الحزن والكآبة في كلية الحقوق، وأصبح شديد الحساسية يعذبه شعورٌ غامض بالرغبة بإبداع شيء.. لكنه لا يعلم ما هو كبر عذابه، وزاد ألمه إلى حد التأزم الذي دفعه ليلقي قنبلة في اعتزامه ترك الحقوق التي لا يحبها.

وكان قراراً سريعاً عندما ألقى بقنبلة أخرى إذ قرر أن يصبح رساماً (ص٢٧ من الرواية)، فرد الأب ذلك لجهله - إلى شماتة أهل الحي- استجمع (نزيه) شجاعته وتقدم لامتحان القبول في كلية الفنون الجميلة وبعد انتظار قاتل وعزوف عن كل شيء وصلت الرسالة التي كانت محبطة لآماله، وكان فشلاً ذريعاً فانتصر الأب وقال: المحل مفتوح لك دائماً، وكأن القضية في أن يعمل الشاب أي عمل وليست في ماذا يعمل آخذاً بالاعتبار رغبته التي تقوده إلى النجاح.

في مركز الرسم الخاص وفي الدرس الأوّل لم يكن يعرف كيف يمزج الألوان

فاضطرب وتوتر، وفي الدرس الثاني انتحى أبعد زاوية وتسلل إليه رعب بارد وهو يترقب الموضوع المطلوب رسمه وكان: زهرية فيها ورود بيضاء خلف ستارة زرقاء عجز عن تجسيد طيات الستارة المعقدة، وكان الأستاذ مهذباً يقف خلف «نزيه» ولا يعلق إلى أن قال له بلطف:

أتحاول الرسم على الطريقة التكعيبية ولم يدرك «نزيه» إلا بعد عقد من الزمان أن الستارة افتقرت للفراغية والبعد الثالث.

ألفى «نزيه» نفسه منجذباً إلى الرسم بقوة، يرجو أخته الصغرى ويرشوها لتجلس أمامه للرسم، وقد توجه له كلمات جارحة في نهاية الجلسة (ص ٤٧ من الرواية) وبعد فترة تزوجت وسافرت بعيداً.

طلب منهم الأستاذ رسم دالية العنب في حديقة المركز فيحاول ويفشل ويحبط فيركل اللوحة وحاملها ويسرع بالخروج غاضباً (ص٥٤ من الرواية) أمَّا «حبيب» فقد زاد تألقاً وظهوراً في المجتمع وألف مع مجموعة أدباء نادياً كان نزيه يرتاده أحياناً وكثيراً ما يغضب بعصبية إذا خالفه أحدهم في الرأي فينظر الجميع إلى «حبيب» يلومونه على دعوته له.

ورأى الأب لمرتين متتاليتين ابنه «نزيه» يرسم مناظر للعري البشري على مرأى من أخته فجمع الألوان وقال لا رسم بعد اليوم في بيتي، وحاولت الأم مناقشة الموضوع مع الأب الثري الجاهل والقارئ يلهث معهم لإيجاد حل فرجَتْهُ أن يعطيه مفتاح أحد مستودعات الأحذية وأقنعته لاحقاً لتخصيص مبلغ ٢٠٠ل شهرياً لنزيه الذي طرد من البيت، وزاد الطين بلة أن نقل إليه «حبيب» خبر فوزه مؤخراً بجائزة أدبية فتفاقم الضغط على أعصابه وزاد من إحباطه ورغم ذلك تابع تعلم الرسم في المركز، وزيارة النادي الأدبي حيث تعرف على فتاة رائعة الجمال جريئة، قوية الشخصية، شجعته على مبادرتها بالكلام وكأنه لا يريد أن يفوت فرصة سانحة فاتفقا على زيارة النادي الخميس القادم ورأى في «ليالي» نمطاً مختلفاً عن نساء الميدان اللائي ألف. وكان يستشيرها فيما يرسم فقالت الطبيعة. وفي أحد البساتين فاجأته مع «حبيب» وهو يرسم فتلقى الطعنة الحادة عندما رآهما متمددين إلى جانب بعضهما على الأرض وردد بداخله (اللعنة.. اللعنة) كانت تداعب «نزيه» وتمسد لحيته وكانت المفاجأة أن رآه كل من في النادي أنه حليق أملس.

ثم فاجأه في غرفته وهي تقول أحضرت لك سلة فاكهة من مزرعتنا لترسمها ولاحظ أنها اكتشفت كل شيء في لحظة.. شبقه وفقره المرقع والفوضى ولكنه لم يعد بعد

اليوم إلى رسم العري إذ شغله الحب عن الشهوة وواظب على حضور النادي يومياً، وأصبح يخرج إلى البساتين ورغم البرد ليرضيها ويحقق اقتراحها عليه رسم الطبيعة ثم يفاجئها بأنه رسم لوحةً تمثل سلة الفاكهة التي أهدته إياها فتسخر من ألوان الفاكهة التي تغيرت بفعل الزمن، ثم تنظر إليه في تحبب: أنت لم تتوقف عن إدهاشي فشكراً لك (ص٧٩ من الرواية).

أكسبه الحب قوة دفع هائلة جعلته يدور على صالات الرسم عارضاً أعماله راجياً أن تُعرض، وقد قابلوه جميعاً بالرفض (ص٨٩ من الرواية) وفي اليوم التالي أعلن «حبيب» في النادي فوز إحدى لوحتيه لتعرض في المتحف الوطني، كما أعلن خطوبته على «ليالي» رسمياً، وكانتا ضربتين موجعتين تلقاهما «نزيه» معاً.

تمدد على سريره مع مشاعر الحزن والغيرة والغضب والكآبة والغثيان، وراح يرتعد من دون توقف زارته أمه فهالها أن يحدث نفسه بصوت عالٍ فأمضت عنده أسبوعاً كاملاً تحضنه وترعاه.. ولا أبلغ من العبارة التي لخص بها الكاتب شخصية «أم نزيه» بل والأمهات جميعاً (لا خوف على من له أم) (ص٩٠ من الرواية).

وبدأت روحه الأدبية المكابرة تفكر بطريقة للعودة إلى النادي الأدبي والتظاهر بعدم المبالاة، ولكن ظلت مشاعر الحسد والحزن والغيظ تغلي داخله من دون توقف حتى شارف على الجنون، ومع ذلك لا مهرب من زيارة العروسين للمباركة بعد انقضاء شهر العسل فتوجه حاملاً هدية زواجهما لوحة سلة فاكهة- علقت «ليالي» بتعليق لطيف: ((تعجبني ألوانك أيها الصديق)) «وغص نزيه» بالامتنان غير المتوقع وحين عاد إلى البيت فوجئ بتحسن في مزاجه (ص٩٧ من الرواية).

وهكذا خطا أوّل خطوة في طريق سلواها، ولم يلاحظ آنذاك أن طباعه سيكسوها من الآن فصاعداً مرارة عميقة تقترب من الحقد على كل شيء.. الظروف والحياة والناس.

وعادت «ليالي» إلى طبعها الحقيقي في عدم اكتراثها بمشاعر الآخرين، وغدت حمراء الوجه، بدينة، وتوقفت عن التردد إلى مركز الرسم أو الأمسيات الأدبية ويبدو من هذه الشخصية التي عبرت حياة «نزيه» وخلفت عنده المرارة أنها لم تكن تقصد سوى الحصول على فارس أحلامها وقد أفلحت وليذهب الرسم والأدب بعد ذلك إلى الجحيم جمع «نزيه» عشرات اللوحات وعرضها على الصالات فقوبلت جميعها بالرفض ولك أن تتصور ما أصابه من جرح جديد لكرامته.

توفي الوالد فجأةً.. وكان شعور «نزيه» مزيجاً من الحذر والذهول والترقب، فأطرق في العزاء مرتبكاً مدركاً أن الجميع يرى فيه مثالاً للفشل، وامتدت جذور شخصية الأب السلبية لتنبت بوضوح في شخصية البنت الكبرى «هبة» العانس النكدة المتسلطة، كثيرة اللوم والتقريع حتى إن «نزيه» لم يجرؤ على مواجهتها بشأن الإرث:.. بيت العيلة لي فقد ولدتُ فيه، وقضيت عمري أخدم سكانه ولن أخرج منه إلا على جثتي، وآخذ معه محل الأحذية في الحميدية، وأنت تأخذ بيت (حي المزرعة) وبستان الغوطة.

ألحت عليه بضرورة زواجه إذ بلغ السادسة والأربعين، وحملت صورته ودارت بها على بيوت فتيات الحارة اللائي كن يصبن بالذعر لسنه وشكله وأخذت الأسر يُسمعنها كثيراً من الأقاويل عنه فكانت النتيجة أن أعلنت فشله في هذا الموضوع قائلةً: هيا لنعش حياتك كفنان (ص١٤٦ من الرواية).

وفي النهاية قاطعها لأنها استعملت لوحاته الباقية عندها في منزل (العيلة) حطباً (ص١٩٩ من الرواية).

وإلى جانب شخصية الأخت شخصية أخرى سلبية في الرواية «رئيفة» الخادمة التي كانت ترد إليه مرةً في الأسبوع لتنظيف بيت «المزرعة» الذي سكن فيه فيحس نزيه في ذلك اليوم حياةً وحركةً وأصواتاً بدل الصمت المطبق والفراغ الموحش فعرض عليها الزواج قالت سأفكر وبدأ منذ اللحظة ابتزازها له. فقد تعمدت الانقطاع عن المجيء أسبوعين متتاليين لتعلق قبولها بشرط أن تكون إقامتها بين دمشق وحلب حيث أهلها وعقد الزواج في المحكمة وهو على مشارف السابعة والأربعين.. وهي في الثالثة والأربعين وتابعت ابتزازها فكانت تقضي أكثر الأسبوع بحلب لتعود يومين إلى دمشق وراحت مَنْ كانت خادمة تشتري أغلى الأقمشة وأندر المجوهرات، وكلما عاتبها برفق على غيابها تذكره بشرطها أنجبت صبياً وأصبح غيابها معه في حلب يطول ويشتاق الأب لابنه ويكثر من المكالمات ويحس بأنه يشحذ الحب، ثم عندما عادت إلى العاصمة عرض عليها أن تجلس أمامه ويرسم لها (بور تريها) وسال لعابها للمال الذي كان وحده سبب الزواج (ص١٦٩من الرواية).

في النادي الأدبي (قبل القطيعة بين الصديقين) تطل شخصية هامة تغير مجرى حياة «نزيه» وفنه وهو رجل متوسط العمر نحيل يخفي صلعته بقبعة بدأ النقاش بينهما بشأن لوحة الفاكهة المعلقة من عام ولم يلحظها أحد (ص١١٠ من الرواية) يستنكر الرجل كون التفاح أزرق اللون فاستُفز «نزيه» ودافع

عن نظريته اللوحة مملكتي وفضائي وأنا حرٌّ بها ومضى. فإذا بالغريب يبحث عنه ويلحق به ويقول: لا تبتئس إن لوحتك تحرض التفكير وتطرح الأسئلة وعرفه بنفسه: أنا الناقد الفني «فاروق جرادة» أعجبتني لوحتك ولولا إفلاسي لاشتريتها.. معجزة «لنزيه»: ناقد فني حقيقي يمدح عمله؟! (ص١١٣ من الرواية) وأهدى اللوحة للناقد، ومن هنا غدت نقطة الضوء الوحيدة في ظلام التجاهل هي الأستاذ «فاروق جرادة» «إذ تابع نقد أعمال «نزيه» ببساطة وصراحة وصدق وتشجيع مستمر ليس بالكلام وحده بل بالفعل الإيجابي وأخبره أن تفاحاته الزرق استقرت فوق سريره، وباع له الناقد لوحة (حقل وأبقار شامية) وبالحوارات المتتالية بينهما امتلأ «نزيه» ثقة بالنفس، وكان يحثه على تطوير فنه وأن يرسم أشكاله الخاصة كما هي في عالمه وكوكبه البعيد (ص١٣١ من الرواية) فقدم له نزيه لوحةً ضخمة قائلاً: هذه مهداة لك ولكل من يستعمل سلطته بنزاهة، وقاده الناقد إلى الأزقة والمقاهي الشعبية ليرى الناس يسعون بشقاء وراء رزقهم وقصد بذلك أن يعرفه الحياة على حقيقتها وأنه محظوظ بالنسبة لغيره (ص١٣٥ من الرواية) ونتيجة ذلك رسم «نزيه» لوحة تمثل رجلاً متعباً على الأرض سماها (الحرمان) وأخرى للاعبي الورق باسم (الأقدار) وقيَّم الأستاذ جرادة اللوحات الأخيرة بأنها مثيرة للاهتمام كما اتفق مع صاحب غاليري (الأزمنة) أن تعرض لنزيه ست لوحات في معرض مشترك مع خمسة فنانين آخرين.

من الواضح أن «حبيب» رفيق الطفولة واليفاع والشباب قد استثمر وسامته وحسن تكيفه مع المجتمع وسرعته في التقرب إلى الناس في تكوين شهرته سريعاً سواء في الأدب إذ حظي بجوائز قيمة آخرها مكنّه مع زوجته الغنية من شراء بيت فاره، وفي الرسم إذ فازت إحدى لوحاته وعلقت على جدار المتحف الوطني.

وقد بقي على صلة وثيقة بـ «نزيه» الذي كان يحضر (النادي الأدبي) باستمرار وعندما ينفعل أحياناً بغضب وعصبية ويلوم الحضور «حبيب» على دعوته، بل ويدافع عنه ويرفض التخلي عنه فهو رفيق الحارة والمدرسة.

ولكن «حبيب» هذا المتطلع دائماً إلى التألق والشهرة ألف كتاباً سماه «النكرة» أثار ضجة عند المثقفين وفاز عنه بجائزة لم يهد «لنزيه» إلا بعد إلحاح الأخير، وإذا قرأه رأى صورة مطابقة لشخصيته في عدم التوازن والارتباك وسوء التكيف مع المجتمع (ص١٢٤ من الرواية) فحزن وعانى وتألم

وكانت القطيعة «لحبيب» وتجنب اللقاء به (وهذا خط عريض في الرواية من الخطوط التي أشار إليها الكاتب على الغلاف) إذ إن الكاتب إميل زولا كان أيضاً قد ألف كتاباً في شخصية صديقه الرسام بول سيزان بالموضوع ذاته.. وأرسل «نزيه» رسالة إلى «حبيب» مؤثرة جداً يصفه بالغدر والانتهازية فقال لزوجته: لقد خسرت صديقي.

وقد فاجأه الأستاذ جرادة بأن كتب مقالاً بعنوان (رد اعتبار) قائلاً عنه: فنان فريد ولغز علينا أن نحل رموزه فنان يرسم الأشياء بأشكال وألوان مختلفة ربما يريد أن ننظر إلى الأشياء من زوايا جديدة وظلال غير معروفة أنهى «نزيه» قراءة المقال وهو في قمة الانفعال والاضطراب (ص١٣٩ من الرواية) فقال للناقد: هزني مقالك من الأعماق وحتى آمنت أخيراً بنفسي وقد تعمد الناقد إهداء «حبيب» نسخة من المقال.

كان «نزيه» يتقدم بالسن سريعاً بفعل السكري والإحباط والكمد، ويؤلمه أن يخاطب المارة ابنه ابن الخمس سنوات: هل هذا جدك؟ فيفكر بداخله في حظه بالزواج متأخراً، ثم أقنعه الأستاذ «هائل» (وهو ناقد فني آخر له فضل وتأثير كبير على نزيه) بإقامة معرض في أفخم صالة عرض، ورغم فشل المعرض تجارياً فقد أحدث ضجة وجدلاً حاداً بين النقاد وبذلك تحمس الناس ولاسيما الشباب منهم للوحات الغريبة، وانقسم النقاد بين تقليديين متمسكين بمبادئ المنظور بينما رماه بعضهم بالبورجوازية وهذا ما آلمه كثيراً وظل مكتئباً مرتبكاً ثم نظم له الأستاذ «هائل» معرضاً خاصاً بثلاثين لوحة، استوقفت لوحة بلونين فقط الرمادي والأخضر أحد السفراء السوريين ودفع ثمنها قائلاً: أنت فنان عبقري طبيعي، وعاد السفير في الصيف التالي لشراء مزيد من أعمال الفنان: وهكذا فالشهرة قادمة، ويرغب الكثير في اقتناء لوحاته، ويكلف بإنجاز جداريات المطاعم ومكاتب النقابيين وكان من بينهم الصديق والعدو، وعندما بلغهم أن الأعمال التي اشتراها السفير السوري عرضت في المهجر بمزادات عالية وبيعت بأسعار خيالية تحولت لهجتهم فجأة.

وقد أحسن الكاتب عندما جعل «نزيه» يحمل قصاصات من جرائد ومجلات وشيكات قبضها، ويقصد قبر أبيه ويلقي كل ما حمل فوق القبر بصوت متحشرج: انظر يا أبي، أما زلت مخيباً آمالك، أما زلت فاشلاً، أما زلت لا أجيد شيئاً ولا أصلح للرسم، ليتك كنت حياً لتؤمن بي وترى بأم عينيك.. ولكن للأسف لم ولن ترى هذا أبداً.

زاد عليه المرض، ودخل المشفى وخرج من دون اكتراث من رئيفة وتركها له مع ابنها

وبقائها غالباً في حلب.. ثم أصيب بالقدم السكرية ونصحه الأستاذ «هائل» باستشارة طبيب فأجابه أنني انتظر رداً على رسالتي لابني للقدوم في الربيع ولكن «رئيفة» كانت قد أخفتها بحذر وانشغلت بشراء فساتين جديدة، وابنه «أنيس» يتمشى في العزيزية مختالاً بينما الأب في دمشق تضربه حرارة عالية وحيداً في سريره فيما عيناه معلقتان على الباب ينتظر وينتظر بابتسامة شوق وحين وصلا كان قد فارق الحياة وغدا جسده بارداً.

لم يحدد الكاتب زمن الرواية ولكن من سياق الأحداث وتعليقات بعضهم على المعرض الأخير بقولهم: «لقد طلع علينا فجأة ابن تاجر «الحريقة» بجرعة مكثفة من الفن البرجوازي الساذج.. ذلك الفن الذي هجرناه في الخمسينيات مستعملاً -ربما- سلاح المال والعلاقات ببال فارغ من دون أن يُلمح في لوحاته ألم الفقراء ولا كفاح العمال أو الجنود.. لقد اعتمد على مال الأسرة إذاً فتأريخ أحداث الرواية هو النصف الثاني من القرن العشرين ولقد حافظ الكاتب على التناسب والتناسق أثناء سرد القصة وبقيت الحوادث تُتابع بانسياب بعيداً عن التكلف بأسلوب سلس. وموضوع الرواية ورد على لسان بطلها «نزيه» حين قابله هاو اسمه «جورج» دفعه إليه الناقد «هائل».. تتحنح الشاب- أنا لست رساماً.. وليس عندي ذرة موهبة.. ماذا تعني؟.. ليس ثمة إنسان غير موهوب وليس عليك إلا العثور على الموهبة المدفونة... إن أنت أحببتَ الرسم فارسم، وإن أحببتَ الأدب فاكتب... الأمور الجميلة متاحة للجميع وليست حكراً على أحد (ص١٩٢ من الرواية) فالموضوعات كثيرة وقد لا تكون جديدة ولكن الشيء المهم هو طريقة الكاتب في علاج موضوعه وتجليه ومقدرته في رسم الشخصيات، وتوغل الكاتب في صميم التجربة التي كتب عنها وتصوير صراع الشخصية المرير مع القدر والمجتمع والبيئة، يضاف إلى عظمة الموضوع وأهميته الأسلوب الحامل له عبر تقنيات السرد التي تفرض فنيتها على القارئ وتسيطر عليه طوال تناول المسرود بلغته السلسلة البسيطة والمرتكزة على الخلق والإبداع عند الكاتب مضافاً إلى ذلك الصدق في التعبير.

وقد تعاطفنا مع شخصية «نزيه» حزناً لحزنه وتألمنا لألمه، وتأثرنا بالصدمات المتتالية في صراعه الذي مازال يتصاعد ويتأزم وأصبح الموضوع كأنه قضيتنا ففرحنا لبدء انفراج أزمته رويداً رويداً ثم أحسسنا بالفخر لنجاحاته المتتالية ومعارضه الكثيرة وكثرة تناول النقاد فنه في الصحف والمجلات..

في أسلوبه كثير من مواطن الجمال تأتي

أحياناً من الإيجاز والبلاغة كقوله: لا خوف على من له أم.

وأحياناً على الخيال كقوله: لقد أحال الحب الفاشل قلبه إلى حطام وأشلاء.. واستحالت خلاصة عواطفه زجاجاً مطحوناً لا شكل له ولا قوام.. وسياق بعض العبارات المؤثرة في المكان المناسب كقوله: توفي الوالد صباح اليوم التالي.. كعادة القدر في لطمه كلما تجرأ على الفرح وكقوله وكأنه يرسم لوحة من لوحاته:

كيف يمتزج في ماء النهر لون السماء مع لون الأسماك الخضر مفرزاً عدداً لا يحصى ولا يسمى من الألوان والدرجات

وأحياناً يورد جملة في موضع الحكمة: كلما سقطتَ أدنى كان صعودك في النهاية باهراً: عبارة بليغة ومؤثرة وردت على لسان الناقد في سياق تشجيعه للرسام «نزيه» إثر إحباطاته المتتالية وفشله الذريع وإخفاقه في شد الجمهور إلى عالمه الخاص في الفن ويقصد بها أن الإنسان لا يصل إلى مبتغاه إلا بالعزيمة الجبارة والإرادة القوية، والصبر الطويل وتحضرني هنا أقوال في الموضوع ذاته مما تقدم في أدبنا الرفيع:

فما انقادت الآمال إلا لصابرِ

لأستسهلنّ الصعب أو أدركَ المنى

وفي مطلع قصيدة للمتنبي مادحاً سيف الدولة:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

وتعظم في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظائم

فرانز كافكا
انطلق إلى نور العالم من كهف مظلم

عبد الباقي يوسف ✪



ما يميز تاريخ فرانز كافكا الأدبي هو أنه عاش حياته القصيرة في عزلة شبه تامة عن العالم، وحتى عن المجتمع والمقرّبين منه.

استطاع فرانز كافكا أن يبني عالمه الروائي لبنة لبنة بخصوصية رسّخته كأهم روائيي العالم الذين تركوا أثراً في مختلف الأجيال الروائية من بعده.

يُعد فرانز كافكا من أبرز الأدباء الذين شيّدوا إمارة الغموض في الأدب، وعندما نتحدث عن ظاهرة الغموض، أو عن الأدب السوداوي، فلا يكون لنا ذلك إن تجاهلنا

✪ أديب وناقد وقاص.

العمل الفني: الفنانة رناء كريدي.

إبداعات هذا الروائي الذي استطاع أن ينفذ بقوة إلى حلكة الظلام، ويوظف أفكاره من خلال تلك العتمة الحالكة.

نزعة التشاؤم

أيام البؤس والشقاء تحرّض على الخلاص وتولّد نزعة غامضة في النفس.

لاحياة مع الحرمان ووخزات الألم، تتحول الحياة إلى جحيم حينما يسخر الجميع منك، أنت وحدك، ولأنك مريض، لأنك متواضع، لأنك لست جشعاً يُنظر إليك كحشرة غير مرغوب فيها.

إنَّ المجتمع يرفضك، ومن الطبيعي أن تبادله هذا الرفض، تسخر منه بطريقتك الخاصة، وتصبح شاهداً على سلبيته وعنجهيته، وتشعر بإحراج كونك تعيش معه في فترة زمنية واحدة.

ولأنك إنسان تقبل أن تكون الضحية، وتندفع نحو الموت اختصاراً لمزيد من الحرج الذي يسببه لك عيشك في عمق هذا المجتمع الذي يرفضك، وتبادله هذا الرفض. لاشيء يبعث على الأمل بهؤلاء، وأنت إلى متى تعيش في قاعك المظلم، عليك أن ترقد ولاتفتح عينيك إلى الأبد، لاشيء يستحق أن تفتح عينيك من أجله. لقد لوثوا حتى الطفولة التي كنت تعقد آمالاً عليها.

أي قسوة هذه، لم يتركوا شيئاً، لقد أصبحت محاصراً من كل الاتجاهات، حتى هذا البيت اللعين أصبح سكانه -أقرب الناس إليك- يمقتونك ويودون التخلص منك بأي شكل.

في مذكراته البائسة إلى صديقه ماكس برود المؤرخة في ١٣ ديسمبر عام ١٩١٤م يضيف كافكا الملاحظة الآتية إلى جملة مذكراته:

«لقد نسيت أن أضيف، وتقصدت هذا النسيان فيما بعد، أن خير ما كتبته له دوافعه في قابليتي لأن أستطيع الموت مسروراً وفي جميع هذه المقاطع الجيدة المتسمة بالإقناع القوي، كان المقصود على الدوام شخصاً يموت ويجد أن الموت صعب، وأنه ظلم، أو على الأقل نوع من القسوة يقع عليه، مما يجعل ذلك في رأيي على الأقل يؤثر في القارئ».

أما بالنسبة إلي، أنا الذي أعتقد أني سأكون مسروراً على سرير الموت، فإن مثل هذه الأوصاف لا تشكل أكثر من لعبة خطيرة خفيفة، لهذا السبب أستغل بدقة انتباه

القارئ المركّز على الموت، فأنا في حالة فكرية تفوق صفاء، وأحسب أنه سيشكو على سرير الموت أمّا أنا فشكواي ستكون، والحالة هذه، أكمل شكوى ممكنة لأنها لن تتفجر في فجاءة الشكوى الواقعية. بل ستتم في جو من الجمال والصفاء.

واضح أنّ فرانز كافكا كان حقاً يعيش الموت منذ اليوم الأوّل من ولادته.. لقد تخلى عن الحياة كلها.. وكان بمقدوره أن يستمتع بملذات الحياة لو شاء ذلك ولو لم يعتبر نفسه ميتاً ومن هذه النقطة تبدأ عظمة كافكا وتبدأ عبقريته أيضاً وقد تكون هذه النقطة مصدر سعادته أيضاً فهو كما سبق يعيش من دون أي أمل وذلك خير نمط للحياة.. وهو سعيد ليست تلك السعادة بالمفهوم المتعارف عليه ولكنها سعادة لا يتذوقها إلا كافكا وحده.. إنّها النكهة التي لا يتذوقها إلا من بلغ به الحزن ذروته ومن توصل إلى قمة الضياع واللاجدوى هذه هي أرضية كافكا التي ينطلق منها. هذه هي ثقافته. وهو، كما يتضح، قارئ سيّئ وكسول وعلى الأغلب يكتب أكثر مما يقرأ.. وليست ثمة مقولات أو شواهد تستحق أن تشير إلى أنه كان نهم القراءة.. كما أنه لم يتأثر بكاتب من قبله وما نستنتجه من إبداعات هذا الروائي الكبير جداً هو أنه على اطلاع جيد بالعهدين القديم والجديد وهذا ما وفره له جو البيت بسبب تدين والده وعليه فإنّ معظم أعمال كافكا تطرح موضوع الموت من منطلق ديني.. إنّه على الأغلب يبحث عن الإله الذي لا يشك بوجوده ولكنه لا يراه.. يبدو ذلك في قصة «المحاكمة». وليس هدفنا أن نقدم شرحاً موسعاً للقصة لكنها باختصار تدل على قلقه على مصيره. لذلك يبحث عن الحقيقة بالكتابة.. بالكتابة فحسب وليس بالقراءة..

«الكتابة» التي تريه مشهد الموت وتكشف أمامه بعض الألغاز.. إنّه يتعامل مع الموت بدقة مذهلة إنّ الإشارة الأولى لبداية المعرفة هي الرغبة في الموت.. فهذه الحياة لا تحتمل والحياة الأخرى ليست في متناول يدنا ولذا فإننا لا نخجل من رغبتنا في الموت.

إنه نص صريح ومباشر أكثر من أي نص آخر ورد على لسانه.. الموت كموضوع أوّل وأخير للكتابة إنّه هاجس أبدي.. ولم يسبق لكافكا أن كتب عن غير الموت.. ولا نلمس بريقاً للأمل في معظم كتاباته ورسائله ومذكراته على العكس تماماً من ألبير كامو

الذي يرى في الموت نهاية كل شيء ولا يعقد أي أمل خارج إطار الحياة..

إنَّ السر كله يكمن في عملية الموت بالنسبة لكافكا. هل الإنسان ميت في الحياة، وانه يعيش في الموت إنساناً فهم كلمة (الموت)؟ وهنا نستطيع أن نحكم بأنَّ مفهوم كافكا للموت أوعى بكثير من مفهوم ألبير كامو له وأوسع وأشمل وربما أدق.. والكتابة وحدها تعينه على مواصلة هذا البحث عن شرح أوضح لمفهوم الموت ومعناه.. فلولا الكتابة لما استطاع كافكا أن يعيش أربعين سنة متواصلة.. والكتابة تضمن له البقاء والبقاء ليس بمفهوم خلود الأثر الأدبي كما هو شائع.

وإنَّما بقاء كافكا ذاته في أثناء وجوده في المجتمع وهو لا يؤمن بخلود الأثر الأدبي.. ولا يهمه ذلك وقد أوصى صديقه ماكس برود أن يحرق جميع كتاباته، لكن الصديق لم يعمل بالوصية، ونشر كل هذه المؤلفات المودعة لديه بعد وفاة فرانز كافكا، وذلك حتى يقدم خدمة لصديقه وينشر آثاره التي سوف تخلده.

قيمة رواية المسخ

إنَّ غريغور سامسا بطل راويته الشهيرة (المسخ) وهو المعني بهذا الكلام يموت بصمت وحب وبطريقة محببة إلى قلبه.. يموت بالطريقة التي يختارها لنفسه في مشهد لا أمتع ولا أقسى في لحظة واحدة. يروي كافكا هذه التفاصيل: «فكر غريغور وعاد لمتابعة عمله. لم يستطع قمع لهاثه من الجهد، ومن وقت لآخر كان عليه أن يستريح، ومن ناحية أخرى لم يقنعه أحد، إذ ترك وشأنه تماماً.. وحين أنهى الاستدارة، بدأ الزحف فوراً ولم يستطع أن يفهم البتة، نظراً لضعفه كيف قطع المسافة ذاتها بهنيهة قصيرة سابقاً من دون أن يدرك ذلك لم تقاطعه كلمة أو هتاف من عائلته. أدار رأسه حين كان في المدخل فقط -ليس بشكل كامل، فقد أحس برقبته متيبسة، ومع ذلك ظل يرى أنَّ لا شيئاً تبدل خلفه غير أنَّ أخته نهضت. طافت نظرته الأخيرة بأمه، التي كانت مستغرقة في نوم عميق الآن..

والآن؟.. سأل غريغور نفسه وهو ينظر في الظلمة حوله.. وللحال اكتشف أنه لم يعد بإمكانه التحرك إطلاقاً لم يفاجئه ذلك بل بدا من غير الطبيعي أنه كان قادراً حتى الآن فعلاً على دفع نفسه على هذه السيقان الصغيرة الرفيعة.

وأحس من جهة ثانية بارتياح نسبي كان يشعر بالألم في كل أنحاء جسده، لكن بدا له أنه كان يذوي ويذوي تدريجياً وسوف يذهب في النهاية كلياً.

قد تكون قناعته بضرورة اختفائه أرسخ حتى من قناعة أخته، وظل في هذه الحالة من التفكير الفارغ والآمن حتى دقت ساعة البرج معلنة الثالثة صباحاً وظل يرى أنَّ كل شيء خارج النافذة كان قد بدأ يزداد ضوءاً ثم، ومن دون موافقته، غطس رأسه على الأرض وتجدلت من منخزيه آخر أنفاسه الضعيفة».

لقد مات غريغور سامسا وهذا الموت يعني الشيء الكثير لفرانز كافكا، إنه يعني له الحياة لقد انتحر فرانز كافكا حينما قتل غريغور ولو لم يمت غريغور لأقدم فرانز كافكا نفسه على الانتحار بطريقة انتحار بطله نفسها في هذا العمل الذي يعد من أهم الأعمال التي أبدعها.. فقد أنقذه غريغور من الانتحار.

قال كافكا ذات يوم: «لقد عانيت طوال حياتي وأنا أتهرب من الانتحار» نلاحظ بأنَّ جميع أبطاله يموتون.. أجل يموتون حتى يبقى كافكا حياً.. لا أحد لديه لا يموت، كلهم يموتون.. إنه يقتلهم جميعاً.. في مستوطنة العقاب- وتحريات كلب- والقصر- والقضية- والمحاكمة.. والمسخ ولكن لماذا هذا الموت.. هل ليعيش فرانز.. بالطبع لا.. لأن فرانز يمقت الحياة وبالوقت نفسه يبحث عن العدل الاجتماعي في الحياة ذاتها.. وأستطيع أن أرى أن جميع هؤلاء كانوا يمهدون لموته في الوقت الذي يوجلون فيه هذا الموت لذلك يدخل فرانز كافكا إلى أعماق شخوصه قبل الموت بلحظات، إنَّه يصور أدق وأخفى المشاعر التي تسيطر على الشخص الذي سيموت أو سيقتل أو سينتحر بعد لحظات قليلة فقط..

وقد تعمدت أن أنقل مشهد الانتحار كاملاً على الرغم من إطالته بعض الشيء في رواية «المسخ» قبل قليل وما يجعلني مقتنعاً بنظرتي هو التصاق كافكا، بهؤلاء حتى إنه يوهم أحياناً بأنَّ البطل هو الكاتب نفسه عندما يعطيه حرف (ك) الحرف الأول من (كافكا) وغريغور نفسه لا يختلف عن فرانز كافكا، فكلاهما يعملان في التوظيف في إحدى الدوائر وكلاهما يفكران بطريقة واحدة وينظران إلى المجتمع نظرة متقاربة.

في المسخ يعاني غريغور من تسلط والده.. هذا الوالد القاسي الذي يصر على ضربه حتى بعد عملية المسخ ويسعى إلى طريقة للتخلص منه ويقول فرانز كافكا ذاته في إحدى رسائله الموجهة إلى أبيه:

«أنت المقصود بكل كتاباتي، أنا أشكو مما لم أستطع أن أشكوه لك وأنا على صدرك» إنّه انتقام بطريقة غير مباشرة ولسوء حظ السيد هرمان أنه أنجب ولداً مثل فرانز.. هذا الولد الذي سيجعل لعنة العالم بأسره تحل عليه كل يوم وعلى الرغم من كل هذا الحقد يأتي التصريح التاريخي على لسان هذه الضحية: ومع ذلك، فقد أحببتكم على الدوام يا أبويّ العزيزين.

في مستعمرة العقوبات

في هذه الرواية يصور كافكا القسوة التي تبلغ بالإنسان وهو يعذب إنساناً من خلال ضابط وحارسه، يصور كافكا بدقة شديدة تفاصيل الوحشية التي يمارسها الضابط بحق حارسه، فالحارس في هذه الرواية ليس له عمل سوى أن يقف كلما تدق الساعة، ويؤدي التحية لباب الضابط طوال الليل. يُدخل كافكا قارئه إلى أجواء روايته سارداً له: /في الليلة الماضية أراد النقيب أن يرى فيما إذا كان الرجل يقوم بواجبه، ففتح الباب عندما دقت الساعة الثانية، وهناك كان هذا الرجل يتكوم نائماً، فتناول سوط الفروسية وجلده على وجهه، وبدلاً من النهوض والتماس الصفح، أمسك الرجل بساقي سيده وهزه صائحاً: /الق ذاك السوط بعيداً، وإلا سآكلك حياً/.

وهنا يستاء الضابط ويوجه إليه أقسى ألوان العقاب. يصف المستكشف طريقة العقاب بقوله: /إنَّ شكل المسحاة كما ترى يماثل الشكل البشري ، هنا المسحاة المخصصة لجذع الإنسان، وهنا المسحاتان المخصصتان للساقين، أما فيما يخص الرأس فثمة هذه /الرّزة/ الصغيرة الوحيدة فحسب، عندما يتمدد الرجل على السرير ويبدأ في الاهتزاز تخفض المسحاة إلى أن تبلغ جسده، إنها تنظم نفسها تلقائياً إلى حد أن الإبر تلمس جسمه، أو تكاد، وحالما يتم التماس يتصلب الشريط الفولاذي متحولاً إلى رباط قاس في الحال، وعندئذ يبدأ الأداء. إنَّ الشاهد الجاهل لايرى فارقاً بين عقوبة وأخرى، وتبدو المسحاة وهي تؤدي وظيفتها بانتظام متماثل عندما ترتج تثقب رؤوسها الحادة جلد الجسم الذي يرتج هو

نفسه بفعل اهتزاز السرير، وقد صُنعت المسحاة من الزجاج لكي تتسنى مراقبة التقدم الفعلي لتنفيذ الحكم. كانت عملية تثبيت الإبر في الثقب مشكلة تقنية، إلا أننا تغلبنا على الصعوبة بعد تجارب كثيرة.

ماكان لمشكلة نتولاها تصعب علينا كما ترى وفي مقدور أي شخص الآن أن ينظر عبر الزجاج، ويراقب الكتابة وهي تأخذ شكلها على الجسد: /بجّل رؤساءك /.

وقائع الرسالة الوحيدة التي وجهها فرانز كافكا لأبيه

في هذه الرسالة نتعرف على أهمية خصوصية العلاقة التي تجمع بين الآباء والأبناء بحيث تصور لنا تفاصيل تلك النظرة التي ينظرها الأبناء إلى آبائهم.

يقول في مستهل رسالته موجهاً القول لأبيه: أبدأ هذه الرسالة إذاً من دون ثقة بالنفس آملاً فقط أنك أيها الوالد مازلت تحبني على الرغم من كل شيء، وأنك تقرأ بصورة أفضل مما أكتب.

ثم يبدأ في عرض الصراع غير المباشر بينهما، بين أب قوي الشخصية يرى في ممارسة سلطة الأب على الابن تحقيقاً لأبوته ، وبين ابن ضعيف يسعى لإثبات شخصيته وقوته ككائن له خصوصيته في البيت.

هنا تكمن متعة قراءة هذه الرسالة الطويلة التي تتعرض لكل التفاصيل وحتى الشخصية منها في هذه العلاقة الحساسة بين الأب وابنه في أسرة ألمانية.

يبدأ كافكا رسالته لأبيه متعرضاً لحالة الخوف تجاه الأب قائلاً: الوالد الأعز، سألتني مرة، مؤخراً لماذا أدّعي أنني أخاف منك، ولم أعرف كالعادة أن أجيبك بشيء. من طرف بسبب هذا الخوف نفسه الذي استشعره أمامك، ومن طرف آخر لأن تعليل هذا الخوف يتطلب تفاصيل أكثر مما أستطيع أن أجمّعه إلى حدّ ما في الكلام وعندما أحاول هنا أن أجيبك كتابة، فلن يكون الامر إلا ناقصاً كل النقص، وذلك لأنَّ الخوف ونتائجه يعيقني إزاءك في الكتابة أيضاً، ولأنَّ حجم الموضوع يتجاوز ذاكرتي وعقلي كثيراً.

أما بالنسبة لك، فإنَّ المسألة كانت دائماً في غاية البساطة على الأقل عندما كنت تتحدث عن ذلك أمامي وأمام آخرين كثيرين من دون أن تنتقيهم.

يسرد كافكا من جملة ما يسرده الحادث التالي في رسالته الخاصة الموجهة إلى أبيه:

واقعة من السنوات الأولى، ربما تذكرها أنت أيضاً، كنت أبكي ذات مرة في الليل أستعطف وأستعطف جرعة ماء، ليس عطشاً بالتأكيد، وإنما على الأرجح كي أثير إزعاجاً من طرف، وأتسلى من طرف آخر، إذ لم تنفع عدة تهديدات شديدة أخذتني من السرير، وحملتني إلى الشرفة وتركتني هناك وحيداً أمام الباب المغلق فترة وجيزة، وأنا أرتدي القميص الداخلي.

لا أريد أن أقول بأن هذا كان خطأ، فربما لم يكن بالإمكان فعلاً الوصول آنذاك إلى أن يسود الهدوء في الليل بطريقة أخرى، لكنني بهذا أريد أن أحدد خصائص أساليب تربيتك وتأثيرها عليّ.

لقد أصبحت مطيعاً بعد ذلك، لكنني أصبت بخلل داخلي، وطبقاً لطبيعتي لم أستطع أن أربط البتة ربطاً صحيحاً بين توسلي البديهي للحصول على الماء، وبين حملي إلى الخارج بتلك الطريقة المرعبة للرجل العملاق، والدي، الذي هو السلطة العليا، أن يأتي بلا سبب تقريباً، ويحملني من فراشي، ويضعني على الشرفة، وأن أكون إذاً مثل هذا اللاشيء بالنسبة إليه.

ثمة مسألة بالغة الأهمية يلحظها كافكا هي مسألة السلوكيات التي يحظرها الأب على ابنه في حين يقوم بارتكابها أمامه، والأب هو القدوة، فكيف يوفق الابن بين هذا الحظر، وبين ممارسة الأب له.

يروي كافكا هذا المقطع على سبيل التذكير لأبيه: وكان علينا أن نحترس من عدم سقوط الطعام على الأرض، لكن تحتك كانت معظم البقايا على المائدة، ولا يجوز الانشغال بغير الطعام، لكن أنت كنت تنظف أظافرك وتقلمها، تبري أقلام الرصاص وتنظف أذنيك بنكاشة الأسنان، كان من شأن هذه الأمور أن تكون بحد ذاتها تفاصيل لا أهمية لها على الإطلاق، ولم تثقل على نفسي إلا لكونك الإنسان القدوة بالنسبة لي، لم تكن نفسك لتحافظ على الوصايا التي فرضتها عليّ.

ثم يطرح مرحلة زواج الابن، وهي أهم مرحلة للعلاقة بين الأب والابن، وقد تكون أكثر المراحل حساسية ،يدخل كافكا أدق تفاصيلها قائلاً لأبيه: أنا ابنك الذي أبلغ السادسة والثلاثين، وما أزال أصاب بالضرر نتيجة ما وقع في الماضي بيننا، أعني بهذا حديثاً قصيراً ذات يوم من الأيام المضطربة

دار بيننا بعد الإعلان عن رغبتي الأخيرة بالزواج.

فلما أهنتني بكلمات إهانة أشد، وأبدأ لم تظهر استياءك مني بوضوح أكبر، عندما تحدثت إليّ بشكل مماثل قبل عشرين عاماً، إذ إن الفتى الذي قام آنذاك بمحاولة عَلِق فيها ولا يبدو لك اليوم أكثر خبرة، وإنما أكثر بؤساً بعشرين عاماً واختياري فتاة لم يكن يعني لك شيئاً البتة.

كنت دائماً تقمع بلا وعي قدرتي على اتخاذ القرار، وتظن الآن بلا وعي أنك تعلم ماذا كانت قيمة هذه القدرة، ومن محاولاتي لإنقاذ نفسي في اتجاهات أخرى لم تكن تعلم شيئاً، لذا لم يكن في مقدورك أن تعرف شيئاً عن تسلسل الأفكار الذي كان قد قادني إلى محاولة الزواج هذه.

كان ينبغي عليك أن تحاول حدسها، وطبقاً لمجموع الحكم الذي كان لديك عليّ، حدست الحدس الأكثر فظاعة وفضاضة ومدعاة للسخرية، ويمكنك حقاً أن تجيبني ببعض الأمور فيما يتعلق بمحاولاتي للزواج وقد فعلت ذلك أيضاً بأنك لا تستطيع أن تحترم كثيراً قراري عندما فسخت خطوبتي مع (ف) وأعدت عقدها مرتين، وعندما جرجرتك مع الوالدة على غير جدوى إلى برلين من أجل الخطوبة.

إنّ الفكرة الأساسية لكلتا محاولتيَّ الزواج كانت صحيحة كلية: تأسيس بيت زوجية والاستقلال بالذات، وهذه فكرة محببة لديك لكنها تخرج في الواقع مثل لعبة الأولاد التي يمسك فيها أحدهم يد الآخر، بل ويضغطها وهو يقول: آه، لتذهب، اذهب، لماذا لا تذهب؟

لكن الأمر الذي زاد حالتنا تعقيداً هو أنك كنت دائماً تعني كلمة لتذهب بصدق، إذ إنك كنت دائماً أيضاً تقبض عليّ أو الأصح تقمعني وذلك من دون أن تعرف الأمر، وإنما بحكم طبيعتك، لكن كما نحن تظل أبواب الزواج موصدة أمامي لكون الزواج مجالاً خاصاً بك، وأحياناً أتصور خريطة العالم مفتوحة، وأنت ممدد فوقها بالعرض، ومن ثم يبدو لي أنه بالنسبة لحياتي لا يدخل في الحسبان سوى المناطق التي لا تغطيها، أو التي لا تقع في نطاقك، وطبعا لتصوري عن حجمك ليست هذه المناطق كثيرة ولا تمنح السلوى كثيراً، والزواج خاصة ليس من هذه المناطق.

وهكذا يرى كافكا أنّ والده سبب كل

معضلة تصيبه، ولذلك عندما يعجز عن مواجهته، فإنه يلجأ إلى الكتابة لقول ما يشعر به، ويرى بأنه صواب، وتعبير عن وجهة نظره.

يقول لأبيه في هذه الرسالة: أنت خلف كل كتاباتي لقد قلت فيها ما لا أستطيع أن أقوله وأنا على صدرك.

وفي جميع الأحوال فإنَّ الابن هنا يوجه الرسالة إلى الأب، ويهمه أن يقرأ الأب هذه الرسالة، ويحدد موقفه من وجهات نظر الابن، كما يهم الابن أن يسمع رد الأب ولو أيضاً بطريقة غير مباشرة، ومن خلال الرد على الرسالة برسالة جوابية.

هذه الرسالة التي أذيعت في العالم كله وكتب عنها المئات من الدراسات، والتحليلات، والبحوث التربوية، واقتبس بعض جملها كبار العلماء في مجال تربية الطفل تروي بالمقابل وجهة نظر الأب التي يدافع فيها عن نفسه.

وبذلك فإنَّ فرانز كافكا لايكتفي برأيه فقط، بل يأتي بكل ما قاله الأب كدفاع عن موقفه، ودفاع عن منهجه التربوي مع ابنه. أقتطف من رد والده هرمان كافكا المقاطع التالية وهي لا تقل أهمية عن فحوى الرسالة الموجهة إليه، يقول الأب مدافعاً عن مواقفه:

إنك تدّعي أنني لا أبذل جهداً عندما أفسّر علاقتي بك من خلال ذنبك وحده، لكنني أظن أنك على الرغم من الجهد الظاهري لا تجعل الموضوع أكثر صعوبة لك، وإنما أكثر ربحاً.

ثم يردف الأب قائلاً: أولاً ترفض أنت أيضاً كل ذنب ومسؤولية عليك، وطريقتنا في هذا هي نفسها إذاً، لكنني في حين أعزو الذنب الوحيد إليك، وذلك بشكل صريح كما أعني أيضاً، فإنك تريد أن تكون فائق الذكاء وفائق الحنو في الوقت نفسه وتبرئني أيضاً من كل ذنب، وطبعاً لا يتم لك هذا الأمر الأخير إلا ظاهرياً، وأكثر من ذلك لا تريد أيضاً - ويتضح ما بين السطور على الرغم من كل الأقوال عن الماهية والطبيعة والتناقض والعجز- أنني أنا الذي كنت في الحقيقة الشخص المهاجم، في حين كل ما كنت تفعله لم يكن سوى دفاع عن النفس. والآن حققت إذاً من خلال عدم إخلاصك ما يكفي، حيث إنك برهنت على ثلاثة أمور:

أولاً: إنك بريء

ثانيا: إنني مذنب

ثالثا: إنك مستعد للدلالة على عظمتك.

ليس لأن تعذرني فحسب، وإنما الأمر الذي هو أكثر وأقل، أنك تريد التدليل على الموضوع وتصديقه بنفسك بأنني مذنب لكني، خلافاً للحقيقة، بريء أيضاً وخليق بهذا أن يكفيك الآن، لكنه مازال لا يكفيك إذ إنك والحق وضعت في رأسك أنك تريد أن تعيش أولاً وآخراً.

إنني أعترف أننا نتصارع مع بعضنا بعضاً، لكن هناك نوعين من الصراع، صراع الفرسان حيث تتبارى قوى خصوم مستقلين، كل يبقى لنفسه، يخسر لنفسه، ينتصر لنفسه. وصراع الحشرة هذه الحشرة التي لا تلدغ فحسب، وإنما تقوم على الفور، وأيضاً من أجل الحفاظ على حياتها بمص الدم، هذا هو الجندي المحترف الحقيقي، وهذا هو أنت.

غيرت عملي في الحياة، ولكن لكي تتكيف فيها متمتعاً برغد العيش ومن دون لوم الذات تظهر أنني أخذت منك كفاءتك في الحياة ووضعتها في جيبي، وماذا يهمك الآن إذا لم تكن كفوأ، فأنا أتحمل المسؤولية، أما أنت فتتمطى بهدوء وتدعني أجرك جسدياً وروحياً عبر الحياة.

أولاً: عندما أردت مؤخراً أن تتزوج، كنت في الوقت نفسه وهذا ما تعترف به في هذه الرسالة لا تريد أن تتزوج لكنك كنت تريد، لكيلا تتعب نفسك أن أساعدك في تحقيق رغبتك في عدم الزواج، وذلك بأن أمنعك من هذا الزواج، لكن هذا لم يخطر ببالي قط، فأنا لم أقصد هنا أو في أوجه أخرى أن أكون عائقاً في طريق سعادتك.

ثانياً: لا أريد أن أسمع أبداً مثل هذا اللوم من ابني، ولكن هل ساعدني في شيء جهاد النفس الذي تركت لك به حرية الزواج؟ لا شيء على الإطلاق، لكنك في الحقيقة لم تبرهن هنا وفيما عدا ذلك بالنسبة لي شيئاً آخر سوى أن جميع مآخذي كانت صحيحة، وأن مأخذاً صحيحاً قد غاب عنها بشكل خاص، وهو مأخذ عدم الصدق والتزلّف والتطفل، وإذا لم أكن مخطئاً كثيراً، فإنك تتطفل عليّ أيضاً بهذه الرسالة بحد ذاتها.

مفهوم الحب لدى كافكا

يتحول فرانز كافكا إلى شخص ناقم على الجميع وحتى على المنجزات العلمية مثل الآلة التي تتسبب في انتشار البطالة بين العمال ويفضل العزلة الأبدية في كهف لكن هذه الرغبة تصطدم بتدخل أبيه في حياته الخاصة.

هــذه الحيـاة التي يفضـل أن يمضيها في الكتابة فحسب ولا شـيء غير الكتابة.. الكتابة عن المـوت، حتى الموت.. إنه يتجرد مــن الحياة تماماً وحتى المرأة الوحيدة التي تحقق له الحب والجنس في الأيام العصيبة يطلـب إليها الخـروج من حياتــه، ويكتب إليهــا في رسالــة خاصة: «كثـيراً ما فكرت في حياتنا المستقبليـة فأشعر برغبة داخلية في أنَّ خـير نمط للحيـاة بالنسبة لي هو أن أعيشــ في كهف طويـل منعزل عــن العالم مضاء بمصبـاح أكتب وأكتب، ولا شيء غير الكتابـة وأن يحمـل إليّ طعامي ويوضع في مدخل ممر الكهف بعيداً عن مجلسي الذي أكتب فيه، فأذهــب لأكل الطعام على قدر ما تسمــح معدتي وحاجتي للطعام وسيكون ســيري من مجلسي حتــى المائدة هو نزهتي الوحيــدة وعندما ألتهم ما يقدم لي، سأعود مسرعاً إلى الكتابــة هوايتي الوحيدة. إذ لا هــوى لي في أن ألعب، فممارســة ما يهوى الإنسان يا حبيبتي لا تتعبه، وسيكون إنتاجي الأدبي رائعاً، لأنَّ الروعة هي نتيجة الإرهاق المحبــب ولا إرهاق مع من نحب. قد تعدين ذلك جنوناً فهل ترضين أن تعيشي في كهف مع هذا المجنون؟!

وعلــى هــذا النمط مــن الحيــاة.. ما رأيــك؟.. أليس الهرب مــن الكهف وساكنه أجــدى لك.. آه يــا حبيبتي أنــا هكذا ولا أستطيع أن أكــون غير هذا ولك الخيار من أوّل الشــوط لا مــن آخــره.. فأنت زوجتي والأدب عشيقــي.. والمدى بعيد بين الزوجة والعشيقة لك جسمي النحيل، وللأدب قلبي وفكري إنها أسوأ رسالة ترسل إلى امرأة.

كلمة الختام

حقيقة الأمر أنَّ كافكا كان يكتب ليخفف عــن نفسه، ويجد متنفساً في أجواء الكتابة، ثمــة عبارة نعــثر عليها في هــذه الكتابات، وهي عبارة اعترافية يقول فيها: /أود اليوم أن أنزع عن نفســي بالكتابة كل حالة القلق فأنقلها مــن أعماقي إلى أعمــاق الورق/. ولنتأمل أي شيء كان بوسع كافكا أن يصنعه لو لم يكتــب؟ وأمام جواب واحــد يرد على لســانــه نثق بأنه كان سينتحر قبل بلوغه سن العشرين وهــو يحمل كل هــذه الحساسية تجاه مجريات ووقائــع الحياة التي يعيشها، لذلك يحلو له أن يدوّن الجملة التالية بخط واضح: /أنا أكتب بالرغم من كل شيء وبأي ثمن، فالكتابة كفاحي من أجل البقاء/.

حتــى هذا الملجأ تستكــثره عليه الأسرة

وتزعجه فيه فيكتب: /إنَّ أوضاعي لا تحتمل لأنها تتناقض مع رغباتي وميولي الوحيدة، وأعني بذلك الأدب، الأدب هو كياني، ولاأريد، ولاأستطيع أن أكون غير ذلك/.

الحواشي

١- المسخ- رواية- فرانز كافكا - ترجمة منير بعلبكي- بيروت.
٢- في مستوطنة العقوبات- فرانز كافكا - ترجمة زكي الأسطة.
٣- فرانز كافكا- الآثار الكاملة- المجلد السادس- الرسائل- الجزء الأول: رسالة إلى الوالد- ترجمها عن الألمانية: إبراهيم وطفي - طرطوس- سورية- الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

(المدارس الست) في الفلسفة الهندية

ترجمة: هبة الله الغلاييني ٭

مدارس الفلسفة الهندية الـ٦ لا يمكن توقيتها، فالأفكار متداخلة بعضها في بعض، وقلّ أن يذكروا المدارس وأصحابها، ثم تشخيص الذين أسسوها ليس بأقل تعسّراً من توقيتها. والأفكار المتداخلة كانت في حافظة شيوخ الزوايا قد حفظها منهم تلامذتهم ونشروها مندمجة منهم حفظاً، وكتبت ودُوِّنتْ بعد قرون وأفردوها، لكن ما رفع التدخل، الاختلاط بكليتهما.

وميزة مدارس الفلسفة الهندية أنّها ليست مجرد فكر بل هي حياة عملية لأصحابها وهم أنفسهم أسوة فعلية لأفكارهم. دينهم فلسفتهم وفلسفتهم دينهم. والمدارس الست جميعها تتفق في الأفكار الأساسية من غير إثباتها وانتقادها، وكذلك تنقّلت من الآباء إلى الأبناء خلفاً عن سلف.

والميزة الثانية هي أن الفكر الهندي يرى الكون مشحوناً بالبؤس والألم والزلّات والاضطرابات، فوجهة نظره في الحياة قنوطية وهذه الوجهة هي التي قد بعثت فيهم أفكاراً تنجيهم من آلام الحياة واضطراباتها وتشفي صدورهم من أن يصرعوا ويلقوا على طريق تكرار الحياة والموت فاختاروا الزهد والتعفّف، واتقوا متع الحياة ورغد العيش ليحيوا حياة سعيدة هانئة مطمئنة، وأنّى هذا من قنوطية الفكر الغربي.

٭ كاتبة ومترجمة سورية.

الميزة الثالثة أن مفكري الهندوس علّلوا بؤس الحياة أو تكرار التوالد بالجهل بالواقعية والحقيقة، والإدراك الصحيح بحقيقة العالم وحقيقة النفس هو الذي يحرّر من الارتباط بعجلة الحياة والممات ويؤدي إلى أحضان الطمأنينة والسرور الأبديتين. وفلسفتهم هي تسوية سبيل التحرر والأخلاق وتعبير صراط الطمأنينة والسرور.

المدارس الست:

المدارس الفكرية الهندية القديمة كثيرة، قد نشأت وترعرعت في زوايا شتى منتشرة في أصقاع الهند فالأجمات والقرى معمورة بالشيوخ وتلامذتهم وأتباعهم وكادت أن تشكل كل زاوية مدرسة فكرية كاملة وقد اضمحل رباطها بمرور الزمان ونشأة المدارس الأخرى وترعرعت، وكانت أوثق بناء وأشد انسجاماً منها وأشهر شيوخاً، فانمحت شيئاً فشيئاً المدارس الهندية القديمة وأخذت مكانها المدارس المعروفة وهي ست:

١) مدرسة سانخيا:

تنسب مدرسة سانخيا إلى كفيلا (Kapila) الحكيم الهندي مدوّن سانخيا سوترا (Sankhya Sutra) ويقال إنها أقدم المدارس الست، والمعروف أنها تنكر وجود الإله ويوجد خلاف بين شارحيها.

وسانخيا معناه العلم الصحيح الحقيقي والعدد، فإنه فلسفة عدد المقولات الخمس والعشرين. وأصل الكون عندها «فروش» أي الشعور الخالص و«فراكرتي» أي المادة، وسائر الموجودات مستخرجة من فراكرتي وفلسفتها، المبنيّة على نظرية التعليل.

هل المعلول موجود في علّته المادية قبل ظهوره في الكون أم لا، سانخيا قائل بوجوده في علّته المادية بالقوة، والفاعل إنّما يخرجه من القوة إلى الفعلية ولا يوجده من اللاشيئية والعدم الصرف إنما وجوده بالشيئية والكينونة بالفعل.

وللعلّة الفاعلية أي (الصورة) شرائط ومتممات إذا ما تمّت وجد الشيء وظهر وصار بالفعل على الفور من غير تراخ. وللعلّة علاقة خاصة بمعلولها، بها يوجد معلولها الخاص من دون سائر المعلولات لعلل أخرى، فيوجد الإناء مثلاً من الطين من دون السيف إذا تمت شرائط وجوده ووجدت متمماته الأخيرة الواجبة لوجوده، وكذا يوجد السيف من الحديد من دون الإناء. وهذه النظرية أي نظرية وجود المعلول في علته قبل خروجه إلى الفعلية تسمى ستكاريا وادا (Satkarya Vada) أي إيجابية المعلول وموجوديته.

أمّا قبول العلة المادية أو الهيولى صورة المعلول وقلبها فيها فحقيقي وواقعي وقد خالف أصحاب وحدة الوجود السانخيين فقالوا إنّ العلّة لا تقبل صورة المعلول حقيقة

بـل تبقـى كما كانـت، والتقلّـب في صورة المعلول إنّما هو خدعة منشؤها الجهل بأصل الحقيقة، وبعلم أصـل الحقيقة تبقى العلّة كما كانت ويبقى المعلول ولا تبقى منه باقية، كما ترى في ظلمـة الليل الحبل وكأنه أفعى وبعـد انكشاف الحقيقـة وارتفاع الخدعة تغيـب صورة الأفعى ويبقـى الحبل مكانها كما كانت قبل الانخداع.

٢- مدرسة يوغا (Yoga):

تنسـب مدرسة يوغـا إلى ناتـان جلي (patan jali) الحكيـم الهنـدي، ومدوّن يوغاسوتـرا، اللفظ يدل علـى الاتحاد أي الاتحـاد الروحي بـين النفـس الشخصي والنفـس العالمي. ويقول ناتان جلي إن يوغا جهد الروح لحصول الكمال بالسيطرة على الجسد والحواس والذهن والشعور بالمغايرة الحقيقية بين فروش وفراكرتي.

وبين سانخيا ويوغا علاقة قريبة كأنهما جانبان لفكر واحـد، سانخيا يمثل الجانب الروحي، ويوغا يمثل الجانب العملي. سانخيا الفكرة ويوغا التنفيذ العلمي للفكرة، فيوغا يقـرّر بوسائل العلم الصحيـح أما سانخيا فأدواته الإحساس والاستنباط والمستندات ولا ينكر مقولاته الخمس والعشرين، الفرق بينهما أن يوغا يقرّ بالإله المتعالي على سائر النفوس، ولذا قد يقـال له سانخيا الإلهي، كمـا يقال للآخر سانخيا الإلحادي، كونه لا يؤمن بالإله، وإن سانخيا يهتم أشد الاهتمام بشـأن العلم للنجاة والإنفـلات من الوثاق.

وعلى الرغم من أن يوغـا يهتمّ ويؤكّد على العمـل للتطهـير والتركيـز، لتحقيق الفرق والتمييـز بين الذات أو النفس وبين الجسد والذهـن، وبهما يحصـل التفلّت من الوثاق ونيل النجاة.

وما يطمح إليـه يوغا هو السيطرة على الجسد والحواس والذهـن بالضبط عليها عن طريق:

١): الاجتنـاب الـذي يحتـوي خمسة أحلاف جينية:

أ): اجتنـاب الإيـذاء باللسـان والقلب والعمل (Ahinsa).

ب): اجتناب الكذب (Satya).

ج): اجتنـاب السرقـة أي آستيـا (Astya).

د): اجتنـاب العواطـف الشهوانيـة (Brahma charya).

هـ): اجتناب الحرص (Aparigraha).

٢): تهذيب النفس، ويحتوي على الطهارة الخارجية والداخلية وعلى القناعة والشدّة والمطالعة والتشوّق إلى الإله.

٣): الجلوس بالوضع المريح الثابت.

٤): ضبط الأنفاس.

٥): ضبـط الحواس ومنعهـا عـن محسوساتها الخارجية.

٦): تركيز الذهن على موضوع المراقبة والاستغراق.

٧): المراقبة والاستغراق والتركيز على الموضوع بحيث لا يضطرب فيه الذهن ولا يضل الفكر ولا يزل.

٨): سماذي: وهو الاستغراق الكامل بحيث يزول الفرق بين الفكر وموضوعه ويصيران واحدة، الفكر، والمفتكر، والمفتكر كلها يصبح عيناً واحدة وهذا أرفع منازل التركيز الذهني، ولابد للنجاة من المضي عن هذا المنزل.

٣) مدرسة ويشيشيكا:

تنسب مدرسة ويشيشيكا إلى كناد Kanady مدوّن ويشيشيكا سوترا. ويبحث بالخصوص عن المقولات الكونية والمقولات الكونية عند كناد ست، وقد أضيفت إليها بعده مقولة واحدة سلبية فصارت سبعاً، والمقولات الكنادية الست إيجابية. والواقعية كلها منحصرة فيها وهي: (١): المادة أو الهيولى والجوهر. (٢): الأعراف والأوصاف أو الجنات، (٣): الفعل أو العمل. (٤): العموم، (٥): الخصوص. (٦): الإضافة أو النسبة الوجودية، (٧): العدم.

والفلسفة الويشيشيكائية كلها تعديد هذه المقولات والنظر فيها.

الإله عند ويشيشيكا:

المدرسة الويشيشكائية تعترف بالويدات، وتؤمن بأنها كلام الإله وهي قائلة بتأثير الأعمال، لكن كناد نفسه لا يصرّح بوجود الإله ولا بكون الويدات كلامه، أمَّا شارحوه فيقولون إنَّه يريد «بكون الويدات كلامه» كلام الإله، وهذا اعتراف منه بالإله كما أنه اعتراف بكون الويدات مستنداً عنه.

ويحتمل أن يكون مراده أن الويدات كلام الرشيين أو الملهمين. وأياً كان فإنه ليس من منكري الإله. على أن كناد يعترف بالروحانية وبكون العالم الطبيعي تابعاً للنظام الأخلاقي وهذا الاعتراف دليل على كونه معترفاً بالإله. والويدات وإن كانت مسندة إليه لكنها ليست بقديمة، وأنّى استنادها إذا لم تكن كلام الإله؟

والإله قديم بصير مالك، كامل، ويمثّل القوة غير المرئية للحسنات والهيئات. وهذه القوة غير شاعرة بنفسها وتحتاج إلى الإله يهديها ويراقب انضباطها وانتظامها، وهو العلّة والفاعلية للعالم، كما أنَّ الجواهر علّة مادية لها. وهي كالأرواح قديمة غير مخلوقة له وهو الذي يحرك الذرات، مادة الطبيعيات فتتحرك وتلتئم، وبالتئاماتها المختلفة وجد العالم الطبيعي والمادي.

٤- مدرسة نيايا (NYAYA):

مدرسة نيايا منتمية إلى الفيلسوف الهندي جوتما Gotama مدوّن نيايا سوترا. ويعني نيايا البحث والاستدلال، وهما المبحثان الرئيسيان في الفلسفة. وهي فلسفة الكثرة الذرية والواقعية المنطقية وأقرب المدارس إلى ويشيشكا. فويشيشكا تهتم بما وراء الطبيعيات وحقيقة الوجود بخلاف نيايا التي تهتم بالمنطق وحقيقة العلم، وكلاهما يريان الحياة الأرضية ملوثة بالآلام والأضداد وبتقيدها بالروح. والانفكاك من هذا الوثاق هو الفداء والانعتاق من الآلام كلها. وهذا التحرر هو المنحى الأسمى.

وعند كليهما الجهل هو المفضي إلى التقييد، والعلم الصحيح يوصل إلى التحرّر، فويشيشكا يؤكد على الحقيقة الواقعية ونيايا على العلم بالحقيقة. نيايا وإن يقبل كثيراً من العقائد الويشيشكائية لكنه يخالفه في بعض النقاط الهامة. فعند نيايا المقولات الكونية ست عشرة والمقولات السبع الويشيشكائية متضمنة فيها.

ووسائل العلم الواقعي عند ويشيشكا اثنتان: الإحساس والاستنباط وعند نيايا أربع: إضافة إلى الإحساس والاستنباط، المقابلة ونصوص المستندات.

يعتقد نيايا أنّ العالم ذو غاية وعلّته المادية ذرات من الأرض والماء والهواء والنار. وعلّته الفاعلية (الإله) وهو قديم غير فانٍ كالذرات المادية والأرواح غير المادية ومعنى حدوث العالم حدوث تركيبه.

والأرواح مكثرة، تكثر الأشخاص، غير متناهية مثل عدم تناهي الأشخاص، والإله خارج من الأرواح والذرات كليهما، ومعنى كون الإله علّة فاعلة للعالم أنه يهدي قوة غير مرئية هي علة فاعلة حقيقية، في الروح الشخصي محل وصف الشعور.

والشعور ليس بجوهري للنفس أو الروح بل هو من عوارضها الاتفاقية. والروح هو العالِم هو المتلذذ وهو الذي يمثّل الفعل وهو قديم أزلي أبدي وليس بالشعور الأعلى وهو مختلف عن الإله، فإنّ الإله هو الروح المتعالي. الإدراك والتأثر والميلان عوارض الروح، وهو وحدة غير متجزئة تغشى الكل. وكل واحد من الأرواح الشخصية له في حياته العملية قواه الباطنية وتفترق عنه عند التحرّر والنجاة، وهو غير الجسد. الحواس والذهن أو منا‌ات. التقييد سببه الجهل والأعمال، والتحرّر والنجاة يحصلان بالعلم وانقطاع الأعمال.

٥ - فروا ميمانسا (Purva Mimansa):

فروا ميمانسا Purva Mimansa أي الفكر المكرم المتقدم، وينتمي إلى جيمني Jaimini مدوّن جيمني سوترا، وهو أقدم مصنفات المدرسة، ولذا يقال لمحتوياته الفكر المتقدم، ويبحث عن الطقوس الويدية وتشريحها عقلياً، ويمهّد لها بفلسفة تؤيد طقوس الويدات. وكما أن سانخيا ويوغا، وويشيشكا ونيايا مرتبطون بحسب الفكر، كذا فروامیمانسا وويدانتا مرتبط أحدهما بالآخر في الفكر. فيما ميمانسا يبحث عن أوائل الويدات أي الآيات والبرهمانات، كما يبحث عن أواخر اليدانتا والابني شدات. وفلسفة ميمانسا في أفكارها متأثرة بنيايا وويشيشكا فمحتوياتها، إمّا مأخوذة منه وإمّا مبطلة لآرائه.

يبحث فروا ميمانسا لإثبات استناد الويدات إلى العلم ومدار صحته وغلطه ووسائله ومتعلقاته الأخرى. والعلم عنده تلقائي وغير تلقائي. والعلم الصحيح القيم ما يحصل به إحضار شيء غير حاصل من قبل ومن غير تضاد وتناقض بالمعلومات السابقة واللاحقة ولا تكون وسائل الحصول ناقصة ولا معيبة ويكون الإحضار واقعياً.

وعند الميمانسيين الإحضار أو الإدراك إلى جانب كونه إحضاراً أو إدراكاً واقعياً بنفسه، لا تتوقف واقعيته على إدراك آخر جديد. إن واقعيته بنفس واقعية علله التي يحصل بها العلم أو الإدراك. وجميع إدراكاتنا واقعية معتقدة الصدق بأنفسها، ولنفس هذا الاعتقاد تمضي حياة هادئة مطمئنة. ونحتاج إلى التشريح حين نجد وأن معتقدنا غير مطابق للواقع. وعدم المطابقة للواقع إمّا لكون الآلات المدركة ناقصة معيبة، وإمّا لكون العلم السابق متناقضاً مع العلم اللاحق. إذ إن الصدق أصل والكذب خلاف الأصل وحصول الإدراك هو إدراك واقعيته واعتقاد واقعية كلاهما. فالواقعية واعتقاد الواقعية لا تحتاجان إلى علل أخرى سوى الإدراك.

أمّا وسائل العلم عند مدوّن ميمانسا، جيميني، فثلاث: الإحساس والاستنباط وشهادة المستندات، وقد زاد البعض المقابلة والاعتقاد والبعض الآخر زاد فيها نفي الإدراك أو عدم الوجود. أمّا بالنسبة للأرواح أو النفوس فهي متكثرة إلى ما لا نهاية، حاضرة في كل مكان، شاملة لكل شيء، الشعور يحل فيها وهي العالمة حقيقة

والمستلذة والعاملة وهي غير الأجسام، وغير الحواس وغير الفهم وغير الذهن. الأجسام مراكبها للاستلذاذ بوسائلها والحواس آلات الاستلذاذ. والعواطف الباطنة والأشياء الخارجية هي ما يستلذ بها، والشعور ليس بجوهري لها بل من عوارضها التي تجتمع بها وتقارن عنها. وإن الإدراكات والعواطف والإرادة من خواصها التي تتولد من الكمال والنقص. أمّا التحرّر سبب في زوال الكمال والنقص وبزوالهما تعتبر الروح مادة محضة مجردة من جميع أوصافها حتى عن الشعور والمسرّة. فيما الروح لا يدرك به تلقائياً بل إدراكه يستنبط من المدركات الأخرى.

٦- مدرسة ويدانتا (Vedanta):

ويدانتا أو خاتمة ويدا، يراد بها الابني شدات لكونها خواتيمه من وجوه متعددة، وقد نشأت في أوقات مختلفة وأمكنة متفرقة وشرحت بشروح حسب معتقدات شارحيها فرتّبها بدريانا، براهما سوترا، ووفق بين أشتاتها وجمع الآراء المتعددة حولها ودفع المعارضات الواقعية والمحتملة، وبرهما سوترا نفسه كان في غاية الاختصار، غامضاً مبهماً محتملاً لمعان عديدة محتاجاً إلى الشرح والتفسير فشرحه الناس بتفسيرات شتى حسب آرائهم، وأوّلوا ما خالف مذعناتهم ومسالكهم في خواتم الويدات أي الابني شدات أو ويدانتا.

وأهم شارحيه هم الذين لهم مدرسة فلسفية خاصة تتعلق بتشريح ويدانتا كمدرسة شنكرا شارية shankaracharya ورامانوجا Rama nuja، ومادووا Madhva، وولبها Vallabha، ونم باركا Nim barka وغيرها من المدارس. ومبنى الاختلاف في آراء مدارسه هو العلاقة بين النفس (جيوا) وبين الإله (براهمن) فبعضهم كماذوا، قائلون بثنويتهما. وبعضهم قائلون بوحدتهما كشنكرا شاريا وعند البعض كرامانوجا، هما واحد لكن باعتبار خاص. وفي الوحدة والثنوية مذاهب أخرى باعتبارات مختلفة. وأشهر مذاهب الوحدة مذهب رامانوجا ومذهب شنكر أشاريا.

فالحقيقة الواقعية عند شنكر أشاريا هي آتمن Atman أو براهمن Brahman فقط والعالم الظاهر مايا أو خدعة لا حقيقة له. وبراهمن الشعور المجرد أو مجرّد شعور الذات أو النفس، والأنانية المجردة الخالية من الأوصاف والمقولات الفكرية.

ولعروض ما هو بالقوة في مايا يعتقد

إلهاً متعالياً موصوفاً بأوصاف ومليكاً مقتدراً، خالقاً، حافظاً، منفياً للعالم المرئي وهو ظاهره فقط.

كما أن براهمن المشروط هو الإله، وكما أنه موصوف بصفات عالمية موصوف بالحياة والألوهية الشخصية، وبين حياته الشخصية وبين جيوا أي الحياة الشخصية لأشخاص آخرين فرق. فجيوا فاعل وعامل، مستلذ، يتلذذ ويتألم، والإله لا يلتبس بها بل هو علة التلذذ جيوا وقاهره، ورغم هذا ليس بينهما فرق جذري وحقيقي، فهو ما دام لم يعرف حقيقة ولم يحققها يبقى شخصاً وفرداً متميزاً وأنانية أو نفساً متفرداً، وإذا عرف بالملهمات المستندة أنه ليس بجسد ولا حواس ولا ذهن بل هو نفس عال غير منقسم في هذا وذاك وتنتهي عنه تصورات الأنانية بتحرره من الوثاق وإن كان التحرر والوثاق عالمين صعبين وهو في نسخ حقيقته عين براهمن.

المصدر

عن كتاب: The Indian philosophy
بقلم: Mix Moller
نشر عام ١٩٩٦م.

مفهوم المعرفة وأنواعها

د. أحمد غنّام ٭

يرتبط مفهوم المعرفة بوجود الإنسان ارتباطاً وثيقاً، لفهم الأمور والأشياء من حوله، وليتفاعل معها بما يجب وبشكل صحيح، وعندما خلق المولى عز وجل آدم عليه السلام علّمه الأسماء كلها فقال في محكم تنزيله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ من سورة (البقرة: الآية ٣١)، وهذه بداية وجود المعرفة لدى الإنسان. ولكون الإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً فقد

هيأه الله تبارك وتعالى لتلقي المعرفة والعلم والاستزادة مما هو جديد وتعلم ما لم يكن يعلم، فجعل له الحواس الخمس التي تسمى «قنوات الإدراك» حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (من سورة النحل: الآية ٧٨). كما جعل الله تبارك وتعالى بني آدم شعوباً وقبائل ليتعارفوا فيما بينهم وتتنقل الخبرات والمهارات والعلوم والصنائع والفكر والحكم وغيرها مما يحقق للإنسان المعرفة والعلم والثقافة، فقال الله في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ

٭ ناقد وباحث.

﴿أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (من سورة الحجرات: الآية ١٣).

ومع كثرة البشر ووجود الأحداث والمتغيرات ومضي الزمن أصبح البحث في المعرفة هدفاً مهماً، وأصبح السؤال: «ما هي المعرفة؟» سؤالاً ملحاً يحتاج لجواب على مرّ العصور. فالمعرفة في اللغة «عرف الشيء» يعني «أدركه وعلمه»، وهناك فرق بين المعرفة والعلم على الرغم من أنها تشترك معه في معناها العام الذي هو «إدراك الشيء على ما هو عليه»، ولكنها تقتصر على معارف البشر. وفي اللغة الإنكليزية أخذ معنى «المعرفة» (Knowing) مناحي عدة منها أنها تعني «امتلاك صورة خاصة معينة من القدرة على عمل شيء ما»، ومنها أنها «باللقاء أو الاطلاع أو الاتصال المباشر»، وذكر الفيلسوف «راسل» أنها نوعان الأولى «تدرك بالحواس مباشرة» والأخرى «بالوصف» أي بالاستنتاجات العقلية.

تعريف المعرفة

ويظهر لنا مما سبق تشابه المعاني لكلمة «المعرفة» في اللغة العربية واللغة الإنكليزية، حيث إنها تدور في مجملها حول «الإدراك»، وفي الاصطلاح الفلسفي تعرف المعرفة في أنها «ثمرة التقابل بين ذات مدركة وموضوع مدرك، وتتميز عن باقي معطيات الشعور من حيث إنها تقوم في آن واحد على التقابل والاتحاد الوثيق بين هذين الطرفين». وفي التحليل المنطقي للمعرفة عرَّف أفلاطون المعرفة في أنها «اعتقاد صادق مسوَّغ له ما يسوِّغه أو يقوم عليه البرهان والدليل».

وهناك ثلاثة شروط أساسية لابدَّ من توافرها للمعرفة، الشرط الأوّل أن تكون القضية موضوع المعرفة صادقة، والشرط الثاني أن يكون الشخص معتقداً في القضية موضوع المعرفة ويقبلها، والشرط الثالث أن يمتلك الشخص أدلة وبراهين تثبت صدق القضية موضوع المعرفة.

وهناك جدلية حول إمكان المعرفة، حيث اختلفت آراء الفلاسفة إزاء السؤال «هل المعرفة الحقة ممكنة؟»، فمنهم من أخضع أدوات المعرفة للنقد فوصل به المطاف إلى رفض القول بإمكان المعرفة الصحيحة فهؤلاء دعاة النزعة الشكية.

وفريق آخر من الفلاسفة تصدوا لدحض مذاهب الشك، وهؤلاء هم أصحاب مذهب النزعة التوكيدية الدوغماطيقية، الذي يعني في الأصل إقرار عقيدة أو مبدأ على أنه صادق من غير دليل يكفي للبرهنة عليه، وهذا حجر عثرة في سبيل البحث الفلسفي بصفة عامة والبحث عن المعرفة بصفة خاصة.

المعنى التصوري للمعرفة

ما يسميه الناس معرفة، بمختلف أنواعها، تلتقي في هذين النوعين:

١ - الصورة الحاصلة في عقل الإنسان عن الوجود المحسوس، وهذه معرفة تصورية. مثالها رائحة زهر القرنفل الذي سبق أن شممته.

٢ - الصورة الحاصلة في عقل الإنسان عن موجود غير محسوس ساعة التصور، ولم يسبق الإحساس به، وهي تحصل بالوصف، وهذه المعرفة تسمى بالمعرفة التصديقية، أو الحكمية، أو الرهانية.

أركان المعرفة

تقوم المعرفة على أربعة أركان:

١ - معروف: وهو الشيء الذي حصلت لعقلي صورته بوساطة الحس. أو الذي حصلت لعقلي صورته، أو صورة الحكم فيه بوساطة البرهان.

٢ - عارف: وهو الذات التي تملك وسيلة المعرفة المباشرة.

٣ - معرّف: بالبناء للمفعول، وهو الذات العارفة بالبرهان. وكذلك الشيء المعرّف.

٤ - معرِّف: بالبناء للفاعل، وهو الذي ينقل معرفته الحاصلة له مباشرة، أو بالبرهان ويجوز تسمية وسيلة المعرفة معرفاً.

أنواع المعرفة البشرية

المعرفة البشرية، من اعتبارات عدة، تنقسم إلى أنواع كثيرة، وقد جمعناها بالاستقراء، وهي كما يلي:

- **معرفة حسية موضوعية**: وهي المعرفة المباشرة للأعيان (المحسوسة)، كمعرفتي لهذا القلم الذي بيدي.

- **معرفة معنوية**: كمعرفتي أنَّ المطر سبب إنبات العشب، وأنَّ المطر قبل الإنبات. فهذه معنوية، لأن السبب، والقبل، والبعد، أمور غير عينية يراها البصر وتلمسها اليد. وهي موضوعية، لأنها مفهومة من أمور حسية خارج الذات.

- **معرفة كلية**: وهي أن أعرف جوانب الشيء بكل ما تستطيعه وسائل المعرفة عندي، فأعرف أنَّ التفاحة الخضراء، ملساء، ندية، غير مجوفة، كروية بطنها الأبيض، فيها حبوب بنية، لها رائحة معينة، ولها فوائد غذائية معينة، حلوة المذاق.

- **معرفة جزئية**: كأن لا أعرف عن التفاحة إلا شكلها.

- **معرفة تامة**: كمعرفتي لطعم التفاحة بطرف لساني.

- **معرفة ناقصة**: وهي المعرفة الحاصلة بالوصف أو التشبيه، كمعرفتي بأن طعم التفاحة كطعم السكر ولم أذق التفاحة.

- **معرفة مطلقة**: كقولنا طرفا المستقيم

لا يلتقيان، فهذه مطلقة الزمان والمكان والحالة، فلا يمكن أن يلتقي طرفا المستقيم في زمان ما، ولا مكان ما، ولا حالة ما.

- **معرفة نسبية أو مقيدة:** كقولنا: يغلي الماء في حرارة درجتها ١٠٠ درجة مئوية، فهذه معرفة حقيقية بالنسبة إلى ماء معين وضغط معين.

- **معرفة واقعية:** وهي ما كانت صورة لواقع موجود في الموضوع، أو الذات.

- **معرفة وهمية:** وهي ما كانت بخلاف الواقع، وسميت معرفة لأنها صورة في العقل، وسميت وهمية لأنها لم تحصل للعقل بتفكير صحيح، وتسمى إرادية واعتقادية.

- **معرفة إثبات:** وهي الحكم بوجود شيء، أو الحكم له بصفة ما.

- **معرفة نفي:** وهي أن تنفي وجود شيء، أو تسلب عنه صفة أو حكماً.

- **معرفة حسية ذاتية:** وهي ما أدركته بحسي الباطن، كمعرفتي بأنني فرح أو مهموم.

- **معرفة تجريبية:** إنَّ كل معرفة حسية معرفة تجريبية، ولكن جرى الاصطلاح على أن المعرفة الحسية لا تكون تجريبية حتى تكون نتيجة تطبيقات حسية متكررة في حالات مختلفة.

- **معرفة عقلية:** وهي الأفكار الخالصة، أو المجردة، أو الحدسية (رؤية العقل المباشرة)، أو البديهية، أو الأولية، أو الضرورية، أو الفطرية. فمن يقول: لا يعرف العقل إلا بوساطة الحس، يسمي هذه المعرفة عقلية، لأنَّ العقل جردها من محسوسات ما ثم عممها. ومن يقول: إنَّ العقل يستقل عن الحس بالمعرفة، يسمي هذه المعرفة عقلية باعتبار العقل مصدراً لها.

- **معرفة روحية أو إلهامية،** ويدخل في ذلك الرؤيا الصادقة، والتجليات في اليقظة.

- **معرفة يقينية:** وهي ما لا يدخلها احتمال، أو يكون الاحتمال مرجوحاً، وهي معرفة الواجب والممتنع أو المتعين والمستحيل.

- **معرفة احتمالية:** وهي ما تتكافأ الاحتمالات حولها ولا يترجح أحدها، وهي معرفة الممكنات حينما لا يوجد المقتضى أو المانع.

- **معرفة ظنية أو ارتيابية:** وهي أن يكون الاحتمال مرجوحاً، فما يحصل بالاحتمال الراجح يقين، وما حصل بالاحتمال المرجوح ظن.

- **معرفة جوهرية:** وهي معرفة ما غاب عن الحس من باطن المحسوس.

- **معرفة برهانية:** وهي المعرفة بوساطة تركيب.

- **معرفة بديهية:** وهي المعرفة المباشرة.

- معرفة وجودية أو عدمية: وهي حكمي بوجود شيء في الواقع، أو عدم وجوده.
- معرفة كيفية: وهي معرفة وجودية وزيادة.
- معرفة كمية: كمعرفة المقدار والعدد والثقل والكثافة..، وهي معرفة وجودية وزيادة.

خصائص المعرفة

اختلفت وجهات النظر التي يحملها الباحثون في هذا المجال، وقد أشار بعضهم إلى خصائص عدة تتميز بها المعرفة عن سائر مظاهر النشاط الفكري والإنساني هي:

١ - **التراكمية**: المعرفة تظل صحيحة وتنافسية في اللحظة الراهنة، لكن ليست بالضرورة أن تبقى كذلك في المرحلة القادمة، وهذا يعني أن المعرفة متغيرة، ولكن بصيغة إضافة المعرفة الجديدة إلى المعرفة القديمة.

٢ - **التنظيم**: المعرفة المتولدة ترتب بطريقة تتيح للمستفيد الوصول إليها وانتقاء الجزء المقصود منها.

٣ - **البحث عن الأسباب**: التسبيب والتعليل يهدفان إلى إشباع رغبة الإنسان إلى البحث والتعليل لكل شيء، وإلى معرفة أسباب الظواهر، لأن ذلك يمكننا من أن نتحكم بها على نحو أفضل.

٤ - **الشمولية واليقين**: شمولية المعرفة لا تسري على الظواهر التي تبحثها فحسب، بل على العقول التي تتلقاها، فالحقيقة تفرض نفسها على الجميع بمجرد ظهورها، وهي قابلة لأن تنقل إلى كل الناس، واليقينية لا تعني أن المعرفة ثابتة، بل تعني الاعتماد على أدلة مقنعة ودامغة، لكنها لا تعني أنها تعلو على التغيير.

٥ - **الدقة والتجريد**: الدقة تعني التعبير عن الحقائق رياضياً.

وهناك ست خصائص عامة للمعرفة وهي:

- المعرفة فعل إنساني.
- المعرفة تنتج عن التفكير.
- المعرفة تتولد في اللحظة الراهنة.
- المعرفة تنتمي إلى الجماعات.
- المعرفة تتوالدها الجماعات بطريقة مختلفة.
- المعرفة تتولد تراكمياً في حدود القديم.

وسائل تحصيل المعرفة

تنتقل المعرفة بالوسائط التالية:

١ - الحس الظاهر، بالحواس الخمس.

٢ - الحس الباطن، بانفعالات القلب.

٣ - العقل، وللعقل ملكات ذات وظائف:

أ – ملكة تسجل المعروف وتحتفظ به وهي الذاكرة.

ب ــ ملكة تختبر المعرفة وتصححها، وهي ملكة الفهم والتمييز والحكم.

ج ــ ملكة الخيال، وهي التي تؤلف بين صور المحسوسات، وتخترع صوراً غير عادية بهذا التركيب أو صوراً لم يشاهدها المتخيل بهذا التركيب، ولكن هذا المتخيل المركب لا يقوم إلا بجزئيات محسوسة.

د – ملكة التأمل والتفكير، وبها يحصل التجريد من المحسوس والتعميم، فنفهم غير المحسوس بالقياس أو باللزوم العقلي.

٤ – اللغة: وبها يكون التعبير عن المفهومات، وقد تكون وسيلة التفاهم بالرمز أو الإشارة، ولكننا تقيدنا باللغة لأنها وسيلة التفاهم لجمهرة الناس، ومعرفة كل إنسان مضمَّنة في لغته، ومعرفة البشر هي معاني الألفاظ التي يتكلمون بها.

حدود المعرفة البشرية

تتبين حدود المعرفة البشرية بقراءة ما كتبناه عن أنواع المعرفة، وهنا نشير إلى ملاحظة ضرورية وهي أن قولنا: المحسوس مصدر المعرفة لا يعني أننا لا نعرف غير المحسوس، ومعرفتنا المحسوس إما شرعية وإما عقلية.

فمنذ أن يبدأ الحس بنقل المعرفة، يبدأ العقل في تسجيلها وحفظها، ثم بعد ذلك يكون للعقل المرجع في تصحيح هذه المعرفة واستذكارها، ويبدو دور العقل في العمليات الفكرية التي يجتلب بها المعرفة ويحفظها، وتتلخص هذه العمليات في التالي:

١- الانتباه عند التقاط صور المحسوسات.

٢ – الملاحظة وثمرتها: تمييز كل صورة بهويتها، وتمييز العلاقات بين الصور، وتمييز وجوه الاختلاف بينها.

٣ – التذكر: وهو استرجاع صور الأشياء وعلاقاتها ومميزاتها في أي وقت.

٤ – التعميم: وهو تجريد الأحكام من المحسوسات وتعميمها على ما لم يحس.

٥ – التخيل والاقتراح والفرض.

٦ – التحليل: وهو رد الشيء إلى أبسط عناصره اعتماداً على مخزون الذاكرة من صور المحسوسات، وذلك هو الانتقال من العام إلى الخاص.

٧ – التركيب: وهو رد العناصر البسيطة إلى شكل كانت عليه في الواقع.

٨ – التأليف: وهو رد عناصر ما إلى شكل ما.

والمعرفة التي تتم بهذه العمليات تسمى معرفة عقلية، ولا تكون معرفة عقلية إلا وفق قوانين العقل المعروفة.

بنية مجتمع المعرفة

يوصف المجتمع المعاصر بأنه مجتمع المعلومات التي تتدفق فيه المعلومات في سهولة ويسر بحيث يمكن الحصول عليها من مصادر كثيرة متنوعة من دون عناء أو تكاليف باهظة، وقد أصبحت المعرفة والإبداع من أهم العوامل المؤثرة والمحددة لقيام ما يطلق عليه اسم «مجتمع المعرفة» الذي لا يقنع باستخدام المعلومات لفهم واقع الحياة وأحداثها وتفاعلاتها والاستفادة منها في توجيه مختلف أنماط الأنشطة، وإنما يعمل إضافة إلى ذلك على إنتاج المعرفة وتسويقها بحيث تصبح مصدراً رئيسياً يحمل في ثناياه بذور الهيمنة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ويتطلب ظهور مجتمع المعرفة توافر إمكانات خاصة تهيئ الفرصة للاضطلاع بالأعمال والأنشطة الجديدة الكثيرة التي تتفق مع التحول إلى إنتاج المعرفة واعتبارها سلعة تجارية تعرض للبيع والشراء وتكون مصدر دخل للمجتمع المنتج لها ويمكنها الصعود في وجه المنافسة العالمية كأي سلعة أخرى. وبطبيعة الحال فإنَّ هذه الأعمال والأنشطة الجديدة أو المستجدة ستكون ذات طابع خاص ومتميز وتعتمد على أدوات ووسائل وأساليب جديدة تماماً تحتاج إلى توافر نوع خاص من التعليم والتدريب يتناسب ويتلاءم مع الظروف والأوضاع الجديدة ويؤهل للقيام بالمهام الصعبة التي سوف تستخدم فيها هذه المعرفة، وهي مهام تتصل بشكل مباشر بتقديم الخدمات العامة التي سوف تمتد إلى مجتمعات ومناطق بل وإلى أشخاص لم يكونوا يحصلون عليها من قبل.

وفي السنوات الأخيرة أصبح الحديث عن مجتمع المعرفة بمنزلة (موضة) شائعة في أوساط المفكرين والمثقفين، ومع ذلك فإنَّ المفهوم نفسه يحيطه بعض الغموض وينقصه التحديد وإن كان يشير بشكل ضمني إلى توافر مستويات عليا من التعليم والبحث والتنمية وتكنولوجيا المعلومات والاتصال.

وتواجه مسألة إمكان قيام مجتمع تسيطر عليه المعرفة وتوجهه وترسم له مساراته في المستقبل وتحقق له النجاح والازدهار كثيراً من التحديات والشكوك. وثمة مؤشرات عدة يمكن الاعتماد عليها في تحديد ووصف مجتمع المعرفة مثل مدى الاهتمام بالبحث والتنمية والاعتماد على الكمبيوتر والإنترنت والقدرة التنافسية في مجال إنتاج ونشر المعرفة على مستوى العالم.

ويتميز مجتمع المعرفة بعدد من المميزات والخصائص منها توافر مستوى عالٍ من التعليم ونمو متزايد في قوة العمل التي تملك المعرفة وتستطيع التعامل معها وكذلك القدرة على الإنتاج باستخدام

الـذكاء الصناعي وتحول مؤسسات المجتمع الخاصة والعامـة ومنظمات المجتمع المدني إلى هيئات ومؤسسات (ذكية) مع الاحتفاظ بأشكال المعرفة المختلفة في بنوك المعلومات وإمكان إعادة صياغتها وتشكيلها أو تحويلها إلى خطط تنظيمية وذلك فضلاً عن وجود مراكـز للبحوث القادرة علـى إنتاج المعرفة والاستفادة من الخبرات المتراكمة والمساعدة في خلـق وتوفير المناخ الثقـافي الذي يمكنه فهـم مغزى هــذه التغيـيرات والتجديدات ويتقبلها ويتجاوب معها.

فمجتمـع المعرفـة يختلف عـن مجتمع المعلومـات الـذي يقـوم علـى استخـدام تكنولوجيـا المعلومـات والاتصـال في أنه مجتمع قادر على إنتـاج البرمجيات (أشكال المعرفة المختلفة) وليـس فقط استخدام أو حتى إنتاج المعدات الصلبة أو الأجهزة التي تستخدم في الحصول على المعرفة.

وإذا كان العمـل في المجتمع الصناعي يعتمد على المعرفة المتاحة فإنَّ «المعرفة» في مجتمع المعرفة المستقبلي تعتبر هي «العمل»، ولـذا تحتـاج هـذه المعرفـة إلى مراجعة مستمرة كما تحتاج إلى تكنولوجيا المعلومات حتى يمكـن تحويلها إلى مشروعات وسلع تقوم عليهـا اقتصاديات المعرفة في المجتمع الجديد.

وإذا كانت التجربة والتعليم هما المصدران الأساسيان للمعرفة فإنَّ المشكلة التي يتعين التصدي لها هي تحديد نـوع المعرفة التي سـوف يحتاج إليها مجتمـع المستقبل والتي يمكن تطبيقها وتسويقها لأنَّ المعرفة التي لا تبـاع ولا تشترى، كما يقول المفكرون، سوف تعتبر عديمة الجدوى والفائدة.

فوضى المعرفة

قد يحيل هذا العنوان «فوضى المعرفة» إلى دلالات كثـيرة، ترتبـط ارتباطـاً وثيقاً بالبعد الفلسفـي والفكـري للمفهوم، لكن استخدامه هنا لايعني أيّاً من تلك التأويلات المفترضة، بقدر ما يعني ظاهرة انتشرت في الأوسـاط العلمية والثقافيـة خلال العقود الأخـيرة، وهي فوضوية انتشار المعرفة على نحـو لا يخضع لضوابط محكمة، وهي نتاج الطفرة العجيبة التـي حدثت على مستوى التكنولوجيا، وما أتاحته من تقنيات ووسائل حديثة ألغت الحدود والحواجز. فبكبسة زر على محـرك البحث «غوغل» يستطيع المرء الحصول على ما شـاء من معلومات، بغثها وسمينهـا، وقت ما شـاء، لكن ذلك لا يعني بالضـرورة خلق معرفـة متكاملة من خلال عمليـة البحث تلك، أو فضـاء مثقف، لأن

استقاء المعرفة واستيعابها يقتضي نوعاً من النضج والإدراك، ولا يتناسق بأي حال من الأحوال مع الفوضى المعرفية التي تنتشر الآن كالنار في الهشيم شرقاً وغرباً، وأصبحت تثير الكثير من المخاوف على مستقبل المعرفة لدى الكثير من الباحثين والمثقفين والمشتغلين بالحقل العلمي والثقافي.

ولعلَّ هذا ما يفسر بجلاء طبيعة المؤتمرات والندوات التي انعقدت في الكثير من البلدان خلال السنوات الماضية، والتي جاءت مع استفحال هذه الظاهرة، والبحث عن رؤية مستقبلية لتجاوزها من خلال ما تمَّ طرحه من أفكار وآراء ومقاربات تعتبر انعكاساً لهواجس المفكرين والمثقفين ومخاوفهم حيال ما أحدثه عصر التكنولوجيا من ثورة في المعلومات.

إزاء هذا الوضع تمت مناقشة الكثير من الإشكالات الثقافية والمعرفية على الساحة المحلية والعالمية، ومن بينها «التقنيات الجديدة وانتشار المعرفة»، «آفاق المعرفة» وغيرها كثير. ولئن كانت تلك الموضوعات لامست عمق الظاهرة ورصدت أبرز ملامحها وسعت إلى خلق حزام وقائي من مخاطر الانفتاح المذهل على «عالم الإنترنت» وضبطه، لكنها لم تستطع التحكم في فضاء مفتوح لا تحكمه ضوابط معينة ولا يخضع لنظام معلوم.

وفوضى المعرفة تلك، لا تقف عند حد الاطلاع على معلومات من خلال عملية بحث سريعة، بل تطال قضايا أخرى كثيرة يعرفها المشتغلون في هذا القطاع.

وبديهي أن انتشار المعرفة في العالم على هذا النحو يجعل البحث عن أسس وضوابط صارمة لتقييم المعرفة أمراً لا مندوحة عنه، بل ضرورياً لمواجهة السيل الجارف للعولمة، وخاصة في بعدها الثقافي مايجعل مسيس الحاجة إلى إستراتيجية ثقافية محكمة تتجاوز محض التنظير والوقوف عند تشخيص الظاهرة وتحديد ملامحها، خاصة أننا في عصر «معولم» ملائم لانتشار الأفكار والمفاهيم، على الرغم مما فيه من إيجابيات، وأفق مستقبلي.

المفهوم التاريخي للقومية

منيب هائل اليوسفي ✿

تحتل كلمة «القومية» اليوم في صحفنا وإذاعاتنا وكتبنا وجميع وسائل إعلامنا مكاناً لا تحتله أية كلمة أخرى فلا نكاد نفتح صحيفة ما، أو نستمع إلى محطة إذاعة عربية إلا ونقرأ هذه الكلمة أو نسمعها عدة مرات.

هذه الأهمية ليست وقفاً على الشعوب العربية، بل إننا نجد الأمر نفسه لدى جميع الدول النامية تقريباً وخاصة تلك التي تخلصت من الاستعمار منذ مدة قليلة فالتفتت إلى تاريخها، وابتدأت تركز الدراسات حول شخصيتها القومية الخاصة.

وسأحاول فيما يلي تعريف القومية بشكل دقيق ثم أبين الفروق بينها وبين الكلمات الأخرى التي تتصل بها، فالإتيان بتعريف جامع مانع لكلمة «القومية» ليس بالأمر السهل مطلقاً إذ إنَّ هذه الكلمة هي ككل الأسماء المجردة مفهوم نظري يصعب تعريفه بالدقة المطلوبة، هذا من جهة ومن جهة ثانية أجد أن إعطاء تعريف للقومية يتأثر كل التأثر بنظرة صاحب التعريف إلى أركانها الأساسية ولذا فقد اختلفت التعاريف المعطاة للقومية وتعددت بتعدد النظريات القومية على الأقل.

فهناك مفهومان لكلمة القومية كما يجب

✿ محام وباحث في الشؤون القانونية من سورية.

أن أشير هنا أيضاً إلى أنه هناك مفهومان أساسيان ومتميزان لكلمة «القومية».

أولاً: المفهوم العملي: القومية حسب هذا المفهوم هي الوجود التاريخي الاجتماعي والثقافي السياسي الذي يميز أمة من الأمم عن غيرها، فالقومية العربية حسب هذا المفهوم العملي هي وجود الأمة العربية الذي يميزها عن غيرها منذ أن ظهرت كلمة «العرب» للوجود وحتى الآن.

ثانياً: المفهوم النظري: والقومية حسب هذا المفهوم هي الفكرة التي تعبر عن هذا الوجود وتجسده في أجلى مظاهره خلال مرحلة معينة من مراحل التاريخ.

وهذا المفهوم الأخير الذي يعبر عنه أحياناً بما يسمى «النظرية القومية» هو مفهوم قابل للتعديل والتطور والتبلور بعكس المفهوم الأوّل الذي لا يزول إلا بزوال الأمة.

ويتضح هذان المفهومان أكثر إذا قلنا بخصوص القومية العربية: إنَّ الأمة العربية بدأت بالظهور كأمة متميزة في التاريخ منذ حوالى ثلاثة آلاف سنة، ولذا فالقومية حسب المفهوم العملي موجودة منذ ذلك الوقت كوجود تاريخي يميز الأمة العربية عن غيرها.

وأمَّا القومية العربية حسب المفهوم النظري فهي المبدأ الذي يعبر عن هذا الوجود أو هي النظرية التي تحدد أبعاد هذا الوجود، وهي بهذا المعنى لم تظهر إلا منذ قرن من الزمن لا أكثر، وتبلورت في النصف الأوّل من القرن العشرين مارة بجملة مراحل من التطور كما هي الحال بالنسبة لبقية القوميات جميعاً.

وكلمة «القومي» في لغتنا العربية مشتقة أصلاً من كلمة «قوم» والقوم هم من يقومون إلى القتال قومة الرجل الواحد، فمعناها اللغوي الأصلي يرادف مفهوم «العصبية القبلية» تقريباً وأمَّا الآن فالمفهوم الاجتماعي –السياسي للقومية– وخاصة فيما يتعلق بالقومية العربية قد ابتعد عن العصبية القبلية وأصبح يدل على «مجموع الصفات المميزة والعناصر المقومة للأمة» كفكرة وعلى رابطة الولاء التي يحس بها الفرد تجاه أمته كحالة شعورية.

وأوّل ما نلاحظه من الشيء القليل الذي قلناه حتى الآن هو العلاقة الوثيقة بين مفهومي «القومية» و«الأمة» ولا غرابة في ذلك حتى إنَّ المصدر اللغوي للكلمتين واحد في أغلب اللغات الأجنبية ككلمتي أمة nation وقومية nationalisme الفرنسيتين وهما مشتقتان من فعل الولادة naitreوإذا شئنا الحصول على تعريف علمي مقبول للقومية نقول: «هي الرابطة التي تجمع بين أفراد الأمة الواحدة وتشد بعضهم إلى بعضٍ وتشعرهم بأنهم متميزون

عن غيرهم من الأمم بجملة ميزات ثقافية أو حضارية أو تاريخية أو سياسية».

وأمّا القومية العربية بشكل خاص فيمكن تعريفها بأنها: «عقيدة نابعة من أعماق الذات العربية ومن تفكير كل عربي بأن الأمة العربية أمة متميزة ذات خصائص أصيلة ثابتة وطابع معين».

هذا فيما يتعلق بالقومية، وأمّا بالنسبة للأمة فإن أفضل تعريف لها (في رأيي) هو التعريف الذي اقترحه العالم الأمريكي «ماك دوغال» في كتابه (عقل الجماعة mind group) حيث يقول عن الأمة: إنها «تتألف من أفراد يشعرون بأنهم متماسكون تماسكاً طبيعياً بروابط لها عندهم من القوة والصدق بحيث يكون في ميسورهم أن يعيشوا بالسعادة والهناء إذا كانوا معاً ويصابوا بالضيم إذا تفرقوا، ويرفضوا كل خضوع وانقياد للشعوب التي لا تشاركهم هذه الروابط».

وقد اخترت هذا التعريف من دون غيره للأمة وذلك لأنه مقنع ويمكن أن ينطبق بدقة على أية أمة كانت لأنه لا يتورط بتحديد المقومات الأساسية للقومية بل يترك ذلك لظروف كل أمة وخصائصها وأهدافها، فهذه «الروابط» التي يشير إليها التعريف يمكن أن تكون «اللغة» إذا كانت الأمة تعتنق النظرية الألمانية في القومية ويمكن أن تكون «المشيئة الواحدة» إذا كانت الأمة تعتنق النظرية الفرنسية ويمكن أخيراً أن تكون «المصالح الاقتصادية» إذا كانت الأمة تعتقد بصحة النظرية الماركسية -اللينينية- في حقل القوميات.

فإذا حاولنا تطبيق هذا التعريف على «الأمة العربية» بحسب واقع هذه الأمة وتطلعاتها حالياً فإنّ التعريف الذي نقترحه للأمة العربية هو التالي:

«الأمة العربية هي الجماعة البشرية التي يعيش أفرادها ضمن الحيز الجغرافي العربي ويتميزون عن غيرهم بتكوين نفسي خاص ناتج عن لغة مشتركة هي اللغة العربية وتاريخ واحد وتراث ثقافي وروحي واحد ومصالح واحدة مشتركة تجد تعبيراً لها في وحدة الآمال والأهداف».

وقد حاولت في هذا التعريف التركيز على الأركان الأساسية للقومية العربية التي تتمثل الآن باللغة العربية وبالتاريخ الواحد، وبالتراث الثقافي الواحد، وبالمعتقدات المشتركة ثم أخيراً بالمصالح الاقتصادية والسياسية الواحدة.

و من المستحسن هنا أن نحدد نقاط الاختلاف والتشابه بين مفهومي «القومية» و«الأمة» من جهة وبين جملة مفاهيم أخرى تقترب كثيراً أو قليلاً من هذين المفهومين مثل «وطن» و«دولة» و«شعب» و«جنسية»

وغير ذلـك ويهمنا قبل كل شـيء (في هذا المجـال) أن نضع حداً فاصـلاً بين مفهوم «الأمة» ومفهوم «الدولة» وسيقودنا ذلك إلى استعراض بقية المفاهيم التي تتفرع عنهما أو تتعلق بهما.

الدولـة كمـا يعرّفهـا علمـاء القانون والاجتماع هي «جماعـة من البشر يعيشون في أرض مشتركـة مؤلفين هيئـة سياسية مستقلة ذات سيادة»[1].

فالدولة كما نستخلص من هذا التعريف تستلزم وجود ثلاثة عناصر إذاً:

السكان: أي وجود جماعة من الناس قلّوا أو كثروا يعيشون معاً.

الأرض: أي وجود حيـز جغرافي معين تحتله هذه الجماعة من الناس.

السيادة: أي السلطة المنبثقة عن السكان لتنظيم حياة الجماعة.

والعنصر الأوّل من هذه العناصر الثلاثة يطلق عليه في بعض الأحيان اسم «الشعب» وعلى هذا فالشعب هو العنصر الديموغرافي (السكاني) الذي يشـكل الدولة ومن هنا لا يعتبر مــن الخطأ قولنا «الشعـب السوري» و«الشعـب المصري» و«الشعـب الجزائري» طالمـا أنه هنـاك «دولـة سوريـة» و«دولة مصريـة» و«دولة جزائرية» ولكن من الخطأ القومـي الفادح أن نقول «الأمة السورية» أو «الأمة المصرية» أو«الأمـة الجزائرية» لأنه ليست هناك إلا أمـة واحدة في جميع هذه الدول ألا وهي الأمة العربية.

وأمّا العنصر الثـاني من عناصر الدولة وهـو الأرض فيطلـق عليه عاطفيـاً اسم «الوطن» فالوطن ليس هـو إلا أرض الآباء والأجـداد ومن هنا يتبين لنا الفرق الواضح بين مفهـوم «الوطنيـة» من جهـة ومفهوم «القومية» من جهة ثانية، فالوطنية هي شعور الحـب والولاء الذي يكنـه الفرد «المواطن» تجـاه قطعة من الأرض هـي (الوطن) وأمّا القومية فهي شعور الحب والولاء الذي يكنه الفرد نحو جماعة من البشر هي «الأمة».

وأمّـا العنصـر الثالث (السيـادة) فهو الذي يبين لنا الفـرق الدقيق بين مفهومي الأمة والدولة، وذلـك لأن عنصر «السيادة» ضروري تمامـا لوجود الدولـة ولكنه ليس ضرورياً لوجود الأمة، إذ إنَّ المذهب القومي يدعو إلى أن يكون لكل «أمة» واحدة (دولة) واحدة ذات سيادة ولكن الواقع هو غير ذلك في كثير مـن الأحيان حيث نجد ثلاثة أنواع من الأمم:

الدولـة- الأمة أو الأمـة الدولة وهي الدولة التـي تنطبق فيها الحدود السياسية الواقعيـة على حـدود الأمة مـن الناحية الديموغرافيـة، وهـذا الشكل هـو الشكل المثـالي في المجتمعات القوميـة وغيرها مع بعـض التجاوز في عدد محـدود من الدول

مثل: فرنسا- إيطاليا- السويد- ألبانيا.

فالدولة التي تحوي أكثر من أمة: وهنا تجتمع أكثر من أمة داخل نطاق دولة واحدة أي إن الحدود السياسية الدولية تكون أوسع من الحدود القومية المثالية بحيث تحتوي الدولة على أمتين فما أكثر كما هي الحال في بلجيكا التي تحتوي أمتين هما الفالون والفلامنك وفي سويسرا حيث تتعايش ثلاث قوميات: الطليان والألمان والفرنسيون، وفي يوغوسلافيا التي تقسم إلى ست قوميات مختلفة وفي الاتحاد السوفيتي الذي تعيش فيه حوالي عشرين قومية أو أكثر (وكلمة قومية ترادف كلمة أمة في هذا المضمار).

في حين أنَّ الأمة المجزأة في أكثر من دولة هي التي قد ينعكس فيها الوضع السابق، فترى الأمة الواحدة موزعة على دول عدة، ويكون ذلك حين لا تفلح الأمة في توحيد نفسها ولمّ شتاتها فتكون الحدود المثالية (القومية) العاطفية أوسع بكثير في هذه الحالة من الحدود السياسية الدولية الواقعية وذلك ما هو الحال عليه في الأمة العربية التي تضم حالياً (١٥) دولة مستقلة وعدداً من المشيخات والمحميات والمستعمرات ومساحات من الأراضي المقتطعة من قبل سلطات أجنبية.

وبما أنَّ «الوطنية» هي عاطفة الولاء تجاه الوطن المتمثل بأرض الدولة، والقومية هي عاطفة الولاء تجاه الأمة لذا فهاتان العاطفتان لا تنطبقان على بعضهما تماماً إلا في حالة واحدة من الحالات الثلاث السابقة وهي حالة الأمة – الدولة.

والتاريخ لا يرينا (وخاصة في القرن التاسع عشر) تطابقاً تاماً بين «الوطنية» وبين «القومية» أي بين «الدولة» وبين «الأمة» وما الحركات القومية التي ظهرت منذ ذلك الوقت وحتى الآن إلا نوع من «ثورة الأمم على الدول واستهدفت في بعض الأحوال انفصال الأمة عن الدولة التي كانت تحكمها وسعت في أحوال أخرى وراء توحيد شعوب الأمة التي كانت موزعة بين دول متعددة لتكون دولة قومية واحدة»(٢).

وخلاصة القول في مجال الفروق بين «الأمة» و«الدولة» أنه لا يزال هناك موجب للتمييز بين هذين المفهومين وذلك لاختلاف الواقع السياسي عن النظرة القومية المثالية التي تستهدف أن يكون لكل أمة دولة خاصة بها.

ولكن في انتظار ذلك نجد أنَّ كيان الأمة لا يتوقف على تشكيل دولتها العتيدة، لأنَّ الأمة تكون موجودة ولو لم تكن قد تمكنت من تشكيل دولتها القومية لأسباب خارجية أو داخلية أو إذا كانت قد توصلت لاستقلالها ثم فقدته وكذلك في حال كون الأمة مجزأة

وموزعة على دول مستقلة عدة لم تتوحد بعد.

وبهذا الشكل أكون قد أوضحت الفروق الدقيقة بين جملة مفاهيم يتصل بعضها ببعض هي:

القومية، والأمة، والدولة، والوطن، والشعب ولم يبق بعد إلاّ بيان الفروق بين كل من «القومية» من جهة و«الجنسية أو التابعية» من جهة ثانية.

فالقومية nation علاقة عاطفية ذات مفهوم اجتماعي وأمَّا الجنسية أو التابعية nationalite فهي رابطة ذات مفهوم قانوني حقوقي.

وأوضح هذه الفكرة أكثر فأقول: إنَّ الانتماء لقومية معينة هو انتماء عقائدي مبني على العقيدة والشعور ولا يحتاج لأي نواح شكلية لإظهاره، بينما نجد الانتماء لتابعية أو جنسية معينة هو انتماء شكلي قانوني (يشبه العقد) يوسع كل طرف فيه (الدولة من جهة ومواطنها من جهة ثانية) فصمه والتحلل منه.

ولذا أجد أنه من الجائز أن يجد إنسان ما نفسه يحمل جنسية معينة بينما هو ينتمي في قرارة نفسه إلى قومية تناصب دولته العداء كما هي الحال بالنسبة لبعض العرب بشكل عام وعرب فلسطين بشكل خاص، فنرى بعض العرب يحملون الجنسية العربية وفي قرارة أنفسهم يناصبون العداء لأبناء جلدتهم، في حين نرى عرب فلسطين في المنطقة المحتلة سنة ١٩٤٨م شكلياً يحملون الجنسية الإسرائيلية في الوقت الذي لايزالون يدينون فيه بالولاء للقومية العربية من الناحية العاطفية.[٣]

وعلى هذا يجوز (من جهة أخرى) أن يكون للإنسان أحياناً أكثر من جنسية واحدة وقد يصبح في حالات معينة «بلا جنسية apartheid» ولكن القومية لاتتعدد ولا يعقل أن تسقط، وإن كان بعض المفكرين لا يعتبرون مجرد الانتساب السلبي إلى قومية معينة مبرراً لاعتبار شخص ما «قومياً» ويصرون على أن يكون هذا الشخص مؤمناً بقوميته ويعمل من أجل رفعتها وتحقيق أهدافها لكي يستحق هذا اللقب.

وهذا يقودنا أخيراً إلى إيضاح فرق أخير بين القومية كفكرة والقومية كمبدأ: ففكرة القومية هي مجرد نظرية تحمل طابع السلبية في مفهومها، أمَّا المبدأ القومي فهو ذو مفهوم إيجابي لأنه اعتناق للفكرة القومية، أو بالأحرى هو «وضع هذه الفكرة في حيز التطبيق ومجال العمل».

وأخيراً آمل أن أكون بهذا الشكل قد حررت مفهوم «القومية» مما يتصل به من مفاهيم أخرى في مجال النظرية القومية بشكل عام والقومية العربية بشكل خاص.

الهوامش

١- عن كتاب «آراء وأحاديث في الوطنية والقومية» لساطع الحصري ص٩.

٢- عن «ما هي القومية» لساطع الحصري ص٣٤.

٣- أمّا سكان المناطق العربية المحتلة في سنة ١٩٦٧م فلا يزالون من الناحية القانونية الدولية يتبعون جنسيات بلدانهم الأصلية (مصريون - أردنيون - سوريون) لأن الاحتلال الحربي عمل مؤقت لا يؤثر على جنسية السكان.

المراجع

١- ساطع الحصري (كتاب آراء وأحاديث في الوطنية والقومية).

٢- ماك دوغال (عن كتاب عقل الجماعة).

السياق الثقافي ومنظومة الإدارة

د. حسان القيسي ✪

لو عدنا إلى أدبياتنا عبر القرون الماضية لوجدنا أن معظم تنظيرنا للشؤون الثقافية كان ينصب عليها بوصفها علوما واختصاصات معرفية منظمة. وربما سادت تلك النظرة بسبب قلة ما في أيدينا من المعارف والمعطيات المتعلقة بالإنسان باعتباره كائنا متعدد الجوانب ومتعدد الاحتياجات.

أمّا اليوم فإنّ المفهوم الأنثروبولوجي للثقافة آخذ في الانتشار والرسوخ، حيث إنّ هناك اعتقاداً متزايداً بمحدودية تأثير العلم المجرد في صياغة السلوك الإنساني وفي توجيه حركة الحياة اليومية. والثقافة كما بلورها علماء الإنسان هي ذلك النسيج المكون من العقائد والمفاهيم والنظم والعادات والتقاليد وطرز الحياة السائدة في بقعة محددة من الأرض. إنّها طريقة عيش شعب بعينه، أو هي ما يجعل الحياة جديرة بالعيش.

وتتمحور التعريفات المعاصرة للثقافة حول السلوك الإنساني وتفاعلاته وحول اعتبار الثقافة نظاماً تأشيرياً دالّاً على التشكلات السلوكية والمؤسساتية في المجتمع، وحول عدها سياقا ومرجعية في تفسير السلوك، فضلا عن عدها طريقة حياة وعالماً يتم التفكير من خلاله.

وفي السياق الإداري والتنظيمي تعرف

✪ أديب وناقد.

الثقافة بأنها برمجة ذهنية لأفراد المجتمع (أو المنظمات) ومميزة لهم من غيرهم، كما تعد مجازاً من توضيح المعاني المرتبطة بسلوك الأفراد الرسمي وغير الرسمي في المنظمات.

وبهذا المعنى تظل الإدارة كنشاط إنساني هادف مرتكز إلى تفاعلات الأفراد في التنظيم الحاضن له، إذ تلعب الثقافة دوراً محورياً في تشكيل الممارسة الإدارية وتجعله متمايزاً عن غيره، فمن ناحية تنتج الثقافة التصورات والمعايير والرموز والمعاني والقيم والمفاهيم والدلالات المكونة لأنماط ونماذج التفكير التي توجه السلوك الإداري والتنظيمي، ومن ناحية أخرى، تمثل الثقافة المرجعية المفسرة للبرامج والقواعد والسياسات والتعليمات والأدونات والطقوس والاعتبارات المفيدة لسلوك الأفراد في المنظمات.

ومن المعروف أن الثقافة والإدارة وإن كانتا مرتبطتين بالإنسان منذ بداية تحضره، إلا أنهما تأطرتا معرفيا قبل حوالى قرنين بالنسبة للأولى وقرن بالنسبة للثانية.

لقد بدأ ارتباط الثقافة بالدراسات الإدارية والتنظيمية منذ السبعينيات من القرن الماضي حيث تمَّ التعامل معها في البداية على أساس أنها «لغز» ينسب إليه ما هو غير قابل للتفسير في الظاهرة الإدارية المبحوثة، ويعزى السبب في ذلك إلى شيوع التصور العالمي للإدارة والتنظيم القائم على تبني نظريات ونماذج واحدة في البحث والدرس والممارسة، والمتأثر إلى حد بعيد بالمنظور الغربي، وخاصة الأمريكي الذي يعد المنشأ الرئيسي للإدارة الحديثة.

واقترن ارتباط الثقافة بالدراسات الإدارية والتنظيمية ببروز اليابان كدولة صناعية تكنولوجية منافسة للغرب ذات براديم (الأطر المفهومية والأداتية المحددة لحقل معرفي معين والتي نالت موافقة المجتمع العلمي المعني بهذا الحقل) إدارياً وتنظيمياً متمايزاً، وتدعم هذا الارتباط باعتماد الثقافة بعداً من أبعاد برامج التنمية المستدامة من قبل المنظمات العالمية كاليونسكو.

إذ أخذت هذه المنظمات تصمم برامجها التنموية وخاصة الاقتصادية منها وفقا لأنماط الحياة وطرائق التفكير والعمل والمعارف والنسق القيمي للمجتمعات المعنية انطلاقا من أهمية توظيف المكونات الروحية والفكرية والعاطفية والمادية للمجتمع ومشاركة أفراده في جهد التحول الاقتصادي والاجتماعي المعني.

برزت أهمية المدخل الثقافي في الإدارة والتنظيم وبخاصة من منظور الدول النامية كونه يمكّن من تطوير مفاهيم

ونظريات ونماذج وتقنيات مراعية لسياقها الثقافي ومحققة لمتطلبات البراديام الإداري والتنظيمي المنشود بناؤه وتطويره فيها.

وكونه صاحب الفرصة الأكبر في البقاء والاستمرارية، فبوساطة الأبعاد التي طورها المدخل الثقافي في الإدارة والتنظيم والمتمثلة بالمعايير التي تقيس، على سبيل المثال، قيم التوجه المستقبلي، وقيم ومعايير ممارسة السلطة، وقيم ومعايير الفردية والجماعية، وقيم ومعايير المثابرة والليونة، والقواعد والمعايير التي تحكم تفاعل الأفراد وعلاقاتهم مع بعضهم بعضا، يمكن الآن تشخيص النماذج التنظيمية وأساليبها الإدارية بطريقة واقعية.

كما يمكن المدخل الثقافي من النظر في الافتراضات والمنطلقات التي تبنى عليها النظريات والنماذج والتقنيات الغربية وغير الغربية المتطورة من أجل معرفة مدى ملاءمتها للبيئات الإدارية النامية ذات السياقات الثقافية المتباينة، ومن أجل التوصل إلى أفضل السبل والوسائل الممكنة للاستفادة منها، وكذلك معرفة الكيفية التي بموجبها يتم مواءمتها لمتطلبات هذه البيئات بما فيها تطوير ممارساتها الإدارية بهدف التوصل إلى بناء وتطوير البراديام الإداري المحلي المنشود.

تتفق العديد من الدراسات (على سبيل المثال، دراسات محمد إقبال، محمد أراكون، وروجيه غارودي، وسيد قمني، والصادق النيهوم، وحليم بركات، وهشام شرابي، وعلي زيعور، وتشارلز عيساوي، وتوبي هف) على جمود الثقافة الفكرية العربية وضرورة تحديثها، وفسرت هذه الدراسات الجمود من خلال عدة أبعاد مثل توقف الاجتهاد على امتداد قرون طويلة، واعتماد مرجعيات فقهية ما قبل القرون الوسطى، وعدم واقعية الفكر الإسلامي المعاصر، وعدم استنباطه لأدوات جديدة مواكبة، وأسطورية التفكير العربي المعاصر وضعف واقعيته، وشكلية القيم الدينية المعاصرة وضعف جوهريتها وتوظيف الدين في غير مآربه الصحيحة، وتقليدية المنظومة القيمية العربية التي تركز على الماضي بخلاف الحاضر، وتعزز الجبرية خلافاً للإرادة الحرة، وتنمي العيب بخلاف تأنيب الضمير وتنمي الانقياد بخلاف الابتكار، وتعضد ثقافة العاطفة على حساب ثقافة العقل، وتركز على الشكل بخلاف المحتوى وتقوي الانغلاق على حساب الانفتاح، وتجسد الجماعية على حساب الفردية، وأيضا أبوية البناء الاجتماعي المنتج للثقافة السائدة الذي يعزز الاعتمادية والتبعية وعدم المساواة ويهمش دور المرأة ويعمق المحسوبية والمحاباة ويضعف المؤسساتية، مما أنتج ضعف تهيؤ

الذات العربية للسلوك العقلاني، وغياب الديمقراطية والحكم المركزي على امتداد قرون طويلة وعدم تطور المدنية بالمفهوم الحديث واضمحلال الحرف المهنية وعدم تمكنها من تطوير قاعدة صناعية عصرية، إضافة إلى غياب المؤسسة منذ العصر الوسيط الذي حال دون نشوء نهضة علمية حديثة.

وأبرزت دراسات أخرى (على سبيل المثال، فهمي جدعان، وتركي المحمد، ومحي الدين صابر، وعلي حرب) الهوة العميقة بين النماذج الثقافية العربية التقليدية والنماذج الثقافية الأخرى الأكثر معاصرة ونادت بضرورة الانفتاح والتفاعل مع ثقافات الغير بقصد الإغناء والإثراء والتجديد.

ونظرت هذه الدراسات في سبل تحديث الثقافة وعصرنتها والتي شملت أبعاداً مثل إبداع التراث وليس استلهامه واستحضاره وإعادة قراءته بمنظار جديد قائم على تطوير مفاهيم وقيم معارضة مستندة إلى المعاني الكبيرة التي يتضمنها هذا التراث، مثل تحويل الثقافة العربية من رغائبية إلى واقعية ومن أحادية إلى تعددية، ومن التركيز على الماضي وإنجازاته إلى التركيز على المستقبل وكيفية التخطيط له. ومثل الإسهام في العلم والثقافة وتحديث اللغة والتقدم الاجتماعي والسياسي والتعاون الدولي، ومثل الانفتاح على الطرح الفكري المتقدم والتفاعل معه من أجل توليد التصورات والمفاهيم اللازمة لتحقيق المواكبة والمعاصرة وخاصة في عصر العولمة والمعلوماتية.

والتقت الدراسات المشار إليها مع الدراسات الإدارية التي فسرت الممارسة الإدارية من منظور ثقافي ومجتمعي (على سبيل المثال، دراسات هيكسون وبوف، وحسين دادفر، وعباس علي، وديفيد وير، وعادل الرشيد، وجميل جريسات، وحسن الطيب) على أن السياق الثقافي غير المعاصر سبب رئيس للممارسة الإدارية العربية التقليدية، وأبرزت هذه الدراسات عوامل ثقافية مثل التراث البدوي والعشائري والحكم الأجنبي، ومثل الانقطاع الثقافي عن القيم الإسلامية الأولية والتصنيع المفاجئ وغياب المتطلبات التعليمية والأكاديمية الفاعلة، ومثل البعد السياسي الاقتصادي غير الديمقراطي والمنظومة القيمية التقليدية، ومثل غياب المؤسساتية والنظم السياسية السلطوية.

وغياب الديمقراطية وتغريب النظم القانونية كأسباب مفسرة للممارسة الإدارية التقليدية التي تعكس الخصائص التالية التي بينتها الدراسات المشار إليها: ضعف المأسسة وضعف النظمية، والمحسوبية والمركزية وضعف المشاركة، وغياب النظرة المستقبلية، وعدم إدارة الوقت بفاعلية،

وضعف الاحتراف، والولاء الشخصي وضعف سياسات إدارة الموارد البشرية، وضعف ترابط التنظيم، وازدواجية الممارسة، ومحدودية الفرص الوظيفية للمرأة، وضعف فرص الترقي الوظيفي.

في المقابل، فإنَّ الدراسات ذات العلاقة (على سبيل المثال، دراسات ماكس فيبر، وهيكسون وبوف، ودانيال رن) أبرزت أبعاداً محورية صبغت السياق الثقافي الغربي وأثرت بدورها على البرادايم الإداري الغربي المعاصر، وشملت هذه الأبعاد الفكر الليبرالي الحر، والنظام الرأسمالي المعاصر، وحركات تجديد الفكر الديني كالبروتستنتية، والثورة الصناعية، والثورة العلمية والمعرفية، ونشوء المدن الحديثة، والنظام القانوني العقلاني، والفكر الفلسفي التجديدي.

هذه الأبعاد التي ساهمت في تشكيل النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتعليمية الغربية المعاصرة، والتي لعبت مفاهيم كبرى مبتكرة مثل الديمقراطية والعلمانية والعقلانية والمؤسساتية دوراً أساسياً في توجيهها، كما ساهمت هذه المفاهيم في إرساء الممارسات المجتمعية القائمة على الحرية والمساواة واحترام القانون وحقوق المواطن والمشاركة والشفافية والمساءلة والابتكار والريادة والمنافسة وتشجيع العلم وتقدير المسؤولية والواقعية والرقي الفني والأدبي، والتي امتدت بدورها إلى الممارسات الإدارية والتنظيمية وأصَّلت للبرادايم الإداري الغربي المعاصر الذي تجسده سمات مثل: العقلانية والنظمية والمنهجية والمأسسة والاحترام والابتكار والريادة والتنافس والمساواة والمشاركة والنضج والترابط والتجدد والواقعية والتوجه المستقبلي.

تنادي بعض الدراسات (على سبيل المثال، دراسة فهمي الفهداوي والمعنونة «الإدارة في الإسلام: المنهجية والتطبيق والقواعد»، ودراسة محمد شمس الدين والمعنونة «نظام الحكم والإدارة في الإسلام»، باستحضار الممارسة الإدارية التراثية كأساس للممارسة الإدارية العربية المعاصرة من دون تجديد يأخذ بالاعتبار التطورات المتعاقبة والمفاهيم المعاصرة العديدة المبتكرة التي تأثر بها الفكر الإداري العربي وما زال، ومن دون توفير للأسس والشروط الممكنة من مأسسة فحوى الممارسة الإدارية التراثية وفق المعطيات الفكرية المعاصرة بقصد دمجها الملائم في الممارسة الإدارية العربية المعاصرة.

وغني عن القول إن الممارسة التراثية في القرون الخمس أو الست الأوائل من الفترة العربية الإسلامية لا تعكس الإدارة بالمفهوم المعاصر كحقل علمي مؤطر قائم

على مبادئ ونظريات وفرضيات ونماذج ومنهجيات طورها أكاديميون ومتخصصون ملمون بالفكر العلمي المعاصر وبمدارسه ومناهجه من خلال كم هائل من الأبحاث والدراسات في الحقول العلمية الاجتماعية وغير الاجتماعية المرتبطة بالعلوم الإدارية.

كما تمَّ تطويرها على أساس ديناميكي متفاعل تفاعلا متبادلا مع التجربة والممارسة الإدارية. وعلى أساس منهجي وبموجب مرجعيات ومدارس وهيئات أكاديمية متخصصة.

وعلى أساس إمكانية التحقق من فرضيات النظريات والنماذج العديدة ذات العلاقة بالطريقة العلمية المعهودة.

فضلاً عن أن المنطلقات والاعتبارات التي قامت عليها الممارسة الإدارية التراثية تمثل حقبة زمنية ذات مرجعيات فكرية ومعرفية تجاوزها التطور وتراكماته وما أحدثه من تغييرات وتجديدات متعاقبة، وتشمل هذه الاعتبارات والمنطلقات الآتي:

المرجعية الدينية الأحادية للممارسة الإدارية التراثية المتمثلة بالمصلحة الشرعية وفق تفسير فقهي محدد.

والمثالية التي تفترض عدم المناقشة ووجوب الوضوح في المقصود والمدلول في القواعد والأسس. والقطيعة وعدم إمكانية التزاوج مع البرادايم الإداري المتطور الذي تستند إليه الممارسة الإدارية العربية المعاصرة، ومبدأ أفضلية الممارسة الإدارية التراثية على البرادايم الإداري الوضعي المعاصر، ومبدأ المطلق وعدم جواز فصل الدين عن الدولة بأي صورة من الصور، ومبدأ الشمولية والمركزية وعدم التعددية باعتبار أنَّ جوهر الإدارة مرتبط بإدارة الحكم والإدارة العامة. واعتماد المنهج الإيماني اليقيني غير الخاضع للتجربة والإثبات العلمي الذي يحتمل الصواب والخطأ، وفيما يتعلق بالفترتين الأموية والعباسية تشمل هذه المنطلقات تبنّي الممارسة الإدارية التراثية لمبدأ الجهوية والمحسوبية ورابطة الدم والقرابة والنسب. كما تشمل تطبيق المبدأ الوراثي وليس الاحترافي في الإدارة.

وتمثل اليابان أنموذجاً للاستجابة الثقافية المعمقة المحققة لشروط المواءمة مع البرادايم الإداري المعاصر. وخلافاً للطرح المتداول القائل بأن اليابان قد حققت السبق التكنولوجي والاقتصادي والإداري مع محافظتها على خصوصيتها الثقافية - أي دون تأثير عميق للعلم والمعرفة الغربية في نظم حياتها الفكرية والاجتماعية - والذي تتبناه أيضاً بعض الدراسات الإدارية ذات العلاقة (على سبيل المثال، دراسات رفاعي رفاعي، وسعد ياسين، ومحمود الفالح) فإنَّ تحولات فكرية عميقة رافقت النهوض التكنولوجي والإداري الياباني.

إضافة إلى توافر الشروط والظروف التي صبغت السياق الثقافي والمجتمعي الياباني عبر قرون بطريقة مشابهة إلى حد كبير للتجربة الغربية المعاصرة.

فكما جاء على سبيل المثال في دراستين مرتبطتين والمعنونتين «اليابانيون، بورترية ثقافي» و«اليابانيون والعلم الغربي» ونشرتا في نهاية السبعينيات، وأعدهما أستاذان جامعيان أحدهما عاش في اليابان وحصّل تعليمه العالي في الولايات المتحدة الأمريكية ثم عاد إلى اليابان ومارس عمله الجامعي فيها، والثاني عاش في اليابان وحصّل تعليمه العالي في أمريكا وبقي يعمل أستاذاً جامعياً.

فلقد اتسمت الحقبة التي سبقت نهوض اليابان المعاصر بوجود الجماعات الحرفية التي شكلت نواة الصناعات اليابانية الحديثة بطريقة مشابهة للغرب، وتفاعل اليابان مع الغرب وتثاقف معه لقرون عديدة على أساس ندّي في المعرفة والقدرات.

وضاهت الأدوات والمنتجات والآلات الحربية اليابانية مثيلاتها الغربية على امتداد القرون السابقة لمنتصف القرن التاسع عشر، حيث بدأ التثاقف مع الغرب ثانية بعد انتهاء عزلة اليابان التي دامت قرابة ثلاثة قرون.

وساد التعليم الديني البوذي في اليابان الذي يعد موازياً للتعليم الذي كان سائداً في الغرب في القرون الوسطى، واتسم المجتمع الياباني بالتلاحم والتكاتف من خلال نموذج الوطن العائلة، وتعود اليابانيون على النظام والقانون اللذين كانا مطبقين منذ القرن السادس عشر.

وتمثلت التحولات الفكرية العميقة في المجتمع الياباني في شيوع الفكر النسبي والدارويني (بمدلوله التطوري والتنافسي والتكيفي) الذي جاء نتيجة مناظرات مؤطرة في الجامعات والمنتديات والمعاهد اليابانية على امتداد عدة عقود أرساها اليابانيون العائدون من بعثاتهم إلى البلدان الغربية في عهد الإمبراطور ميجي وما بعد، والتي بدورها دفعت اليابان إلى إعادة النظر بالعديد من المسلمات العقائدية والفكرية التي كانت سائدة على امتداد قرون طويلة.

كما انعكست آثارها في تغيير العديد من نظم الحياة اليابانية الأساسية كنظام التاريخ ونظام المقاييس والموازين وطريقة الحساب واستبدال الأرقام وتغيير طرق الرسم، كما انعكس تأثير الفكر النسبي والتطوري على قدرة اليابانيين على توظيف العلم والتقانة المعاصرين في الصناعة والإنتاج وفي المجالات المعرفية والتعليمية، وكما ورد في الدراستين، قاد الفكر النسبي والفكر التطوري اليابانيون إلى مزيد من الانفتاح

والتثاقف مع الغرب، وتبنى اليابانيون مبدأ التنافس والبقاء للأكثر قدرة ومنعة من المجتمعات على أساس فكري قاعدي.

وكخلاصة لهذه المقالة الرامية إلى توضيح علاقة الإدارة بالثقافة يمكن القول:

● إنَّ ارتباط الثقافة بالإدارة والتنظيم ارتباط عضوي تفاعلي ديناميكي، يؤكد بأن الإدارة وكما يشير ماكس فيبر ظاهرة ثقافية، أي إنها نتاج مجتمعي وثقافي وامتداد لهما، وتتجسد الثقافة في نماذج المجتمع الفكري وطرق تفكيره وقيمه ونظمه ودساتيره وقوانينه ومعاييره وقناعاته حيث يتشكل السلوك، وحيث تتكون النظرة إلى الذات وإلى الآخر وإلى العالم بشكل عام، بمعنى آخر، تحتضن الثقافة التفاعل الإنساني الذي هو أيضا جوهر الصيرورة الإدارية والتنظيمية.

● إنَّ أقل ما يمكن أن يوصف به الطرح المنادي باستحضار الممارسة الإدارية التراثية بمعطاها الأول من دون تحويل وإبداع واعتمادها كأساس للممارسة الإدارية العربية المعاصرة أو كأساس للبراديم الإداري المنشود بناؤه هو اللامعقول واللاواقعي، لأنَّ الواقع المعاصر قد انتقل انتقالاً جذرياً ممّا كان عليه سابقاً في القرون الخمسة الأولى من عصر الإسلام.

كما أنَّ هذا الواقع تطور ذاتياً وتفاعل وتمازج مع سياقات ثقافية عديدة على أساس ديناميكي تحولي وأصبح مغايراً للواقع الأولي. فضلاً عن أن مثل هذا الطرح يتجاوز تعذر بناء نظم محتضنة للممارسة الإدارية التراثية وقيمها، ومؤدية إلى مأسستها عبر فترات زمنية معقولة.

● لعبت التحولات الفكرية العميقة دوراً محورياً في تحقيق اليابان للسبق الاقتصادي والتقاني ومكنتها من احتضان العلم والتقانة الغربيين المعاصرين ومفاهيمها كما مكنتها من بناء برادايمها الإداري المتمايز.

إذ خلافاً للطرح المتداول، لم تبق اليابان محافظة على خصوصيتها الثقافية، بل على العكس من ذلك، فلقد تحول الفكر الياباني ومن خلال تأثير الفكر العلمي الغربي المتطور من تفكير مطلق إلى نسبي ومن تفكير تأليهي نخبوي إلى تفكير تكيفي تنافسي، والذي تجسد ممارسة في تغيير العديد من النظم اليابانية الحياتية الرئيسة.

وانعكس ذلك على توظيف اليابان للعلم والتقانة في الصناعات والمجالات الحياتية المتعددة، فضلا عن أن النظم الغربية المعاصرة مثل الديمقراطية وما أحدثته من تغييرات في السلوك والتفاعل الاجتماعي الياباني المعاصر جعلته مفارقا عن النمط الياباني السابق، وفضلا عن أن السمات الثقافية اليابانية المتمايزة والداعمة، قد

لعبت هي الأخرى دوراً مؤثراً في تبوء اليابان للمركز المتقدم اقتصادياً وتقانياً وإدارياً.

● إنَّ بعداً أساسياً في ثنائية المأسسة والتحول المطلوبين لبناء البراديم الإداري العربي المنشود - آخذين بالاعتبار واقع الممارسة الإدارية العربية المعاصرة والمعتمدة على البارادايم الغربي المعاصر ونظرياته ونماذجه وتقنياته والمتأثرة بأبعاد المجتمع الغربي الفكري ونظمه المجتمعية، ومن منظور تطلع الممارسة الإدارية العربية المعاصرة لكي تتمأسس وتتحول إلى براديم وفق وضع مأمول وواقعي، آخذين بالاعتبار ضرورة إبداع الممارسة الإدارية التراثية ودمجها في البراديم الإداري العربي المنشود - يتمثل في فلسفة الإدارة ونماذج تفكيرها التي يفترض أن تتسم بالتجديد والتكيف والإبداع حتى تتمكن الممارسة الإدارية العربية من الانتقال إلى البراديم المأمول.

● من الصعب أن تتحقق الفلسفة (أو العقلية) الإدارية المرجوة من دون منظومة مفاهيم وقناعات جديدة قادرة على توجيه تمأسس البراديم الإداري العربي المنشود ارتكازاً على البراديم الغربي المعاصر ومستفيداً من إبداع الممارسة الإدارية التراثية.

وهذا من الصعب بدوره أن يتحقق من دون التحولات الفكرية العميقة التي يجب أن تأخذ بالاعتبار ما حصل من تطور فكري وعلمي ومعرفي في خلال القرون الأخيرة وعلى رأسها تبني الفكر النسبي، والدارويني بمدلوله التحولي والتكيفي والتنافسي، فهذان البعدان اللذان تركا بصماتهما على مرونة التفكير وخلق الاستعداد فيه لكي يتمكن من أن يمازج بين القديم والحديث على أساس إبداعي، ولكي يتمكن التفكير من التواصل على قاعدة التعددية والديناميكية والإبداع المطلوبة، وكما هو الحال في الحقول المعرفية الأخرى والمجالات الحياتية المتنوعة، فإن المزاوجة بين القديم والحديث يعد حلاً لعقدة النظرية الإدارية العربية.

● لما كانت مثل هذه الفلسفة (أو العقلية) المرجوة عصية على التحقيق من دون توافر نظم مجتمعية محتضنة وداعمة لها - وبناء على التجربة الإنسانية المعاصرة وخاصة لتلك الأبعاد فيها التي أنجبت البراديم الإداري المعاصر ونظرياته ونماذجه وتقنياته وممارساته التي تمثل القاعدة التي تستند إليها الممارسة الإدارية العربية المعاصرة بتشوهاتها المتمثلة بعدم تحقق المواءمة بين الممارسة والسياق الثقافي - فإنَّ نظماً متجددة مثل الديمقراطية والعقلانية والمؤسساتية والعلمانية تصبح ضرورية حتى تتولد تلك العقلية المرجوة وحتى تتلاشى التشوهات وتتحقق المواءمة بين البراديم والسياق.

ترشيد استهلاك الطاقة ضرورة اقتصادية وبيئية

د. نزار عوني ✽

يتفق الباحثون والمختصون بشؤون التنمية على أن الطاقة أساسية في تحقيق التنمية، فمن دون الطاقة لن تكون هناك قوة دافعة لعجلة التنمية بفروعها المختلفة، كما يرى الباحثون أنَّ التقدم البشري يرتبط إلى حدٍّ بعيد بنجاحه في اكتشاف مصادر الطاقة الطبيعية والمحافظة عليها. وتعتبر كلمة الطاقة إحدى الكلمات الشائعة الاستعمال في الحياة اليومية لدى البشر، وهي مفهوم واسع المعنى، فهي القدرة على القيام بالعمل، وهي الحرارة والضوء والكهرباء، والطاقة ليس لها وزن أو حجم ولا ترى بالعين المجردة ولكنها تعرف من آثارها، وما كانت الحياة على هذه الأرض من دون الطاقة.

فالطاقة هي التي تجعل النبات ينمو والذي يعتبر المصدر الأساسي للغذاء والمولد للطاقة التي تحتاجها الكائنات الحية، والطاقة هي التي تجعل الإنسان قادراً على الحركة وتشغيل جميع الوسائل التي يستخدمها في حياته وتنقلاته.

ومنذ القدم سعى الإنسان لترويض قوى الطبيعة بهدف استثمارها للتخفيف من مشقات الحياة، وكانت معرفته النار واستخدامها بداية لتطوره، حيث كانت النار وسيلته لتحويل الطاقة الكيميائية المختزنة

✽ ناقد وباحث وكاتب سوري.

في الخشب إلى طاقة حرارية، ثم عرف بعدها مصادر الطاقة الأخرى، خاصة طاقة الوقود الأحفوري (فحم - نفط - غاز)، وتعد الطاقة الموجودة بالوقود الأحفوري المصدر الرئيسي للطاقة في وقتنا الحاضر.

ومصادر الطاقة عديدة بدءاً من حيوانات الجر والقطر ووصولاً إلى الطاقة الذرية، وطاقة الاندماج النووي مروراً بالفحم والنفط والغاز، وقد تزايدت كمية الطاقة المستخدمة مع تقدم الإنسان وتزايد أعداده وتقدم مستوى معيشته.

وأدى التوسع الصناعي الهائل الذي عرفه القرن العشرون المنصرم إلى تزايد استهلاك الطاقة بشكل لم يسبق له مثيل في حياة البشرية، وتنوعت طرق استخدام الإنسان للطاقة في التدفئة والإنارة وتشغيل الآلات، بدءاً من المكنات الضخمة لتطويع المعادن في مصانع السيارات ووصولاً إلى الأجهزة المنزلية والأجهزة الطبية، وباستثناء بعض مجالات الاستعمال التي تتطلب نوعاً معيناً من الطاقة كالكهرباء بالنسبة للإنارة، فإنه يحق للمستهلك أن يختار بين احتمالات عدة.

ففي التدفئة مثلاً يمكنه من جهة أن يستخدم الفحم أو المازوت (الديزل) أو الغاز أو الكهرباء أو الحطب، كما يمكنه من جهة أخرى، إلى حدّ ما، تحويل الطاقة من شكل إلى آخر، فمن النفط يمكنه الحصول على الغاز أو الكهرباء.

إنَّ الكائنات الحية الحالية لا تزودنا إلا بنسبة ضئيلة من الطاقة التي نستخدمها حاليا، ولكننا نلجأ بشكل خاص إلى حصيلة تحول كائنات عاشت منذ ملايين السنين وتحولت إلى ما يعرف باسم الوقود الأحفوري وهو الفحم والنفط والغاز، فالنباتات تحولت إلى فحم حجري، والكائنات الحية إلى نفط في باطن الأرض عبر العصور السحيقة بفعل الضغط ودرجات الحرارة المرتفعة، والغاز نتج من تخميرها، وتصنف الطاقة إلى أشكال عدة كالطاقة الميكانيكية والحرارية والكيميائية والكهربائية والضوئية.

كما تصنف حسب مصادرها أولاً إلى مصادر طبيعية محدودة الطاقة مثل الوقود الأحفوري (نفط، غاز، فحم) والوقود النووي، وثانياً إلى مصادر طبيعية متجددة الطاقة مثل طاقة الشمس والرياح ومساقط المياه وطاقة المخلفات العضوية وغاز الهيدروجين.

وتعدُّ الطاقة هي السمة البارزة التي تتميز بها الحياة المدنية الصناعية العصرية، ويصعب على الإنسان البقاء ولو لساعات قليلة من دون أن يحتاج إلى الطاقة في معيشته سواء في النشاط المهني أو في إطار الحياة العائلية.

وأصبحت الطاقة جزءاً أساسياً لاستمرار التنمية لضمان الحياة البشرية، وقد زاد إنتاج الطاقة في العالم خلال العقدين الماضيين بما يقرب من ٥٠٪، وكان الوقود الأحفوري يمثل أكثر من ٩٠٪من إنتاج الطاقة.

كما تزايد الاهتمام العالمي بالربط بين الطاقة والتنمية والبيئة، وتزايد كذلك الاهتمام بتطور مصادر الطاقة الأنظف، ورفع كفاءة استخدام الطاقة وترشيد استخدامها واستهلاكها بهدف خفض معدلات التلوث والتأثيرات البيئية السلبية الناتجة عن استخدام مصادر الطاقة، وخاصة تلك الناتجة من استخدام الوقود الأحفوري والوقود النووي، وكون العلاقة بين النمو الاقتصادي والتنمية والطاقة والبيئة علاقة واضحة الترابط، فإنها علاقة تخفي في طياتها تركيبة بالغة التداخل والتعقيد تتفاوت من بلد لآخر ومن قطاع اقتصادي لقطاع آخر ومن وقود إلى وقود آخر.

ولعلَّ أهم ما يواجه الطاقة هو البيئة، لأن توليد الطاقة من المصادر الطبيعية غير المتجددة يتولد معه ملوثات عدّة لها آثار بيئية سلبية إضافة إلى أنّها قابلة للنفاد لأنّها غير متجددة طبيعياً، فمن الناحية البيئية ينتج عن توليد الطاقة من الوقود الأحفوري:

– ملوثات غازية، مثل أكاسيد الكربون والنيتروجين والكبريت والمركبات الهيدروكربونية، وهي تنتج في جميع مراحل استخراج واستخدام الوقود الأحفوري.

– ملوثات سائلة، كحالات تسرب الوقود أثناء استخراجه وتكريره ونقله برا وبحرا، وفضلات مصافي النفط والمياه المستخدمة في صناعة الطاقة.

– ملوثات صلبة، كالجسيمات العالقة بالهواء من صناعة الفحم الحجري وجسيمات الوقود غير المحترق ورماد محارق الفحم الحجري.

– ومن الوقود النووي يتولد نفايات مشعة ذات آثار خطيرة للغاية.

وتزداد كمية الملوثات مع تزايد أعداد البشر وارتفاع مستوى رفاهيتهم ومعيشتهم لزيادة طلبهم على الطاقة وارتفاع قدراتهم الشرائية، ويؤدي ذلك إلى تراكم الملوثات بالبيئة، مع عدم الاهتمام بإزالتها والتحكم بها.

كما ويزداد تراكم الملوثات بالجو مع انخفاض الكفاءة في استخدام الطاقة، لذا فإن تلافي الأضرار الناتجة عن استخدام الطاقة الطبيعية غير المتجددة يتم بتلافي أو بالإقلال ما أمكن من استخدام الطاقة لخفض ما ينتج عنها من أضرار، وهو ما يعرف بـ «ترشيد الاستهلاك»، وهنا تلعب التربية والوعي البيئي دورا فعالا، لأنَّ

ترشيد استخدام الطاقة مرتبط بدرجة كبيرة بالسلوكية البشرية للمجتمع.

والطاقة هي القدرة على القيام بالعمل، والتغير في الموقع والحركة لا يحدث إلا عند بذل الطاقة، وكل أشكال الطاقة الموجودة على سطح الأرض تقريباً مصدرها الطاقة الشمسية، والحياة على كوكب الأرض ما كان لها أن تكون موجودة لولا الشمس، وكل الكائنات تحتاج إلى الطاقة، والإنسان يحصل على الطاقة من النبات الأخضر الذي يقوم بعملية التركيب الضوئي فهو كائن مستهلك للطاقة وليس منتجا كالزرع، ولكي يعيش البشر لابدَّ لهم من استهلاك الطاقة لإشباع حاجاتهم ورغباتهم وتحسين ظروف معيشتهم وللحفاظ على حضارتهم، ولكنهم يستهلكون كميات كبيرة من الطاقة بشكل يزداد يوماً بعد يوم، وليس خافياً على أحد أن مصادر الطاقة كافة قابلة للاستنزاف لأنَّ للبشر رغبات غير محدودة ومصالحهم وصراعاتهم لا حدود لها.

إنَّ الحفاظ على الطاقة وترشيد استخدامها مع زيادة كفاءتها أمور أساسية للحفاظ عليها. ولخفض معدلات التلوث البيئي وأضراره، كما أنَّ تطوير المفاهيم التربوية للنظم الاجتماعية البشرية يسهم بشكل مذهل في ترشيد استخدام الطاقة، لأنَّ البشر باعتبارهم مستهلكين للطاقة وصانعي القرار لأنظمة وأنماط الاستهلاك هم مسؤولون أفراداً وجماعات تجاه البيئة لما يسببونه لها من أضرار تفوق قدرتها على الاحتمال، كما أنَّ تطوير المفاهيم الأخلاقية تجاه البيئة واتجاه الغير أهداف أساسية للتربية البيئية والتوجه نحو ترشيد استخدام الطاقة، لأنَّ قضايا البيئة مترابطة بشكل قوي مع الطاقة.

وترشيد استخدام الطاقة هو قضية من قضايا الصالح العام للمجتمع المحلي والإقليمي والعالمي، لأنَّ كبح المصلحة الخاصة في سبيل مصلحة الجميع جزء أساسي لتوجيه الأفراد لترشيد استهلاكهم للطاقة من أجل استمرار المعيشة بالبيئة ضمن حدودها الطبيعية، كما أن ترشيد استخدام الطاقة هو عمل فردي وجماعي يمكننا جميعا المساهمة فيه، كما أنَّ اتباع تقنية العزل الحراري للأبنية والطلاء الخارجي ذي اللون الأبيض، وخفض الإضاءة المنزلية والتجارية عند عدم الحاجة إليها، واستخدام أجهزة التكييف بفاعلية وعند الحاجة وتطوير تقنية استرجاع الحرارة في العمليات الصناعية، وعزل خطوط نقل الحرارة في المصانع وأنظمة التدفئة والتبريد، ورفع كفاءة استخدام الطاقة والمعدات، واستخدام الأجهزة الكهربائية منخفضة الاستهلاك للكهرباء، ولابدَّ من

الإشارة إلى أنّ ارتفاع تكلفة هذه الأساليب في البداية سيتم تعويضه من قيمة تكلفة فاتورة الطاقة والبيئة والصحة على المدى الطويل.

وكذلك فإنّ رفع كفاءة السير على الطرقات وعدم الوقوف في الشوارع لمنع الاختناقات المرورية لأنّها تزيد من استهلاك الوقود وبالتالي تزداد كمية التلوث والضرر البيئي، والعمل على تحسين أداء شبكة النقل العام لتشجيع السكان على استخدامه في تنقلاتهم وعدم النظر إلى الربحية المادية فقط لهذا القطاع بل النظر أيضاً إلى قيمة البيئة وكلفة إزالة الملوثات والضرر الناتج عن تزايدها على المواد والإنسان.

والعمل على رفع مردودية المسافة التي تقطعها وسائل النقل لكل لتر من الوقود للتقليل من كمية الاستهلاك ومن كمية الملوثات والحد من هدر الطاقة، كما أنّ لتطوير السكك الحديدية أثره المهم على خفض التلوث لازدياد مدى المسافة المقطوعة بكل لتر من الوقود وبالتالي خفض مقدار التلوث الصادر من وسائل النقل.

إضافة إلى هذا أن الاستفادة من حرق النفايات وإعادة تدوير واستخدام النفايات وخاصة المعدنية تخفض من فاتورة الطاقة وبالتالي تخفض من معدلات التلوث والضرر البيئي.

كما أنّ استخدام مصادر الطاقة المتجددة الطبيعية حيثما أمكن بدلاً من الطاقة المتولدة من الوقود الأحفوري يعمل كذلك على خفض معدلات التلوث البيئي، ويجب العمل على إعطاء اهتمام خاص لتكييف أساليب الحياة نحو زيادة ترشيد استخدام الموارد، وعلى المجتمع أن ينظر إلى البيئة على أنّها تمثل جزءاً من ثروته.

وفي القطاع الزراعي يجب العمل على إلزام مزارع الدواجن والماشية باستخدام طاقة نفايات هذه الحيوانات بدلا من الطاقة الكهربائية وطاقة الوقود، كما أن جعل تسعيرة الطاقة للقطاع الصناعي والتجاري والزراعي تسعيرة واقعية هو أمر حيوي كي تتجه هذه القطاعات إلى رفع كفاءة استخدام الطاقة والاستفادة من المصادر الطبيعية المتجددة للطاقة، وعلينا الجمع بين البيئة والاقتصاد والتنمية عند اتخاذ القرار.. وأخيراً لاشك أن ترشيد استخدام الطاقة هو طريق لأهداف أكثر أهمية في الحياة، ولضمان حياة مستقرة وكريمة للأجيال القادمة.

تعاظم الاهتمام بمصادر الطاقة البديلة (المتجددة).. الهواء والشمس

د. منير سويداني *

لم يعد موضوع الطاقة أمراً يقتصر الاهتمام به على الأكاديميين وذوي الاختصاص وصانعي القرارات الاقتصادية والسياسية بل تعدى تلك الأطر ليصبح موضوع اهتمام الجميع بغض النظر عن مواقعهم الوظيفية، ولا غرابة أن يتوسع الاهتمام بموضوع الطاقة بهذا الشكل لأننا كأفراد أصبحنا معنيين بمستقبل موارد الطاقة في مناطق تواجدنا وفي العالم بشكل عام، لأنَّ الطاقة لم تعد تؤثر على مستوى رفاهنا اليومي وطريقة تصريف أمورنا فقط بل تتخذ أهمية أكثر شمولاً تتعلق بالقضايا المصيرية للمجتمعات المختلفة.

تعاظم الاهتمام بالطاقة البديلة

لقد برز الاهتمام بموضوع الطاقة واتخذ طابع الشمولية في أواسط سبعينيات القرن العشرين المنصرم عشية التطورات التي شهدها وضع الطاقة العالمي حيث تأكد بعدها للجميع أن المسألة ليست مرتبطة بتغير أسعار النفط والغاز بل تتعلق بقدرة المخزون الاحتياطي من هذه المصادر وغيرها القابلة للنفاد، على تلبية الطلب المتزايد للطاقة.

لقد بدأ الأمر آنذاك وكأن العالم قد صحا من حلم جميل ليواجه حقائق لا مهرب منها، وكانت النتيجة لتلك الصحوة أن أخذ العالم يبحث عن حلول بديلة متجددة أملاً بأن

---

* كاتب وباحث سوري.

يعيش فترة انتقالية يستطيع خلالها الانتقال من الاعتماد على هذه المصادر إلى الاعتماد على مصادر أكثر ديمومة وأقل تلويثا للبيئة ولنا بمن سبقنا من الأجيال القدوة الحسنة، إذ كيف تمكنت الأجيال الماضية من العيش قرونا طويلة من دون نفط أو غاز ولا فحم.

وقد يتساءل بعضهم عن جدوى اهتمام البلدان العربية بموضوع مصادر الطاقة البديلة في الوقت الذي تمتلك فيه احتياطاً هائلاً من النفط يكفيها قرونا قادمة، وللإجابة نقول: إضافة للفوائد الاقتصادية فلابد من الوقوف عند حقيقة هامة وهي أن مستوى رقي الإنسان وتحضّره مرتبط بشكل وثيق بقدرته على التعامل مع المعطيات البيئية التي يعيش ضمنها وتطويع هذه المعطيات لخدمته ورقيه.

ومن هذا المنطلق نرى ضرورة التطرق إلى مصادر الطاقة البديلة كجزء من اهتمام أعم وأشمل بالبيئة ومعطياتها وبذلك تسقط الحواجز بين الفرد العادي والفرد المختص، وتعرف الطاقة المتجددة بأنها الطاقة المستمدة من الموارد الطبيعية التي تتجدد أو التي لا يمكن أن تنفد (الطاقة المستدامة) وهي تختلف جوهرياً عن الوقود الأحفوري من نفط وفحم وغاز طبيعي، أو الوقود النووي الذي يستخدم في المفاعلات النووية ولا تنشأ عن الطاقة المتجددة في العادة مخلفات كثاني أكسيد الكربون أو غازات ضارة تعمل على زيادة الانحباس (الاحتباس الحراري) كما يحدث عند احتراق الوقود الأحفوري. ومن أهم مصادر هذه الطاقة:

الطاقة الهوائية

إنَّ استعمالها ليس أمراً جديداً لأنَّ الظروف الماضية التي عاشها الإنسان دفعته لاستخدام مصادر الطاقة المتوافرة في الطبيعة لتلبية احتياجاته، فقد كان الهواء أحد المصادر التي فكر الإنسان بها واستعملها في حياته، إذ هو نفسه الذي استخدم حركة الهواء والرياح لدفع سفنه في البحار والأنهار.

وقد برع المصريون القدماء في هذا المجال منذ آلاف السنين لكنه لم يتوقف استعمال الإنسان للطاقة الهوائية عند حدود استعمالها في تسيير السفن الشراعية، وربما كان أفضل أمثلة على استعمالها هو اختراع الطواحين الهوائية التي شاع استعمالها في أجزاء كثيرة من العالم، ويعود تاريخها إلى القرن الخامس الميلادي ويعتقد بأنَّها أوّل ما ظهرت في بلاد فارس ثم انتقلت إلى أجزاء من أوروبة حتى ارتبطت صورة الطاحونة الهوائية بهولندا لكثرة انتشارها واستخدامها لأغراض كثيرة منها نقل كميات كبيرة من المياه من الأماكن المنخفضة بغرض استصلاح الأراضي واستغلالها في الزراعة،

وبذلك شكلت الطاقة الهوائية مصدراً مهماً استخدمه الإنسان عبر تاريخه في الزراعة والصناعة والنقل إلا أنه في القرن التاسع عشر فكر الإنسان باستخدام تلك الطاقة في توليد الكهرباء.

يعد البروفسور الدانماركي /لاكور/ الرائد في مجال توليد الطاقة الكهربائية بوساطة طواحين الهواء خاصة إذا علمنا أن الدانمارك كانت إحدى الدول التي شاع فيها استعمال الطواحين الهوائية في القرن التاسع عشر وبشكل واسع، حيث قام /لاكور/ بتطوير الطواحين الهوائية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وأدخل تحسينات عليها مما جعلها أسرع في الدوران ويمكن التحكم في سرعتها.

إلا أن التفكير باستغلال الطاقة الهوائية يتطلب في البداية معرفة الكثير من المعلومات التفصيلية عن حركة الهواء في المنطقة موضع الاهتمام، لكن ما هي الطاقة الهوائية وما هي مسبباتها؟

إن الطاقة الهوائية هي إحدى نتائج الطاقة الشمسية، فالمعروف أن حركة الهواء تتأثر بالعلاقة بين الشمس وتأثيراتها على الغلاف الهوائي المحيط بالأرض، فعندما تسقط أشعة الشمس في منطقة ما فإن هذا يؤدي إلى تسخين الهواء الذي يتأثر بالحرارة بشكل كبير إذ يزداد حجمه وتقل كثافته، وهذا يعني تقليل وزن عمود الهواء على وحدة المساحة في المنطقة المعرضة للإشعاع الشمسي، وهذا يقود إلى تقليل الضغط الجوي في المنطقة المذكورة بعكس المناطق التي لا يتوافر فيها إشعاع شمسي كثير لأنَّ الضغط الجوي على وحدة المساحة يكون أعلى، وعليه فإنَّ الهواء يتحرك من المنطقة ذات الضغط المرتفع إلى المنطقة ذات الضغط المنخفض، لكن الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها هي أن الطاقة الهوائية مثل الطاقة الشمسية – وطاقة أمواج البحر – وطاقة المد والجزر وغيرها هي طاقة لا نستطيع التحكم في مقدار المخزون فيها، فإذا كان بالإمكان التحكم في مساحة عجلة الطاحونة الهوائية فمن الصعب جداً أن نطمح للتحكم بسرعة الهواء أو حتى توقع تلك السرعة بشكل دقيق.

الطاقة الشمسية

تعتبر الشمس هي مصدر حياة الأرض فلولاها لما وجدت الحياة بشكلها الحالي، وقد أدرك الإنسان أهميتها منذ القدم في حياته، لذلك سعى طوال حياته لدراسة حركتها، ونتيجة لتأثير الشمس الكبير على حياة البشر، فإنَّ الاهتمام بها وصل إلى حد أنَّها شكلت جزءاً من معتقدات بعض الأمم التي أسبغت عليها طابعاً دينياً، فقلما وجدت أمة في التاريخ لم تعد للشمس مكانة متميزة سواء في وادي النيل أم في بلاد الرافدين.

لقد جاءت هذه الأهمية للشمس نتيجة لإحساس الإنسان وإدراكه أن الشمس مسؤولة عن الكثير من الظواهر التي تؤثر في حياته - فالليل والنهار واختلاف فصول السنة - وتغير أحوال الطقس كلها أمور مرتبطة بالشمس بشكل وثيق بالوقت نفسه على وجود الإنسان ونمط حياته.

وعلى الرغم من عدم وجود الدلائل بما يشير إلى حصول تطور في مجال الطاقة الشمسية إبان الفترة التي ازدهرت فيها الحضارة العربية الإسلامية، لكننا نميل إلى الاعتقاد بأنّ كمية كبيرة من المعلومات عن الشمس وحركتها كانت متوافرة لدى العلماء العرب المسلمين، وليس أدل على ذلك من أن تحديد أوقات الصلاة مرتبط بحركة الشمس وكذلك معرفة طول يوم الصيام.

والأكثر من ذلك لو تأملنا التراث المعماري العربي وخصائصه لوجدنا أنّه متناغم مع البيئة الطبيعية السائدة ومع تغير سقوط الإشعاع الشمسي وشدته، وعلى الرغم من التطور الذي مر فيه استخدام الطاقة الشمسية، فقد بدأ التفكير الجدي مع بداية القرن العشرين بإنتاج الطاقة الكهربائية من الطاقة الشمسية وما طريقة المزدوجات الحرارية التي طرحها /وستون/ في أواخر القرن التاسع عشر وغيرها من الأساليب التي عرفت في القرن الثامن عشر إلا الأساس الذي قامت عليه، ولا سيما بعد أن شهد العالم أزمة اقتصادية كبيرة مع نهاية العقد الثالث من القرن الماضي، حيث بنيت الكثير من الآمال حول مستقبل الطاقة الشمسية ومدى مساهمتها في تلبية الاحتياجات سواء بتدفئة المساكن أم بتأمين المياه الساخنة للبيوت، لكن دخول العالم عصر النفط والطاقة الرخيصة بعد الحرب العالمية الثانية، أدى إلى تراجع أبحاث الطاقة الشمسية.

ولم يستمر عصر الطاقة الرخيصة طويلاً إذ سرعان ما حصلت تطورات جذرية على صعيد وضع الطاقة العالمي في بداية السبعينيات من القرن الماضي، نتج عنها زيادة أسعار مصادر الطاقة من (فحم - غاز ونفط) ترافق مع هذا ازدياد الوعي بأن مصادرها محدودة الأجل ولا مناص من البحث عن مصادر أكثر ديمومة من النفط ومشتقاته.

لذا ترتب على هذا أن عادت الطاقة الشمسية إلى مركز الصدارة، فانتشرت أبحاث الطاقة الشمسية وتطبيقاتها في معظم دول العالم حيث يستفاد منها في تحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة حرارية، والتي تشكل جزءاً كبيراً من مجمل استعمالات البشر وفيما يلي بعض التطبيقات الحرارية التي يتم الحصول عليها من الطاقة الشمسية:

-**تسخين المياه**: تُعرف المجمعات الشمسية بأنها تقوم جميعاً بتسخين السوائل المارة فيها ومن ضمنها الماء، بحيث يتم رفع درجة حرارة المياه بالطاقة الشمسية إلى درجة معينة تكفي لجعلها صالحة لبعض الأغراض المنزلية أو الصناعية (استحمام - غسيل) أي ما يقارب (٦٠ درجة) ولتحقيق هذا الغرض تستعمل المجمعات الشمسية المسطحة ذات التكلفة الاقتصادية المنخفضة نسبيا إذ تتحرك المياه من الخزان إلى المجمعات حيث ترتفع درجة حرارتها ثم تعود إلى الخزان، ولأجل ضخ المياه من الخزان إلى المجمعات تستعمل مضخات المياه في بعض التصاميم بينما تتحرك المياه في تصاميم أخرى بفعل ظاهرة السيفون الحراري التي يشيع استعمالها في السخانات الشمسية صغيرة الحجم المستعملة في المنازل.

إن تسخين المياه بالطاقة الشمسية يعد أكثر شيوعاً وملائمة من الناحية التكنولوجية والاقتصادية وتنتشر في العديد من دول العالم بما فيها بعض الدول العربية (الأردن - فلسطين - سورية - لبنان - مصر) وغيرها، فلا يقتصر دور هذه الدول على الاستعمال فحسب بل إن بعض هذه الدول تقوم بتصنيع السخانات الشمسية محلياً.

- **التدفئة**: والمقصود تدفئة المساكن والبنايات عن طريق ضخ الحرارة المكتسبة في المجمعات إلى داخل الحيز موضع الاهتمام ولتحقيق ذلك لابد من استعمال بعض المعدات والأجهزة لنقل التأثير الحراري من المجمع الشمسي إلى داخل المسكن.

ويتم ذلك بطريقين الأول يستخدم الهواء والثاني يستخدم الماء ففي الأوَّل يتم تسخين الهواء في المجمعات الشمسية ومن ثم دفعه إلى داخل المسكن (البناية) بوساطة مروحة.

ولا يختلف تصميم المجمع الشمسي المستعمل لتسخين الهواء عن ذلك المستعمل لتسخين الماء إلا في تصميم الصفيحة الماصة فبينما يتخذ مجرى الماء شكل الأنبوب يكون المقطع العرضي لمجرى الهواء مستطيلاً.

وأمَّا بالنسبة لأنظمة التدفئة بالطاقة الشمسية التي تستعمل الماء فإنَّها تتضمن مبادلات حرارية يجري عبرها نقل الحرارة من الماء القادم من المجمع الشمسي إلى الهواء المدفوع إلى داخل الحيز.

- **تجفيف المحاصيل**: يعد من أقدم استخدامات الطاقة الشمسية لأنَّ مياه الأمطار والأراضي الموحلة تجفف بفعل الحرارة الناتجة عن الإشعاع الشمسي وحركة الرياح، والتجفيف هو عملية تخليص المواد المختلفة من كل السوائل الموجودة فيها للحصول على مواد جافة، استخدمها الإنسان منذ أقدم العصور لتخليص المحاصيل من الماء وذلك لمنعها من

التلف وجعلها صالحة للخزن لفترات طويلة وتعتمد على تعريض المواد المراد تجفيفها للشمس وحركة الهواء.

– **تحلية المياه**: يعد الماء عنصراً ضرورياً للحياة على الأرض فلا حياة من دون ماء، ومن الأمور المؤكدة أن استهلاك الإنسان للماء يتزايد مع ازدياد رقيه الحضاري وتوسع قدراته الإنتاجية.

وأن استخدام الإنسان للطاقة الشمسية في إنتاج المياه النقية هو أحد الحلول المطروحة لحل أزمة المياه في المناطق القاحلة والتي تتمتع بإشعاع شمسي وفير، وتعد دول الشرق الأوسط من المناطق المؤهلة لاستخدام الطاقة الشمسية في تحلية المياه لأن لمعظمها شواطئ بحرية ويتوافر فيها الكثير من الإشعاع الشمسي، وذلك بتبخير المياه دون الأملاح ثم تكثيف البخار وتحويله إلى مياه نقية (إنتاج المياه النقية بالتبخر).

– **توليد الطاقة الكهربائية بالتحول الحراري**: يعد توليد الطاقة الكهربائية بالطاقة الشمسية أحد أهم المنجزات، حيث يتم توليد معظم الطاقة الكهربائية في العالم في محطات توليد الطاقة الحرارية، وبذلك فإن إنتاج الطاقة الكهربائية بالتحويل الحراري للطاقة الشمسية لا يختلف عن إنتاجه بالطرق التقليدية إلا في أن الإشعاع الشمسي هو المصدر الحراري الذي يقوم بتزويد الدورة بمتطلباتها من الطاقة بدل استعمال الوقود ويتم ذلك بثلاث مراحل:

١- مرحلة تحويل الوقود إلى طاقة حرارية

٢- مرحلة تحويل الطاقة الحرارية إلى طاقة ميكانيكية.

٣- مرحلة تحويل الطاقة الميكانيكية إلى طاقة كهربائية.

خصائص مصادر الطاقة البديلة

إنَّ خصائص مصادر الطاقة وطبيعتها تفرض على الإنسان تطوير التكنولوجيا الملائمة لاستغلالها، فكما أن استخراج النفط مثلا فرض على الإنسان تطوير تكنولوجيا الحفر العميق في باطن الأرض للوصول إلى منابعه أو في عملية تكريره ونقله كذلك بالنسبة لمصادر الطاقة البديلة، فإنَّ خصائصها ستفرض بالضرورة تطوير المناسب من المعرفة والأدوات اللازمة لاستخدامها من أهمها:

١- الديمومة وطول الأجل لأنَّها مرتبطة بالشمس والطاقة الصادرة عنها سواء الطاقة الشمسية أم طاقة الهواء والرياح أم الطاقة الحرارية في البحار والمحيطات.

٢- إنَّ مصادر الطاقة البديلة على الرغم من ديمومتها على المدى البعيد إلا أنها لا تتوافر بشكل منتظم طوال الوقت على مدار الساعة، فشدة الإشعاع الشمسي

مثلا تختلف من وقت لآخر وفي اليوم الواحد أو بين يوم وآخر إذ هناك عدة عوامل تؤثر على مقدار كمية الإشعاع الواصل إلى الأرض (الغيوم- الأمطار- العواصف وغيرها). وما ينطبق على الإشعاع الشمسي ينطبق على باقي مصادر الطاقة البديلة (رياح- وطاقة أمواج البحر وغيرها).

٣- إنَّ شدة الطاقة في المصادر البديلة ليست عالية التركيز، لذلك فإنَّ زيادة كمية الطاقة الناتجة من الطواحين الهوائية مثلا يتطلب زيادة عددها أو تكبير حجمها.

٤- تتوافر أشكال مختلفة من مصادر الطاقة البديلة والذي يتطلب استعمال تكنولوجيا ملائمة لكل شكل من الطاقة البديلة، والواقع أن تعدد أشكال الطاقة في مصادر الطاقة البديلة يتفق مع احتياجات الإنسان من الطاقة ويمثل في الوقت ذاته نقطة إيجابية من جانب استغلال هذه المصادر.

٥- ضعف تركيز الطاقة في بعض المصادر البديلة ولا سيما الطاقة الشمسية، يتفق مع كثافة الطاقة المطلوبة في العديد من نقاط الاستهلاك، وهذا بحد ذاته ليس أمراً سلبياً.

وفي الختام نقول: إن القلق من تلوث هواء المدن ومن المطر الحمضي وتسرب النفط والمخاطر النووية وارتفاع حرارة الأرض يحث على إعادة تفحص بدائل الفحم والنفط والطاقة النووية، على الرغم من أن مصادر الطاقة البديلة ليست خالية من التلوث عموماً، لكنه يوجد مجال واسع من الخيارات التي يكون ضررها أقل بكثير من مصادر الطاقة التقليدية.

الإعلام والفوضى
ذراعا القوة الناعمة المعاصرة

د. تركي صقر ✿

شهدت وسائل الإعلام والاتصال العربية تطوراً كبيراً في السنوات الأخيرة وشكلت معيناً ساهم في تراكم الوعي لخلق ما أطلقوا عليه الربيع العربي. حيث جاء تطوّر القنوات الفضائية لينتج تنافساً على كسب الرأي العام ثم جاء الإنترنت ليوجد مجالاً جديداً للصحافة المطبوعة يعبر حدود الدول وأجهزة الرقابة.

أخبار ومسلسلات تلفازية ومواقع تواصل من الجيل الأوّل والثاني صبّت جميعها في مجرى واحد، لتصنع توجهاً لعب التنافس فيه الدور الأساس في دفع سباق يضع خيارات متعدّدة أمام الإنسان العربي ويفتح له آفاقاً جديدة على واقعه ورسم مستقبله..

لقد انخرطت العديد من وسائل الإعلام العربية في تأجيج الفتن تحت اسم ربيع عربي، وقلبه إلى احتراب داخلي دامي، وليس دفعه باتجاه ثورة سلمية أساسها قيمة الإنسان وتضحياته. وهذه الحرب التي ساهم الإعلام العربي في إلهابها هدفت لحرف الحاجة إلى التغيير عن مسارها وتماثلت مع التلاعب الإعلامي المشهدي، بحجة الإنسانية والديموقراطية، بغرض خدمة سياسات القوى النافذة، التي اعتادت وسائل الإعلام الغربية على ممارسته، من

✿ كاتب وصحفي وسفير سوري سابق.

أفريقيا إلى البلقان. لا تحليل، لا محاولة بحث عن معرفة في مضامين الأحداث، بل صور لمقاتلين يطلقون ناراً وخرائط لأرض المعارك ومقابلات مع رموز الحكم المنوي تغييره وإبراز لمعارضين يحتضنهم خبراء الإعلام المشهدي المتلاعب أومنظرين أمثال لورد لويس وبرنار هنري ليفي (دون حرج من أن هذا الأخير مناهض لكلّ القضايا العربية والخادم الأمين للصهيونية).

وفعلا تحوّلت الحرب الإعلامية إلى حرب حقيقية، بحجج إنسانية كما هو مخطط، وانساقت وسائل الإعلام العربية في الأمر من دون وعي أحياناً وبوعي كامل في معظم الأحيان وباتت تهلّل لعمليات «التحالف» (الأمريكي والغربي) العسكرية وبقصف الأرض العربية بصواريخ هذا التحالف دون أدنى استنكار..

وهكذا في عالم غابت فيه الحدود، وباتت العولمة سمة الحاضر والمستقبل... يظهر الإعلام محركاً للأحداث، يضعها في قالب من التأثيرات، تخترق عقول الناس وتغير سلوكياتهم، وتبتكر فيها ردات فعل إيجابية كانت أم سلبية . وهي ردات فعل ترصدها غرف في عواصم التأثير الإعلامي، تمهيداً للضربة الأخرى، وكما قيل فالحرب امتداد للسياسة لكن بوسائل أخرى، وهنا الإعلام المضلل امتداد للحرب لكن بوسائله الخاصة..

وقبل الدخول في تداخل الإعلام مع الفوضى الخلاقة اللذين يشكلان رافعة القوة الناعمة المعاصرة لابدَّ من الوقوف عند معاني القوة بوجهيها الناعم والخشن وصولا إلى النقطة المركزية في حركة القوة الناعمة ومدى فعاليتها وتأثيرها لتحقيق الأهداف المرسومة ألا وهي استخدام التضليل الإعلامي أو إظهار البراعة في تسويق الخدع الإعلامية على طول مسارات التغيير وإخفاء الغايات والمطامع الحقيقية خلف ستارها..

لم يعد خافياً أنّه في عالم اليوم اضطرت القوى الطامعة مرغمة إلى تغييب سياسة القوة الخشنة وابتعدت إلى حد ما عن التدخل المباشر بسبب إخفاقات هذه السياسة وبرزت سياسات القوة الناعمة بديلا منها ولتحقيق الأهداف ذاتها وبأقل التكاليف اعتمادا على ذراعين أساسيين هما الحرب الإعلامية والفوضى الخلاقة المدمرة..

وببساطة فيما يتعلق بالقوة تستطيع أية دولة أو جهة التعرف على مقدار قوتها من خلال معرفة قدرتها على التأثير في تفكير الآخرين وسلوكهم لتجعلهم يعملون لصالحها ويحققون مصالحها وأهدافها بغض النظر عن مصالحهم وأهدافهم الشخصية..

وتنقسم القوة بمعناها المادي والسياسي إلى قسمين.. القوة الناعمة وخلافها القوة الخشنة وفي التاريخ المعاصر ظهر مفهوم القوة الناعمة على سطح كرة العلاقات الدولية إبان انتهاء الحرب الباردة، وأخرجها العبقري العالم البروفيسور، جوزيف ناي، مدير مركز المؤسسة الدولية للدراسات الإستراتيجية في جامعة هارفارد، عام ١٩٩٠م. ويتمحور هذا المفهوم على القدرة على التأثير من دون استخدام القوة العسكرية (أداة الإكراه)، للتأثير على الآخرين لجعلهم «يحبون ما تحب» طوعاً ورغبة» The ability to get others «to want what you want.

ومن أهم عناصرها اتباع سياسة الإغراء والجذب ((attraction)) لجعل الآخرين يحبون ما تحب (أي التأثير ليس بالإكراه) ومن أهم أدواتها الإعلام وخاصة المرئي منها بوجه التحديد. وعادة ما توجه هذه القوة إلى القيم والمجتمعات للنيل منها وجعلها تتحرك بملء إرادتها بما يرضي صاحب وموجه هذه القوة، وهي راضيه مقتنعة ومبتسمة! فبدل مثلا من تغيير النظام في بلد ما عن طريق القوة والإكراه، يفضل كثيراً توجيه القوة الإعلامية الثقافية تجاه هذه المجتمعات وقيمها، لإحداث التغيير من الداخل وهي راضيه قانعة «بالقيم» التي كانت مسلطه عليها إعلاميا من الخارج، لتنتقم وتقوم على هذا النظام بإرادتها وقناعتها، ومن دون طلقة واحدة من صاحب اليد الخفية التي سلّطت هذه القوة الإعلامية من الخارج

أمَّا القوة الخشنة فهي التي تجبر الآخرين على أن يعملوا على أهدافك ويحققوا مصالحك، ومنها قوة السلاح وقوة السلطة وقوة الاقتصاد، فأمريكا مثلا استطاعت بقوة السلاح احتلال أفغانستان وتحطيم العراق والمساهمة مع حلف الناتو في تدمير ليبيا، وغير بعيد ما فعلته قوة أمريكا الخشنة في دفع الأوروبيين إلى العمل معها ومن أجل سيطرتها على العالم منذ الحرب العالمية الأولى، وليس أوضح من احتلال اليهود الصهاينة لفلسطين وما بعدها كدليل قدرات القوة الخشنة وإمكانياتها..

كما لا يجب أن يفوتنا ما فعله المال الأمريكي والخليجي في عملية إسقاط الاتحاد السوفييتي وما يفعله المال الصهيوني الخليجي في شراء الأصوات لصالح مرشحي الرئاسة في أمريكا وتأثير ذلك على تحديد المرشح الفائز في انتخابات الرئاسة أو البرلمان الأمريكي والمال الخليجي والقطري بشكل خاص له الدور الرئيسي في احتواء الربيع العربي وصياغته وفق أوامر وخطط

الغرب وأمريكا، وهذه وتلك أيضا من مظاهر القوة الخشنة..

إذن، فالقوة الخشنة هي قوة تستخدم لتحقيق غايات تحت ظلال الترهيب والتهديد والبطش والخداع والنفاق وما إلى ذلك من صفات مماثلة أو حتى مشتقة من الصفات المماثلة، نتيجتها على المدى القريب تكون في صالح مستخدمها أمَّا نتيجتها على المدى البعيد فهي عكس ذلك تماماً..

وإذا كانت الدبابة والبارجة والمدفع أسطع مظهر من مظاهر القوة الخشنة الفظة فإنَّ أهم ذراع أو جناح للقوة الناعمة هو الإعلام.. فلا جدال بأن الإعلام في الوقت الراهن وأكثر من أي وقت مضى له سطوة على عقول الناس يقول المفكر الفرنسي د.جاك أتالي: (مجلة السياسات الدولية العدد ١٤٤أبريل ٢٠٠١م) إنَّ «عالمنا اليوم قد أصبح يسيطر عليه الإعلام وليس الطاقة... إنَّ السيطرة على المعلومات لا على المواد الأولية هي التي ستحدد كل شيء حتى الحرب والسلام». وأضاف: «إن جميع المؤشرات تؤكد تفوق اقتصاد السوق على أخلاقيات الديمقراطية»..إن اقتصاد السوق والديمقراطية يشجعان عقلية القطيع التي يمكن أن تخل باستقرار الدول وهذا الاتجاه يمكن أن يبالغ في حجم المشكلات ويدفع إلى التنافس في الأسواق و..حتى إثارة الأزمات المالية. وتأتي تكنولوجيا الإعلام فتزيد من هذه النزعة التي تخلّ بالاستقرار وتدمر نفسية الشعوب..

وتأخذ الخدع الإعلامية الدور الأوّل في استلاب عقول الشباب العربي وتضليلهم ودفعهم لتحقيق أهداف الآخرين الطامعين وكأنها أهدافهم ولكنها تخريب بيوتهم ودولهم بأيديهم من خلال التغطية الإعلامية للاحتجاجات التي أخذت حيزاً كبيراً من اهتمام الشارع العربي، وسط آراء كثيرة انتقدت الأداء الإعلامي لكبرى القنوات العربية، واتهمتها بالتحيز وخلق البلبلة والتهييج الإعلامي، وخدمة أجندات خارجية، وغض الطرف عن تغطية تحركات الشارع في دول أخرى...

والنقاش الحقيقي، كما يرى بعضهم، هو لماذا تتغنى قنوات فضائية عربية بقيم الموضوعية والمهنية، فتسلط كاميراتها ومراسليها على دول بعينها وتصف قادتها بالدكتاتوريين، بينما يتم التعتيم الإعلامي على ما يجري في دول أخرى.

إنَّ اختلاق أخبار لا يجافي أحياناً الواقع، بل إنَّ طريقة تقديم وصياغة الأخبار تبرز الكثير من الانحياز، بسبب وجود التقنيات المنتهجة التي باتت تقارب تقنيات الحرب النفسية، على اعتبار أن هناك تفضيلاً لنوعية من الأخبار التي تخدم هدفاً معيناً،

في حين يتم التغاضي عن أخبار، أو إحالتها إلى آخر الترتيب من حيث الأولوية والأهمية. وبمعنى آخر تعميق أسلوب التعتيم والتهييج في الخطاب الإعلامي.

وتقنياً دائماً، لا ينتبه عادة المشاهدون البسطاء، وعددهم بالملايين، إلى أن التلفزيونات تفرض على نفسها وضع كلمة (أرشيف) كلما تعلق الأمر بصور ومشاهد قديمة، حتى لو مرَّ على حدوثها أيام فقط. وهناك أيضاً حيل كثيرة لا ينتبه لها المشاهدون من قبيل إعادة القنوات تكرار بث مشاهد القتل والمظاهرات على مدار الساعة في نشرات الأخبار، حتى يحدث الانطباع لدى المشاهد بأن الاحتجاجات متواصلة، حتى وإن كان الواقع على الأرض مختلفاً. وفي المحصلة يمكن الوقوف على حقيقة أن الفضائيات العربية كغيرها من الفضائيات العالمية لا تنفذ سوى أجندات إخبارية تعكس الأجندات السياسية للدول التي تملكها.

لكن الأهم من كل ذلك هو استخدام الصور من الهواتف الذكية التي تعتبر أخطر شيء في الإعلام التي صفعت الأنظمة من خلال التقاط الصور وإرسالها للوسائل الإعلامية المرئية والإلكترونية ويكمن سر صور الجوال بأنها لا تخضع للمونتاج والفوتوشوب كونها تبقى كما هي لا يمكن التلاعب فيها، وبالتالي عجزت الأنظمة عن تكذيبها أو وصفها بالمفبركة، إضافة إلى اليوتيوب الذي كان العامل الثاني في الكشف عن المستور، مما دفع وسائل الإعلام المرئي الاعتماد على وسائل الاتصال الاجتماعي المرسلة من الميادين وعرضها من خلال الأفلام المسجلة أو السكايب في العرض المباشر عن طريق هذه الهواتف الذكية..

ولهذه الأسباب أضحى الإعلام الجديد في موقع متقدم في تقديم خدمة المعلومات وجذب الأنظار نحو المواقع المختلفة لكي تواكب عرضها الإعلامي في ظل معركة فعلية قائمة بين وسائل الإعلام الاجتماعي الحديثة ووسائل الإعلام المرئية التي باتت مصيرها مهدداً فعلياً بوجود قوة منافسة لقوة الإعلام المرئي، فإذا كان الإعلام المرئي لعب دوراً مميزاً على مدار القرن الماضي، وكان دوره فاعلا في التغيرات التي عصفت في العالم في أواخر الثمانينيات منه، وبعد انهيار جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي وحرب البلقان..

وهنا نرى أهمية الذراع الآخر للقوة الناعمة المتداخل عضوياً مع الحرب الإعلامية والمتمثل في نشر الفوضى البناءة أو الخلاقة وهي تسمية في حد ذاتها تحمل الالتباس بل خداع النظر والذهن عن حقيقتها المدمرة فمصطلح «الفوضى

البناءة «Constructive Chaos» أو «الفوضى الخلاقة Creative Anarchy» مصطلحان ظهرا في مطالع هذا القرن تحديداً في أعقاب أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١م- ليُعبّرا عن توجُّه في السياسة الأمريكية، احتشد لهُ من التنظير والبحث ما أهّلَهُ ليتخذ موقعاً في مصاف النظريات السياسية المكتملة والمتكاملة، وانطلقت الإدارة الأمريكية في إنفاذه دون مواربة أو حرج. وبما أن مخطط «الفوضى الخلاقة» هو من صنف المخططات ذات الطابع الاستخباراتي، التي لا يصلُحُ إسنادُها إلا إلى عناصر المخابرات، فإنهُ يبدُو غريباً بل وغير مسبوق جرأة الإدارة الأمريكية في الإفصاح عنهُ وإعلانِهِ بوصفه سياسة مشرعنة ومعتمدة رسمياً من قبل صانع القرار الأمريكي، على خلاف ما جرت عليه العادة من إحاطة العمليات ذات الطابع الاستخباري، عالمياً، بحجب كثيفة من السريَّة المُظلمة، ولا بُدَّ أنّ هذا الإعلان لم يأتِ زلة لسان أو عفو الخاطر، إذ كان بمقدور الإدارة الأمريكية أن تعمل على إنفاذ سياستها في نشر الفوضى في الشرق الأوسط، بذات السرّيَّة التي تُنجَزُ بها عملياتها الاستخبارية المألوفة، ولكن يبدُو أنّ هذا الإعلان يتخذ دوراً جوهرياً في نجاعة ونجاح مخططات الفوضى «البناءة من وجهة النظر الأمريكية»، وهذا الافتراضُ من جانبنا أملاهُ افتراضٌ آخر هُو استحالةُ أن يكُون مُنظّرو ومفكّرو وخبراء السياسة الأمريكان بالغباء الذي يجعلهُم يُفصحُون عن مخطط ذي طابع استخباري من دون مبرر أكيد لذلك الإفصاح، ولعلّ بعض النظر في طبيعة العمليات التي تنتمي إلى تعريف (الفوضى الخلاقة) يكشِفُ بعض مزايا ذلك الإفصاح.

وواضحٌ أنّ إحدى أهم مزايا هذا المصطلح الشيطاني، هي كونُهُ يحملُ في دلالات اسمه نفسها زُبدة تفاصيله، فإشاعة الفوضى في مجتمع ما، هي عملٌ يُمكنُ أن يتخذ أشكالاً عديدة، وديناميات مختلفة، ويُسفِرُ أيضاً عن نتائج مختلفة من حيث الحجم ومن حيث المترتبات والمآلات، فالفوضى الأمريكية الخلَّاقة يُمكنُ أن تتجلّى في عمليات اغتيالٍ محدودة لشخصيات مؤثرة، منهمكة في ارتباطات وعلاقات وعداوات وخصومات ذات طابع طائفي أو مذهبي، لتكون بمثابة المفتاح لفتنة قد تطولُ وتتشعب ويُنسي بعضُها بعضاً، وتنسخُ نتائجُها مقدماتها، ولا يعدمُ المراقبُ شواهد هذا الصنف من صنوف الفوضى الأمريكية الخلّاقة في المنطقة العربية خلال سنوات العقد الأخير.

لذلك يبدو من الخطأ قراءة الاحتجاجات الشعبية في المشهد العربي بمعزل عن مخطط

الفوضى الخلاقة الأمريكي من دون أن نغفل وجود مناخ لهذه الاحتجاجات ووجود حاجة للتغيير ودون أن ننسى أيضاً القدرة الاستباقية للسياسة الأمريكية في استغلال هذا المناخ لصالحها وإظهار التحولات التي جرت وكأنها تجري رغماً عنها كما حدث في مصر وتونس وهنا تتجلى الخدعة في اختيار مصطلح الفوضى الخلاقة وتسويقه بهالة إعلامية هائلة ليبدو أنّ كل ما يلمع ذهبا وكل ما يجري تحولاً ثورياً يصب في مصلحة الشعب بينما الواقع أن الأصابع الأمريكية هي التي تتحكم بالأمور من وراء ستار كثيف من الشعارات المسبقة الصنع وبدقة متناهية..

لم تجد مؤسساتُ الإدارة الأمريكية المسيطرُ عليها من قبل مخططي سياسات القوة الناعمة حرجاً في الإفصاح عن نواياهم تحت مُسمَّى الفوضى البناءة الذي عبرت عنه بجلاء كونداليزا رايس، في ثنايا حديث لها لصحيفة الواشنطن بوست، في أبريل ٢٠٠٦م، حول تعريف المصطلح وأهميته، قالت: «إن الفوضى التي تفرزها عملية التحول الديمقراطي في الشرق الأوسط في البداية هي من نوع (الفوضى الخلاَّقة) التي ربما تنتج في النهاية وضعاً أفضل مما تعيشه المنطقة حاليا!!».

إنّ إحد أهم مزايا هذه الصيغة الشيطانية، هي كونُهُ يحملُ في دلالات اسمه نفسها زُبدة تفاصيله، الفوضى الخلاّقة «يخربون بيوتهم بأيديهم» يُمكنُ أن يتخذ أشكالاً عديدة، وديناميات مختلفة، ويُسفرُ أيضاً عن نتائج مختلفة من حيث الحجم ومن حيث المترتبات والمآلات، فالفوضى الأمريكية الخلاَّقة يُمكنُ أن تتجلّى في عمليات اغتيال شخصيات مؤثرة، منهمكة في ارتباطات وعلاقات وعداوات وخصومات ذات طابع طائفي أو مذهبي، لتكونَ بمثابة المفتاح لفتنة قد تطول وتتشعب ويُنسي بعضُها بعضاً، وتنسخُ نتائجُها مقدماتها، ولا يعدمُ المراقِبُ شواهد هذا الصنف من صنوف الفوضى الأمريكية الخلاَّقة في المنطقة العربية خلال سنوات العقد الأخير...

في حقبة قديمة قال نيقولا ماكيا فيللي للأمراء في إيطاليا بأن يكون المرء مخوفا أهم بكثير من أن يكون محبوبا، لكن الأمر في عالم اليوم أن يكون المرء مالكا لهاتين الصفتين معاً، فكسب القلوب والعقول مهمّاً على الدوام وتكمن الأهمية القصوى في عصر المعلومات الحديثة الآخذة بنشر المعلومات بشكل واسع أكثر مما كانت عليه طوال العصور الماضية، ومع ذلك ومع شديد الأسف يتفكر الزعماء وفق كيفيات القوة بصورة أدق مما يتفكرون في كيفية دمج الأبعاد الطرية في خططهم الإستراتيجية لاستخدام القوة بنجاح..

وخلاصة الأمر: إننا أمام مرحلة جديدة من عودة القوى المعادية للشعوب للسيطرة على مقدرات العالم من خلال مد قفازات ناعمة إلى كل مكان على امتداد الكرة الأرضية تخفي بداخلها أظافر رقمية تكنولوجية حادة أشد خطراً وفتكا ربما من الأساطيل والبوارج والصواريخ المتطورة جميعها..!!

المراجع

١- كتاب: القوة الناعمة. وسيلة النجاح في السياسة الدولية. المؤلف: jozef. s. nay. نقله إلى العربية: د. محمد توفيق البجيرمي. تقديم: عدنان عباس سلطان..

٢- مجلة السياسات الدولية العدد ١٤٤أبريل ٢٠٠١م.

٣- صحيفة الواشنطن بوست.. أبريل ٢٠٠٦م.

٤- العدد الجديد لمجلة السياسة الدولية يناير ٢٠١٣م.

٥- د وليد خالد أبو دلبوح القوة الناعمة والأبواق الإعلامية الرسمية موقع عمون الأردني ١٢-٨-٢٠١٢م.

٦- كتاب «القوة الناعمة في السياسة الخارجية» لمؤلفه ألن تشونغ وترجمة مهدي ذو الفقاري لدى مؤسسة الإصدارات بجامعة الإمام الصادق.

٧- د.عمر جعوان- القوة الخشنة والقوة الناعمة مجلة السوسنة الإلكترونية تاريخ ٢٠١٢/١٠/١٧م.

الإعلام وقضايا المرأة العربية

نازك عيسى *

منذ انطلاق دعاوى تحرير المرأة العربية في بداية القرن الماضي، بدأت قضايا المرأة تأخذ مكانها في وسائل الإعلام العربية، ومع تطور هذه الوسائل تطورت معالجة قضايا المرأة بأشكال وصور مختلفة، وصولاً إلى عصرنا الحاضر الذي بتنا نشهد فيه العديد من وسائل الإعلام الموجهة للمرأة ومعالجة قضاياها، من مطبوعات صحفية إلى برامج تلفزيونية إلى مواقع على الشبكة العنكبوتية، حتى بتنا نشهد تنافساً في طرح مشاكل المرأة بين هذه الوسائل لكسب أكبر عدد ممكن من الجمهور. ولكن وسط هذا الكم الكبير من وسائل الإعلام التي تبدي اهتمامها بطرح ومعالجة قضايا المرأة العربية، نطرح على أنفسنا سؤال هل تقوم هذه الوسائل بطرح القضايا التي تعانيها المرأة العربية في الواقع؟

أم أنَّ هنالك نوعاً من الانتقائية في المعالجة الإعلامية لمجمل المشاكل والعقبات التي تواجهها المرأة العربية في حياتها؟

يرى كثيرون أنَّ المتابع لهذه الوسائل يلحظ أنَّها تركز على مجموعات معيّنة من القضايا التي يصفها البعض بالنخبوية، في الوقت الذي تغيب عن ساحة المعالجة العديد من القضايا التي ما زالت تعانيها المرأة العربية في العديد من أقطار الوطن

* باحثة من سورية.

العربي، فالمرأة العربية مازالت تُعاني مشاكل الأمية وتأمين الرعاية الصحية، وتأمين تكافؤ الفرص في التعليم والعمل، وصولاً إلى دمجها في الحياة العامة، وتمكينها اقتصادياً وسياسياً، والكثير من القضايا التي غابت عن المعالجة الجدية والفاعلة. في الوقت الذي تطغى قضايا المرأة الشكلية على وسائل الإعلام، فينصبّ التركيز على الأزياء والتجميل، الأمر الذي يدفع المتابعين للشأن الإعلامي إلى اتهام نسبة كبيرة من وسائل الإعلام العربية بأنها تسير في ركب وسائل الإعلام الغربية التي سعت إلى تسليع المرأة، والتكسّب مادياً من طرح القضايا الشكلية التي تخصها، في الوقت الذي تحيد عن بساط البحث والمعالجة العديد من القضايا المهمة التي تُعتبر أولوية لجمهور النساء العربيات.

وعلى الرغم من هذا النقد إلا أنَّ المدافعين عن المشهد الإعلامي الحالي يقولون إنَّ وسائل الإعلام تسعى لطرح القضايا التي يرون أنَّ المرأة العربية تبدي اهتماماً بها عن غيرها، وإنَّهم يواكبون اهتمامات المرأة أيّاً كان شكلها لأنَّ هدفهم كسب أكبر عدد ممكن من الجمهور، لذا فهم يقدّمون ما يطلبه الجمهور.

فلأيّ مدى تفاعلت وسائل الإعلام العربية مع قضايا المرأة؟

وما معايير اختيار القضايا وتحييد غيرها؟ وكيف يمكن لوسائل الإعلام العربية أنْ تصل إلى طرح قضايا المرأة بما يتسق مع واقعها المعاش؟ وما هو الدور الذي يُمكن أنْ تلعبه وسائل الإعلام العربية في تمكين المرأة في المجتمع؟

الإعلام وارتباطاته:

من المعروف أنَّ الإعلام يرتبط بجملة من الشروط الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية، الثقافية، التي تصبغه بنوع وتوجهات الفكر الذي يُعبّر عنه، ويخدم مصالح القوى المتحكّمة فيه. ومن ثم يصبح بديهياً القول: إنَّ المؤسّسة الإعلامية لا تنشأ من فراغ، ولا تعمل إلاّ ضمن الإطار العام المرسوم لها، وضمن الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها. وفي هذا السياق يجب التنبيه هنا على أنَّ الخطاب الإعلامي للمؤسّسة الإعلامية يتأثر بالمجتمع الذي ينتمي إليه، وبما يحمله هذا المجتمع من قيم وأفكار واتجاهات، تُساهم جميعها في تحديد شكل ومضمون الخطاب الإعلامي عبر وصوله إلى الجماهير.

حدث في الإعلام الكثير من المتغيّرات بحيث تحوّل فيها الخطاب الإعلامي، سواء الإعلام الرسمي، أو الإعلام الخاص أو حتى إعلام المواطن العادي، وهذه التغيّرات

والتحـوّلات في الإعلام أوجـدت تنوعاً في الأدوات والمضمون والوظائف.

فعلى صعيـد المرأة العربيـة أعتقد أنَّ هنـاك أكثر مـن امرأة، فهناك المـرأة التي أصبحت نائباً للرئيس كما في سورية، والمرأة التي تفوز بجائزة نوبل للسلام، والمرأة التي بحكم دعوات التمكين السياسي استطاعت أنْ تكون طرفاً في السلطة التنفيذية في كثير من الدول العربية وتحظى بعضوية البرلمان، ولكن على الطرف الآخر هناك المرأة العربية الأميّـة، والمرأة العربية التي تُقتل في جرائم شرف، وهناك المـرأة العربية العاملة والتي لديها الكثير من القضايا التي يُمكن طرحها إعلامياً.

وإذا كان علينـا أن نحاول الاقتراب من مضامين التغطيـة الإعلامية لقضايا المرأة في وسائل الإعـلام، علينا أنْ نُقـرَّ أولاً أنَّ وسائـل الإعـلام تحمل ثقافـة معيّنة، هي ثقافة المجتمع الـذي تنتمي إليه، ليس ذلك فقط، بـل إنهـا أيضاً تتجـاوز مجرد نشر الثقافة السائدة للمجتمع إلى إعادة إنتاجها وتوليدها مرة أخرى، بحيث تُساهم في تأكيد ما هو سائـد، واستبقاء الاتجاهات والقوى المسيطرة على حساب الاتجاهات التنويرية والتغيرية.

إنَّ خصوصية موضـوع المرأة، كموضوع اجتماعي، بمـا تتضمّنه مـن ارتباطٍ وثيقٍ بالموروث الثقافي والديني والاجتماعي، تنبع من تميزهـا بقدرٍ من التعقيـد والتشابك، وحاجتها إلى امتـداد زماني يسمح بالحوار والتفاعل والتراكم البنّـاء، ونضج مجموعة من الظـروف الذاتيـة والموضوعية، وهذا كله يمنحها حركة بطيئـة بخلاف الموضوع السياسي مثلاً.

لقد تزايد الاهتمام في السنوات الأخيرة بتمكين المرأة من حقوقها ودمجها في قضايا التنمية وتنـاول الإعلام مـن خلال برامج ومساحات زمنيـة على خرائط إرسال كافة المحطـات والقنوات لمخاطبة المـرأة بشكل خاص، كمـا اهتـم بوضع المـرأة في إنتاج الدرامـا التلفزيونية من خـلال المسلسلات والأفـلام بهدف طرح القضايـا التي تعوق الاستفادة من كل طاقـات المجتمع وخاصة المرأة، وسوف نتعرض لبعض القضايا التي رصدت الإحصائيات والبحوث والدراسات العلميـة التي تعـد من القضايـا المعاصرة للمـرأة العربيـة والتي تحتـاج إلى اهتمام وسائل الإعلام.

القضايا الاجتماعية:

تحتـوي أجنـدة القضايـا الاجتماعية للمرأة العربية على العديد من القضايا ذات الطابـع الاجتماعي، وتأتـي قضية التمييز الاجتماعي والثقافي ضد المرأة كواحدة من

هذه القضايا التي تترك آثارها السلبية على صورة المرأة في المجتمع.

ويُمثّل الإعلام بقنواته المختلفة مصدراً مهماً من مصادر التمييز الثقافي والاجتماعي ضد المرأة بما يُقدّمه حول المرأة، ولاسيما الأعمال الدرامية من المسلسلات والأفلام والإعلانات الإذاعية والتلفزيونية والسينمائية والصحفية، وطريقة استخدامها في أغاني الفيديو كليب.

وتُقدّم هذه المصادر المرأة في صورة نمطية يغلب عليها الطابع السلبي فهي تظهر على أنها عاطفية معظم الوقت، وعدم استخدامها للعقل والمنطق في حل المشكلات التي تواجهها، وترتبط دائماً بالمنزل، وعدم إلقاء الضوء على نجاحها في ميادين العمل المختلفة، ولا تُشارك في اتخاذ القرارات وعدم المساواة في الحقوق والواجبات كما أنها غير قادرة على عمل توازن بين مسؤوليتها الاجتماعية والمهنية.

وتبرز هنا أهمية الدور المنوط بالإعلام والمؤسّسات المعنية بالدولة، ومنظّمات المجتمع المدني في تعزيز دور المرأة في المجتمع، من خلال نشر مفاهيم المساواة والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وتعزيز مشاركتها في المنزل والعمل والحياة العامة.

القضايا السياسية:

تُعدُّ المشاركة السياسية للمرأة العربية في الحياة العامة وصُنع القرار واحدة من القضايا السياسية التي تفرض نفسها على الحياة السياسية، ففي سورية للمرأة حق التصويت والترشيح، كما يؤكد الدستور على مساواتها بالرجل في ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وعدم وجود أي تمييز بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين. وتنخفض نسبة المشاركة السياسية للمرأة العربية بشكلٍ عام في كلٍ من الريف والحضر، سواء المشاركة على مستوى الترشيح وكذلك المشاركة على مستوى التصويت في الانتخابات التشريعية والنقابية. فالمتتبع لمشاركة المرأة المصرية على سبيل المثال في عضوية مجلس الشعب والشورى والنقابات المهنية والمجالس المحلية؛ يُدرك حجم المشاركة الضعيفة للمرأة المصرية في مواقع صُنع القرار.

ويرجع انكماش المشاركة السياسية للمرأة إلى ارتفاع نسبة الأمية (إضافة إلى الأمية التقليدية هناك الأمية الرقمية) إلى جانب الظروف المجتمعية، وعدم إدراك الحقوق والواجبات بين النساء بأهمية المشاركة السياسية وضعف إيمانها بأهمية دورها السياسي في الحياة العامة.

في ضوء ما سبق يُمكننا اقتراح عدد من التوصيات التي قد تُعزّز موقع المرأة العربية في الإعلام:

• من المهم جداً كأساس معرفي أنْ يتم توفير قاعدة معلومات وإحصاءات متخصّصة في وسائل الإعلام، حتى يُمكن السير على هديها في أية خطط مستقبلية تتعلّق بالمرأة والإعلام.

• ضرورة أنْ تقوم وسائل الإعلام باستطلاعات دورية منتظمة للتعرف على اتجاهات الجمهور واحتياجاته بما فيه الجمهور النسائي وتحديد سماته الواقعية ومشاكله واحتياجاته الفعلية، والاستعانة بها في رسم وتحديد التوجهات العامة للسياسة الإعلامية في مجال الإعلام النسائي.

• التوسع في عقد الدورات التدريبية وحلقات النقاش المركزة والموسعة للإعلاميات والإعلاميين على حدٍ سواء فيما يتعلّق بقضايا المرأة.

• تفعيل دور الإعلام المستقل المرتبط بمؤسسات نسوية، مع إعطاء دور أكبر للمرأة في القيام بدورها الإعلامي.

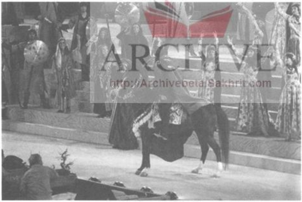
• إتاحة الفرصة كاملةً أمام الصحافيات للاستفادة من المنح التعليمية ذات الصلة والدورات التدريبية محلياً وعربياً ودولياً.

• تمكين الإعلامية من الوصول إلى مناصب صنع القرار في المؤسّسات الإعلامية، من خلال توفير الفرص والخيارات أمامها، من أجل تطوير قدراتها المهنية والعملية.

إشراك المرأة الإعلامية في السياسات الإعلامية وفي التخطيط للبرامج الإعلامية، وتشجيع الدراسات والبحوث المتخصصة بأوضاع المرأة في المجتمع بما فيها الإعلام، من أجل إعداد كادر نسوي على قدرٍ عالٍ من الكفاءة والمعرفة المهنية المتخصّصة.

الموسيقا والغناء في لبنان

هاشم قاسم *



حافظت لبنان منذ سقوط الإمبراطورية العثمانية عام ١٩١٨م مثلها مثل باقي ديار الشام على تراثها الموسيقي والغنائي الشعبي إلى جانب ما ورثته من أغانٍ وألحان تركية يأتي في مقدمتها قوالب التأليف الموسيقي التركي من «بشارف» و«سماعيات» و«لونغا» حتى مستهل سنوات الأربعينيات، عندما بدأت الأغنية الريفية اللبنانية المشابهة للأغنيات الريفية في بلا

* ناقد وباحث موسيقي من لبنان الشقيق.

الشام تطغى وتحتل ذاكرة الناس ولاسيما في الجنوب والبقاع والجبل من دون أي تغيير أو تطوير في ملامحها التراثية، والمقصود بالأغنية الريفية الأزجال الشعبية كالمعنّى والقرادي والموليا والدلعونا وغيرها، والسمة البارزة لهذه الأغنية إنها غير احترافية، أي إنها كانت أغنية الأفراح والأعراس والمناسبات المختلفة، والصقل

الفني لهذا النوع من الغناء الشعبي التراثي بدأ منذ خمسينيات القرن العشرين، إذ امتدت يد الموسيقيين المحترفين لتعمل فيها تطويراً وتحديثاً لإيجاد صيغة فنية تلائم العصر والحياة والمستجدات الاجتماعية.

وتعتبر أغاني «الدلعونا» أكثر الأغاني الشعبية انتشاراً في الريف اللبناني، وهي تغنى بأساليب وإيقاعات مختلفة، فدلعونا الجنوب ندّية طريّة ذات طابع حزين بينما دلعونا البقاع فرحة منتشية تحمل نبضاً فروسياً، بخلاف دلعونا الجبل التي تحتضن القوة والنبرة الحاضرة.

ومنذ مستهل ستينيات القرن العشرين دخلت على الأغنية الشعبية التراثية عناصر عدة، غيّرت من طبيعة الأزجال من دون أن تمس الايقاعات والأوزان لتحولها إلى فن غنائي يعبر عن الناس أو عن شخصيات عامة. والموسيقيون المحترفون الذين عملوا على تطوير هذه الأزجال وتحديثها، كانوا على درجة عالية من الشفافية والتقنية ويأتي في طليعتهم الأخوان رحباني وتوفيق الباشا وفيلمون وهبي وشعراء كبار من مثل أسعد سابا وأسعد السبعلي وعبد الجليل وهبة، وزين شعيب وغيرهم.

وفي ثلاثينيات القرن العشرين، وعلى خط مواز تقريباً، ظهرت الأغنية المدينية مع انتشار الأغنية المصرية التي بدأ الوسط البيروتي بالتعرف إليها من خلال الإذاعة المصرية (ماركوني) والأسطوانات والجوقات المصرية التي كانت تزور بيروت وتقيم الحفلات فيها، وأيضاً من وراء الأفلام الغنائية لمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم ونادرة وعبد الغني السيد ونجاة علي وغيرهم.

ولايعني هذا أن الأغنية المدينية كانت وليدة الأغنية المصرية، إذ ظهرت قامات فنية لبنانية لعبت دوراً في صوغ الأغنية اللبنانية الحديثة، ويعتبر عازف الطنبور الشهير محي الدين بعيون كملحن ومطرب أوّل من لحن القصائد حينذاك كقصيدتي «أيا قمراً»، و«أمان من لواحظك الفواتر»، كذلك لحن الموسيقي المتميز يحيى اللبابيدي عدداً من الطقاطيق، اشتهرت منها طقطوقة «ياريتني طير» التي غناها أولاً سلامة الأغواني ومن ثم فريد الأطرش وعندما ترأس الدائرة الموسيقية لإذاعة القدس عام ١٩٣٦م

احتضن وساعد عشرات من الفنانين منهم يوسف حسني وماري عكاوي، وفي الفترة نفسها برز عمر الزعني كشاعر انتقادي كبير عندما كرس فن المونولوغ الانتقادي الاجتماعي السياسي للحاجات الاجتماعية والسياسية والنقدية والاقتصادية، قاوم من خلالها الانتداب الفرنسي من أشهرها «لو كنت حصان» و«حاسب يا فرنك» و«بدنا بحرية ياريس»، ولابد هنا من الإشارة إلى تأثير بديع خيري وبيرم التونسي عليه إضافة إلى تأثير ألحان سيد درويش النابضة بالحياة.

من الفنانين الكبار الذين لعبوا دوراً كبيراً في نشأة الأغنية المدينية وتطويرها نقولا المني رائد الأغنية الشعبية المدينية الدارجة وقد غنت له المطربة لور دكاش عدداً من هذه الأغنيات وبعض القصائد منها أغنية مادام الساعة وقصيدة ياقلب، كذلك غنت له صباح عدداً مماثلاً من أشهرها «ياهويدلك».

وبعد نقولا المني ظهر فيلمون وهبي في لون الأغنية الشعبية المدينية الدارجة فغنى ولحن مجموعة من الأغاني الرائعة لصباح وفيروز، وفي الوقت نفسه لمع في تلحين الموشحات والقصائد ولاسيما الأغنية الرومانسية.

عازف الكمان الشهير خالد أبو النصر الذي غنت له زكية حمدان السورية بعض روائعه من مثل «خلقت جميلة» و«سلمى» والملحن زكي ناصيف رائد التحديث الذي تناول الألحان الفولكلورية والمادة الموسيقية الشرقية ووضعها في قالب حديث ومتقدم.

وبموازاة ذلك ظهرت منذ منتصف خمسينيات القرن العشرين الأغنية التي لبست ملامح حداثية من حيث استخدام الأوركسترا والهارموني البسيط والتقنية والألحان التراثية العربية بفضل الأخوين رحباني وأصوات فيروز وحنان ونصري شمس الدين ووديع الصافي وملحم بركات وإيلي شويري وغيرهم.

وإلى الأخوين رحباني وهذه الطائفة من الأصوات ترجع ولادة المسرح الغنائي الذي كان جديداً في مواضيعه التي تناولت أوجاع وأمراض لبنان والأمة العربية، وقد احتلت خمس وعشرون مسرحية غنائية من أعمال الرحابنة مكانتها في هذا المناخ التجديدي لتغدو مادة للتحديث والتجريب على كل جديد

وإذا كانت التجربة الرحبانية واحدة من قمم التجديد والتحديث فلأنها قربت الموسيقى من المستمع وسلحته بالثقافة والموسيقى في مادتها الشرقية وصيغتها الغربية، ولابدّ من الإشارة إلى أن مهرجانات بعلبك الدولية ساعدت في انتشار الأعمال

الرحبانية في الوطن العربي على نطاق واسع، كذلك الأمر بالنسبة لمسرح مدينة معرض دمشق الدولي الذي احتضن أعمالهما، وقد ساعدت مهرجانات بعلبك ومسرح معرض دمشق الدولي في دعم الأوركسترا الكبيرة التي غدت عاملاً أساسياً في تقديم الموسيقى والغناء.

وإلى جانب الأخوين رحباني برز من الأسرة الرحبانية إلياس الرحباني الذي اهتم بالأغنية الغربية وإيقاعاتها مع مغنيه المفضل سامي كلارك أكثر من اهتمامه بالموسيقى الشرق عربية، بخلاف زياد رحباني بن عاصي الرحباني الذي حمَّل موسيقاه أبعاداً متعددة بدءاً من الفرح وانتهاء بالشجن والحزن والمعاناة، كذلك نجد أن غدي رحباني بن منصور رحباني قد تجاوز بموسيقاه الإطار المحلي إلى العالمية.

الموسيقار توفيق الباشا الذي حورب كالموسيقي عبد الغني شعبان من قبل المحافظين في البداية، استطاع منذ أواخر أربعينيات القرن العشرين أن يشق طريقه ويعمم أعماله عبر إذاعة الشرق الأدنى - لندن اليوم - وكان أحد نماذج «مدرسة بيروت» التي شجعها محمد عبد الوهاب، وأعماله الموسيقية تأخذ بعداً موسيقياً بحتاً من خلال استخدامه الأوركسترا والتقنيات الحديثة، وقد تمكن بعد تأسيس المعهد الموسيقي في الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٥١م، وولادة فرقة الشرق الأوسط للباليه من تقديم موسيقى «المولد» على سيناريو كتبته رئيسة الفرقة «كرام كوك» العالمة في فنون وآداب الشرق الأوسط، في مزج عناصر من الموسيقى الفارسية بالموسيقى العربية، وتعتبر أعماله في القصيد السيمفوني من مثل «بيروت ١٩٨٢» التي صورت الاجتياح الإسرائيلي للبنان، وسيمفونية السلام عام ١٩٨٥م والإنشادية النبوية عام ١٩٩٠م من أهم أعماله الأوركسترالية.

كما أن ابنه عبد الرحمن الباشا الذي يمارس نشاطه بين لبنان وباريس هو واحد من أبرز العازفين والمؤلفين في أوروبة اليوم.

ومن مؤلفي الموسيقى المتميزين الأب يوسف الخوري مؤلف السيمفونية الشرقية، وسلفادور عرنيطة الذي كان أكاديمياً متوراً أكثر منه مؤلفاً، وبوغوص جلاليان الذي كتب عدداً كبيراً من المؤلفات للبيانو ولآلات أخرى بالأسلوب الغربي، ود.وليد غلمية الذي وضع سبع سيمفونيات منها المتنبي والقادسية، وقد دعته وزارة الثقافة السورية ليقود الفرقة الوطنية السيمفونية أكثر من مرة في قصر المؤتمرات في دمشق. ومن المؤلفين الموسيقيين بالأسلوب الغربي من الذين أصبحت لهم شهرة عالمية بشارة

الخوري حفيد الشاعر الكبير الأخطل الصغير وجمال أبو الحسن وغبريال يارد ووليد حوراني وغيرهم.

وفي مجال الغناء والموسيقى الشرق عربية لمعت أسماء كان لها الدور الفاعل في تطور الغناء والموسيقى معاً، منها وديع الصافي الذي لعب صوته وأداؤه دوراً كبيراً في تمدين الأغنية الريفية، وفي مناخ وديع الصافي ظهرت خامات صوتية استثنائية مثل نور الهدى فيروز وحنان ونجاح سلام ونهاوند وصباح ونصري شمس الدين وسعاد هاشم وجورجيت صايغ وعصام رجي وغيرهم.

أمّا المطربة سعاد محمد فكانت المنارة التي أضاءت بصوتها وأدائها على الوطن العربي من وراء ألحان حليم الرومي والملحنين السوريين ولاسيما محمد محسن ومحمد عبد الكريم، والملحنين المصريين، ومثلها محمد مرعي وفؤاد زيدان اللذان ظهرا قبل وديع الصافي واستمرا كمطربين ناجحين حتى اعتزالهما.

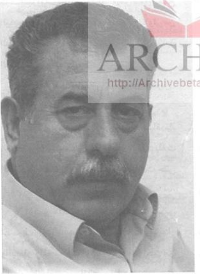
وعلى صعيد الموسيقى العربية والتلحين، فإنّ الملحن فريد غصن ملحن أغنية «آمنت بالله» قد اختار القاهرة لنشاطه الموسيقي، وإليه يعود الفضل في تأسيس جمعية المؤلفين والملحنين. والملحن محمد سلمان صاحب أغنية «سورية ياحبيبتي» لحن عدداً كبيراً من الأغنيات لأكثر المطربين والمطربات اللبنانيات.

وفي ستينيات القرن العشرين ظهر الملحن والمطرب محمد جمال الذي كان لبصمته الغنائية حضوراً في ألحانه حتى اليوم، كذلك لمعت أسماء سامي صيداوي وموسى حلمي ورفقي الأفيوني في تلحين وأداء المونولوغ الانتقادي وسهام رفقي كرائدة للأغنية الشعبية الدارجة بفضل ملحنها السوري عبد الغني الشيخ.

أمّا أسرة «سحاب» المهتمّة بالمدرسة المصرية في الموسيقا والغناء، فبرز منها سليم سحاب الذي درّس في موسكو، وابتعد عن الموسيقى الغربية إلى الموسيقى الشرقية التي ألّف وأثرى بمؤلفاته الموسيقى العربية قبل أن يتولى في القاهرة قيادة فرقة الموسيقى العربية، وأخوه د.فيكتور سحاب، المؤرخ الموسيقي الذي تعتبر مؤلفاته مرجعاً هاماً، وأسرة سحاب تصدر مجلة «المصباح» الموسيقية، وتساهم مساهمة فعالة في إحياء التراث الموسيقي العربي.

مع المخرج والكاتب ريمون بطرس

إعداد وحوار: حسني هلال ✿



مخرجٌ، قلّما تكلم عن السينما..

كاتبٌ، نادراً ما تكلم عن الكتابة..

نحاتٌ، أحياناً يتكلم عن الفن..

ومتكلـمٌ، دائماً يعرف أيـن يمسك عن الكلام.

صلبٌ قويّ الحجّة والشكيمة، فقد يظنه البعض محامياً..

وبسيـط طيب القلـب والطويّـة، فقد يحسبه البعض جاهلاً..

مثقفٌ، لم تسرقه علومه من هموم العامّة والوطن..

إنه.. ريمون بطرس..

✿ أديب وصحافي سوري

الذي غرس فيه مؤذن «الجامع الكبير» في حماة، حب الله والموسيقى، وزرعه خوري كنيسة «سيدة الدخول» في محبة الناس والجمال.

ريمون بطرس.. الذي طرحنا عليه سؤالنا الأوّل عن بداياته مزمعين محاورته حول همومه وهواياته وأفلامه. فكان «فيلمه» معنا، أن دخل بنا في بداياته ولمّا يخرج!:

- في أواسط القرن الماضي وما قبل، عندما كانت القرويّات يصنعن الأطباق من سوق القمح اليابس بعد ترطيبها. كنّ في الأدوار الأولى من العمل، يصنعن ما يدعى بـ البدوة، وهي بمثابة الشكل المصغّر للطبق الكامل.

فهل كان في بدوة وطفولة «ريمون بطرس» ما يشير إلى ما سيكونه، مستقبلاً؟

• بدوتي كانت في مدينة حماة، في أحضان «العاصي» ونواعيره. لقد بلغت الثانية والستين من عمري، ومازلت حتى اليوم أشعر بدفء ماء العاصي.

لا أذكر متى تعلمت السباحة. لكني أعرف أنني سبحت في كثير من الأنهار والبحار والمحيطات، ولم أجد أدفأ وأحنّ من ماء نهر العاصي. الذي مازلت أستمد منه معظم أفكاري وكتاباتي.

بدوتي عند نواعير حماة العالية، التي ماتزال تحكي لي قصص الحب والعشق والشعر والموت والدم، التي جرت في المدينة.

أحب اللون الأحمر، ولكني أحب الرمان الحموي الأحمر، أكثر.. أحب تعانق الأشجار. ولكني أحب تعانق أشجار صفصاف العاصي أكثر..

بدوتي كانت من الجامع الكبير في حماة..

من مئذنتيه السامقتين وباحته العظيمة..

من أقواسه وأعمدته الشامخة وبحرته الرحبة..

من صوت مؤذنه «أبو عدنان» صادحاً - من مقام الحجاز-: الله أكبر.. الله أكبر.. اليوم عُلّق على خشبة،

كان أبو عدنان صاحب صوت جميل يحبب الناس بالله.

بدوتي كانت بدراستي مرحلتيّ الإعدادي والثانوي في رحاب الجامع الكبير، لأنني لم أستطع الدراسة وسط عائلتنا المؤلفة من عشرة أشخاص موزعين على غرفتين صغيرتين. فكنت أقرأ دروسي وأراجعها في أفياء الجامع الكبير وكنيسة «سيدة الدخول» التي لا تبعد عنه أكثر من ٥٠٠م، حيث كان الخوري «رفائيل باشا» صاحب الصوت،

الذي يحبب سامعه بـالله وبالأديان والبشر كافة.

كنـت أشعر برهبة الإيمـان، وأحب الله والمسيح عندمـا ينشد رفائيـل: اليوم عُلِّق على خشبة، كما عَلَّق الأرض على المياه.

نعم الله جميل ويحب الجمال، والصوت الجميـل يحبـب النـاس بـالله وبالحيـاة وببعضهم بعضاً. أمّا الأصوات البشعة قولاً وفعلاً وقتلاً وتدميراً وتفجيراً وسفك دماء، فتجعـل الناس يكرهون الديـن والدنيا وما عليها.

دمشق أعادت صياغتهم

.في سوريـة كانـت هنـاك حضارات عظيمـة منذ أيام الآلهـة المتعددة: حضارة ماري - على سبيل المثال - وإيبلا وأوغاريت وعمريـت وأفاميـا وتدمر وبصـرى. كانت مئـات وآلاف مـن الآلهة. كآلهـة الخمر، والعشق، والحب والقمر والشمس والخصب وآلهة النجوم.. إلخ. منذ ذلك الوقت في ظل الآلهة المتعددة (ماقبل الإله الواحد الأحد) كانت سورية عظيمة.

أنا سـوري حتى العظم وأستمد سوريتي من الحضـارات التي تتالت علـى سورية. علـى الرغم من مرور ٣٦ غزوة عليها بقيت سورية شامخة. وخلال عشرة آلاف عام كانت سورية تعيد صياغة الغزاة بفكرها وتاريخها وحضارتهـا. هم أتـوا غزاة، لكـن دمشق أعـادت صياغتهم بشراً يحبـون الياسمين والورد، ويعشقون بردى والعاصي والفرات.

بدوتي في مدينة حماة. بين نهر العاصي والنواعـير، مازلت حتى هذا اليوم الشتوي، وأنـا في الـ٦٢ من عمـري أشعر بدفء ماء العاصي.

بدوتي عند نواعير حمـاة العالية، التي كانت على مدى السنـين تصدح بمواويلي. التي ماتزال في ذاكرتي ومسامعي.

عندمـا كان رفائيـل يرتـل في الكنيسة بصوتـه العظيم. كنـت أشعـر -وأنا طفل آنـذاك- برهبـة الكلام، وعلى مـا أعتقد اليوم، أنَّ شعور كل المصلين آنذاك، كان مثل شعوري.

لا أصنع أفلاماً عادية

ربما أنا واحد من قلـة من الأشخاص، الذين يشمون رائحة الحجر ويرونه ويقرؤونه جيداً، وعندما أمـر بأزقة حماة، أنا لا أرى الحجر فقط، بل أرى حياته مع الناس:

كـم مرّ من هنا في أزقة حيّ «الطوافرة» من عشاق وعاشقـات.. شعراء وشاعرات.. قتلة ونبلاء. كم مرّت منه نساء مضطهدات. وكم ذل فيـه رجال ونسـاء.. وكم سيطرت بساطير.

عندمـا أمـرّ مـن أزرقة حمـاة، أغدو

شاهداً على تاريخ بكامله من العشق والظلم والسيطرة معاً، وعلاقتي بالحجر هي علاقة عائلتي به منذ مئات السنين. لأنّ أبي وجدّي وجدّ جدّي حجّارون. نحن بكل تواضع ساهمنا في بناء مدينة عظيمة اسمها «حماة» بأبنيتها وقصورها وجوامعها وكنائسها. ووالدي هو النحات الذي زخرف عشرات المساجد في حماة.

أنا لا أصنع أفلاماً عادية بل أنحتها بالضوء والظل واللون والتكوين والفكرة والمشاعر والأحاسيس.. وذلك لأنني بالأصل نحات. فأفلامي منحوتة من الحياة والواقع وأتمنى أن يعبر ما قدمته من أفلام عن هذه الفكرة.

حتى الآن لم أنحت سوى القليل القليل من الأحلام المسجونة في رأسي وأتمنى أن أعيش قليلاً كي أخرج إلى النور حلماً مسجوناً واحداً على الأقل.

في أيلول عام ١٩٧٠م غادرت ميناء اللاذقية على ظهر الباخرة «أرمينيا» باتجاه الاتحاد السوفييتي سابقاً. استمرت الرحلة ثمانية أيام وكانت أحلامي السينمائية أوسع كثيراً من البحار التي عبرتها في هذه الرحلة وأوسع من السماوات التي عبرت الباخرة تحتها.

فقضيت ٦ سنوات في معهد السينما بمدينة (كييف) عاصمة أوكرانيا). والآن وبعد مرور ٤٢ عاماً أقول وبصوت واضح جداً وبحزن شديد: إنني لم أحقق من أحلامي السينمائية التي كانت تعانق السماء أيام زمان إلا أقل من القليل.

وهذا لا ينطبق عليّ وحدي. بل ينطبق على آلاف بل مئات آلاف بل ملايين من السوريين الذين كانوا يحلمون وهم الآن في طريقهم إلى نهاياتهم من دون أن يحققوا جزءاً يسيراً من أحلامهم وفي ذلك سقوط مريع لأحلام الوطن.

حسيبة: هو الفيلم الوحيد الذي لم أكتبه بالأصل بل كتبت سيناريو له عن رواية لخيري الذهبي تحت العنوان ذاته. وما بقي كلها كتبتها بقلمي ومن فكري وصياغتي وتجربتي.

صهيونية عادية: هو قراءة في فكرة شعب الله المختار. إذا كان الله قد اختار اليهود ليكونوا هم الشعب المختار، مع كل القتل الذي مارسوه ويمارسونه بحق الشعب الفلسطيني. فأنا أعتذر من الله.

عندما تهب رياح الجنوب: عن حياة طالب سوري ومعاناته خلال حرب تشرين. في مدينة كييف.

الشاهد: عن حضارات الشعوب على ضفاف العاصي، وكل نهر هو مركز حضارة.

أحاديث الحجر: هـو رؤية تاريخية عن فن النحت السوري خلال ثمانية آلاف عام.

همسات: هو رؤيـة للفن التشكيلي بكل مـا فيه في سورية خلال مئة عام من ١٩٠٠ إلى ١٩٩٩ م.

ملامح دمشقية: رؤيـة في تاريخ دمشق على مدى ثمانية آلاف عام.

الترحـال: عن النـزوح الفلسطيني عام ١٩٤٨م إلى مدينة حمـاة حيث تمَّ استقبال النازحـين في محطة قطار حماة وفي كنيسة السريان وكنيسة الـروم الأرثوذكس وجامع النوري والجامع الكبير.

لسان حال الوطن

بدأت العمل في الصحافة عام ١٩٦٨م.. أوّل مقالـة كتبتها عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري في جريدة الفداء الحموية. وكانـت عن فيلم «رومـيـو وجولييت». الذي شاهدتـه في سينمـا «الشـرق» في حمـاة وأرسلت المقالة بالبريـد إلى الجريدة. لقد سررت جداً بتلك المقالة، واستمريت بالكتابة حتـى نهاية عام ١٩٧٠م حيث سافرت إلى الاتحاد السوفييتي. بعد عودتي إلى سورية، عملت في الإذاعة السوريـة محرراً صحفياً باللغـة الروسيـة ومعداً لبرنامـج أسبوعي بعنوان «بانورامـا ثقافية» استمر ذلك حتى عـام ١٩٨٧م كتبت في كثير من الصحف في سورية ولبنان. كما قدمت عشرات نصوص التمثيليات للإذاعة. فأنا أكتب بالصورة كما وأكتب بالكلمة.

ترجمت أكثر من ١٠٠ فيلم من الروسية إلى العربية وعرضت جميعها على التلفزيون العربـي السـوري، هذا عدا عـن الأبحاث والمقالات. وكنت المساهـم الرئيسي بإعادة تأسيـس جريـدة النـور، جريـدة الحزب الشيوعـي السوري عام ٢٠٠١م، بعد إيقاف دام أكـثر مـن أربعين عاماً. وهـي جريدة سياسيـة ثقافية ناطقـة بلسان حال الوطن والشعـب والسوريـين وليـس بلسـان حال اللجنة المركزيـة للحزب الشيوعي السوري. وكان ذلك ما اقترحته وأصريت عليه.

الفن الأعظم

السينما حالياً ومنذ مئة عام هي ديوان العـالم، كونها الفن الأكـثر تأثيراً على أفكار وعواطـف ومشاعـر الناس.. هـي الإبداع العظيـم الذي لـه حضور متميـز في حياة البشرية، فمـن سيقرأ اليـوم –على سبيل المثال–، رواية من كذا مئة صفحة؟

لقد اخترقت السينمـا عبر أكبر أدواتها «التلفزيون» سائر البيوت والخلوات والأماكن من دون طلب أو إذن من أحد.

إنَّ السينما هـي الفن الأعظم تأثيراً في المواطنين هكذا قال «لينين» في عام ١٩١٧م.

وللأسف الكبير بعد مرور أكثر من قرن على ظهور السينما عام ١٨٩٦م لم تحقق السينما الوطنية «الإنتاج الوطني» الحضور المطلوب عندنا. مع احترامي للكثير من المسلسلات المحلية باعتبار التلفزيون سينما صغيرة.

المسرح والحياة

نصّ «الحرب والسلم في برّ مصر» للكاتب «يوسف القعيد» هو تجربتي المسرحية الوحيدة، بالتعاون مع الفرقة المسرحية بجامعة تشرين في اللاذقية عام ١٩٨٣م، وقد عملنا معاً شباناً وصبايا على النص وحولناه إلى مسرحية.

سافرت من دمشق إلى اللاذقية لمدة ٣ أشهر، حيث عرضنا المسرحية هناك، ثم رجعنا إلى دمشق، لنتابع عروضنا فيها، وننتقل بعدها إلى بقية المحافظات.

كنا عدداً من المتطوعين للمسرح شبان وشابات منهم: خالد ديب.. محمد حرفوش.. جمال عمران.. يحيى عجان.. هاشم أبو كفّ.. سلام حمود.. وفاديا سفلو.

من هؤلاء الآن، مَنْ هم أطباء ومهندسون وأساتذة جامعات.. ومازلت على علاقة صداقة معهم، ونتهاتف ونجتمع بين وقت وآخر. لقد رسّخنا عبر مسرحيتنا تلك، فكرتيّ العمل الجماعي والصداقة.

أتمنى أن تكون لي تجربة مسرحية أخرى، مع هؤلاء الأصدقاء. أرجو أن يوافقوني على ذلك، وفي اللاذقية حصراً، كونهم جميعاً من هناك. هذه رسالة من ابن حماة ريمون بطرس، إلى أصدقائه في اللاذقية.

في بدوتي:

عندما كنت أوصل طعام الغداء لوالدي في الورشة، أذكر كيف كان بالمطرقة والإزميل يحوّل الحجر إلى قطعة فنية رائعة، كان ينقش مع رفاقه في الحجر تاريخاً للبلاد.

مازلت أذكر كيف كان يتعامل مع الحجر نقشاً ويقول الشعر زجلاً، أي كان ينقش في الحجر وفي الكلمة معاً.

شكراً لك يا أنطانيوس بطرس لأنك كنت نحاتاً عظيماً..

شكراً لك لأنك كنت شاعراً فريداً..

وشكراً لك لأنك كنت عاشقاً للنساء ولحماة بعاصيها ونواعيرها.

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ✿

د. لبانة مشوّح وزيرة الثقافة تفتتح رواق العربي:

افتتحت الدكتورة لبانة مشوّح وزيرة الثقافة رواق العلّامة محمد سعيد العربي عضو مجمع اللغة العربية بدمشق الواقع في حي القنوات نزلة التعديل.

ويتضمن هذا الرواق مجموعة من الغرف التي ستؤمن المستلزمات الأساسية لتنشيط الفعل الثقافي المجتمعي عبر تأمين إصدارات الهيئة العامة السورية للكتاب والتي بالإمكان قراءتها ضمن الرواق إضافة إلى استعادة طقس الكتاتيب ولكن بنكهة معاصرة حيث سيجتمع الأطفال في أحد الأركان ليقوم الشيخ بتعليمهم أشياء تنخرط ضمن اهتماماتهم اليومية فضلاً عن توفير أماكن لإقامة بعض الفعاليات التراثية مثل الحكواتي وصندوق الفرجة إضافة إلى غرفة مخصصة للموسيقا.

وقالت الوزيرة مشوّح في إطار هذه المناسبة: أرادت عائلة العلّامة العربي أن تخلد ذكراه وذلك ضمن مشروع وطني تقوم من خلاله بالمساهمة في إحياء التراث واستخدام هذا التراث في تطوير الفكر الثقافي ونشره في الأحياء الشعبية لدمشق العريقة بتاريخها وحضارتها والتي نعول عليها كثيراً في إعادة بناء الإنسان فكراً وثقافة وقيماً.

وأوضحت وزيرة الثقافة: أنَّ عائلة العربي تكفلت بإعادة تأهيل هذا المكان بكل ما فيه من تحف فنية وقطع تراثية نادرة

✿ أديب وباحث في التراث العربي من (سورية).

ليكون رواقاً للثقافة والتراث يحقق عدة وظائف مهمة جداً منها أنه سيكون داراً للقراءة ومكاناً لاستقطاب الأطفال ليقرؤوا ويتعلموا مهناً يدوية بسيطة كالحفر على الخشب والخط العربي لافتةً إلى أنَّ عائلة العربي أدخلت الحداثة إلى هذا المكان جامعة بين التراث العريق والحداثة والثقافة التي ينجذب إليها الأطفال.

وأضافت الوزيرة مشوّح: أنَّ الرواق سيتضمن أيضاً مكاناً لبيع إصدارات الهيئة العامة السورية للكتاب التي ستوافي الرواق بكل مطبوعاتها منذ عقدين وحتى الآن مبينةً أنها تعول على هذا المكان في بث الروح الثقافية وحب التراث والتمسك بالهوية من أجل بناء مستقبل أفضل.

وقالت الوزيرة مشوّح: من الضروري جداً الاهتمام بتاريخنا وتراثنا ولاسيما من قبل جيل الشباب لأنّ تاريخنا مليء بما هو مشرِّف مؤكدة أنَّ من مهمات الثقافة تعزيز الشعور الوطني والانتماء إلى الأرض والهوية وبناء فكر واعٍ ومنفتح على الآخر ومتنور لافتة إلى أن التراث يعطينا ثقة أكبر بأنفسنا وحساً جمالياً من دون أن يعني الانفصال عن عناصر الحداثة كالحاسوب مثلاً بل ينبغي أن نكوّن سلسلة بين الماضي والحاضر والمستقبل.

ورافق الافتتاح توقيع كتاب قبسات من فكر العلّامة محمد سعيد العربي الذي جمعه وأعده ابنه حيدر العربي الذي أوضح في مقدمته أنَّ العلامة ولد في مدينة دير الزور عام ١٨٩٦م وعمل مفتياً لوادي الفرات وانتخب عام ١٩٤٢م عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق وكان خطيباً مفوهاً وكاتباً بارعاً يجيد بضع لغات، وترك عدة مؤلفات منها: سر انحلال الأمة العربية ووهن المسلمين.. مبادئ الفقه الإسلامي العبادات.. موجز سيرة خالد بن الوليد.. وكتاب (هتلر والعرب المسلمون).

كما ساهم العلّامة العربي في الثورة السورية الكبرى وفي ثورة عام ١٩١٩م التي قامت بدير الزور ضد الاستعمار البريطاني وحارب الفرنسيين فأبعدوه منفياً إلى أنطاكية ثم إلى مصر وانتخب للمجلس النيابي السوري بعد عودته عدة مرات وكان عضواً في مؤتمر الوحدة العربية المنعقد في مكة المكرمة عام ١٩٢٢م.

أمَّا بالنسبة لحياته الوظيفية فبدأها عاملاً للنسيج ثم مدرِّساً وكلف مديراً

للمعارف بالوكالة في دير الزور وعمل محامياً للخزينة وكلف بمديرية المالية ثم عين المدرِّس الأوَّل في المدينة ذاتها ثم رئيساً للجنة الأوقاف وفي عام ١٩٣٩م انتخب مفتياً لمحافظة الفرات كما انتخب عام ١٩٥٠م عضواً في المجلس الإسلامي الأعلى في سورية وترأسه بعد عام.

تجدر الإشارة إلى أنَّ افتتاح رواق العلّامة محمد سعيد العرفي يأتي بعد أن تمَّ افتتاح دار عدنان مردم بك مؤخراً في حي الحريقة ويندرج هذان الافتتاحان ضمن مشروع دور القراءة الذي يعتبر أحد أهم المشاريع التي تعمل وزارة الثقافة على إنجازها في المرحلة الحالية.. ومن أهم أهدافه نشر ثقافة القراءة وتكريسها كجزء من حياة الشباب والناشئين بشكل خاص وفي المجتمع عموماً واستعادة الكتاب لمكانته كمصدر أساسي من مصادر الثقافة والمعرفة.(١)

موسوعة الممثلين العرب:

عن الهيئة المصرية العامة للكتاب صدرت موسوعة الممثلين العرب، وتقع في ٦١٥ صفحة من القطع الكبير، وهي مزودة بصور للممثلين من بعض أفلامهم. وبصور من أفلام الأبيض والأسود.

وقال مؤلف الموسوعة الكاتب محمود قاسم أنه أنفق سنوات طويلة، وواجه صعوبات كبيرة في جمع مادة الموسوعة نظراً لوجود كثير من الأجانب والعرب الذين قاموا بأدوار في الأفلام المصرية إضافة إلى عمل ممثلين مصريين في أفلام عربية.

وأضاف: أنَّ من الصعوبات أيضاً عدم وجود مادة كافية عن حياة الممثل الذي «يسوؤه دائماً ذكر تاريخ ميلاده الحقيقي... الكثير من المعلومات عن الفنان مبتسرة» إذ لم يحصل بعضهم على شهادات مرموقة وتتسم السير الذاتية بالضبابية كما يحمل الممثل أحياناً اسماً مستعاراً لأسباب عائلية مثل أحمد مشرقي (١٩٠٦-١٩٨٦م) وهو «الاسم المستعار للمخرج توجو مزراحي حيث عمل بهذا الاسم خوفاً من أبيه» ومزراحي مخرج أفلام «ليلى» و«ليلى في الظلام» لليلى مراد.

وتكشف الموسوعة أن بعض مخرجي الأفلام والمسلسلات التلفزيونية عملوا بالتمثيل ومنهم مخرج الدراما المصري أحمد توفيق (١٩٣٠-٢٠٠٥م) الذي مثَّل في أفلام من كلاسيكيات السينما المصرية منها «القاهرة ٣٠» لصلاح أبو سيف، و«شيء من

الخوف»، و«ثرثرة فوق النيل» لحسين كمال، و«ميرامار»، و«على من نطلق الرصاص» لكمال الشيخ.

وتلقي الموسوعة أضواء على ظواهر منها ارتباط عمل ممثل بمخرج معين فلا نكاد نراه يشارك في أعمال لمخرجين آخرين مثل الممثل المصري أحمد محرز (١٩٤٩-٢٠٠٨م) بطل فيلم «عودة الابن الضال» ١٩٧٥م ليوسف شاهين إذ شارك محرز في فيلمي «إسكندرية ليه» ١٩٧٩م و«حدوتة مصرية» ١٩٨٢م لشاهين واختفى ١٩ عاماً ثم شارك عام ٢٠٠١م في فيلم «سكوت ح نصوّر» لشاهين وهو الفيلم الوحيد الذي مثلت فيه المطربة التونسية لطيفة.

كما تسجل الموسوعة أنّ ممثلين عرباً وأجانب لمعوا في السينما المصرية منها اليونانية كيتي (١٩٢٩-١٩٩١م) التي برعت في الرقص والتمثيل وشاركت إسماعيل ياسين عدداً من أفلامه الكوميدية وإستيفان روستي الذي ولد عام ١٨٩١م لأب نمساوي وشارك في إخراج أول فيلم مصري «ليلى» عام ١٩٢٧م ثم أصبح أشهر شرير خفيف الظل في السينما المصرية.

ومن العرب الذين برزوا في السينما المصرية السوداني إبراهيم خان (١٩٣٢-٢٠٠٧م) واللبنانيون بديعة مصابني (١٨٩٤-١٩٧٤م) التي تزوجت نجيب الريحاني وبشارة واكيم (١٨٨٩-١٩٤٩م) وآسيا (١٩٠٤-١٩٨٦م) -التي أنتجت أيضاً أفلاماً منها «الناصر صلاح الدين» ليوسف شاهين- وإدمون تويما (١٨٩٧-١٩٧٥م) الذي اشتهر بدور مدرس اللغة الفرنسية ومن أفلامه «دعاء الكروان» بطولة فاتن حمامة.

وتسجل الموسوعة أنّ السنوات الأخيرة شهدت عدداً أقل من المشاركات العربية بالتمثيل في أفلام مصرية.. ومن السوريين الذين شاركوا في أفلام مصرية جومانا مراد وباسم ياخور، وسلاف فواخرجي ومن تونس الممثلة درة ومن المغرب سناء موزيان ومن الأردن فيدرا (فرح).

كما تسجل أنّ مشاركة ممثلين في فيلم واحد مثل أنور أحمد (١٩١٣-١٩٨٤م) وهو كاتب وناقد فني اختاره المخرج أحمد بدرخان لبطولة فيلم «مصطفى كامل» ١٩٥٢م عن حياة الزعيم المصري البارز. كما شاركت سميحة مراد ابنة المطرب زكي مراد وشقيقة ليلى ومنير مراد عام ١٩٥١م في

التمثيل في فيلم واحد هو «طيش الشباب» لأحمد كامل مرسي. وشاركت المطربة المغربية سميرة سعيد في فيلم واحد هو «سأكتب اسمك على الرمال» الذي أخرجه المغربي عبد الله مصباحي عام ١٩٧٩م وقام ببطولته الممثل المصري عزت العلايلي.

أمّا الموسيقيون الممثلون فكان نصيب الموسيقي المصري رياض السنباطي (١٩٠٦-١٩٨١م) -الذي لحَّن أروع ما غنت أم كلثوم- فيلماً واحداً هو «حبيب قلبي» ١٩٥٢م وشارك محمد الموجي ملحن أغنيتي «أسأل روحك» و«للصبر حدود» لأم كلثوم بثلاثة أفلام آخرها «العزّاب الثلاثة».(٢)

كنوز مغربية غير مادية تحت الحماية الدولية:

أقرت منظمة اليونيسكو قبل أيام قليلة اتفاقيتين لحماية الإرث الحضاري بشقيه المادي، وغير المادي والتراث الطبيعي، والصناعات التقليدية في المغرب، واعتبرت فيهما الرباط مدينة تاريخية.

وتتيح هاتان الاتفاقيتان أهمية خاصة للعاملين في مجال الثقافة والفنون والسياحة والآثار، المؤاخاة مع مدن، وعواصم تاريخية في أنحاء العالم كافة، ومن خلال ذلك سيتم توطيد أوثق العرى للتعاون الدولي لحماية الآثار والمعالم التاريخية، والمهن والحرف التقليدية، التي يعتبرها المهتمون بهذا الشأن الثقافي والفني ذخراً طبيعياً من ذخائر المعارف الإنسانية، ووسيلة للتعارف بين الشعوب من خلال النظر إلى تأريخها من خلال تشابه الفنون التقليدية، ونبوغ المهارات البشرية في جعل حياة الناس أكثر متعة وحيوية، وغرز مفاهيم الحب والألفة والسلام بين شعوب الأرض المختلفة دينياً وإثنياً.

ومن المواقع المغربية التي صنفت بلائحة التراث العالمي، وهي تسعة مواقع، تبدأ بمدينة فاس التي تم تحديدها كموقع ثقافي وتاريخي مهم، منذ عام ١٩٨٠م ومدينة مراكش عام ١٩٨٥م، قصر آيت حدو بن حدو عام ١٩٨٧م، مدينة مكناس عام ١٩٩٦م، موقع وليلي الأثري عام ١٩٩٧م، مدينة تطوان عام ١٩٩٧م، مدينة الصويرة عام ٢٠٠١م، والحي البرتغالي مازغان الجديدة عام ٢٠٠٤م، وآخرها كما أسلفنا مدينة الرباط عام ٢٠١٢م.

ويعود التشريع الدولي لحماية الآثار والمعالم التاريخية، والثقافية في العالم إلى

العام ١٩٧٢م الذي كتب تحت عنوان اتفاقية حماية التراث الثقافي والطبيعي، كأداة قانونية دولية للمحافظة على الممتلكات الثقافية والطبيعية العالمية المتميزة، والتي تنطبق عليها المعايير التي حددتها النصوص القانونية للاتفاقية الدولية، وقد صادق عليها المغرب منذ ٢٨ أكتوبر عام ١٩٧٥م، وجعلتها وزارة الثقافة المغربية من أولويات اهتماماتها وذلك من خلال تنفيذها لبنودها ومتابعة ما يستجدّ من القائمين عليها من توصيات.

وكانت منظمة اليونسكو قد أصدرت عام ٢٠٠٣م تعليمات إضافية لحماية التراث الثقافي غير المادي، وقد هدفت التعليمات إلى حماية التراث غير المادي من خلال رد الاعتبار للثقافات المحلية، والتعريف بأهميتها، وتوفير الإمكانيات اللازمة لحمايتها، ونقلها للأجيال القادمة.[٣]

روجر ألين يفوز بجائزة سيف غباش:

فاز المترجم البريطاني روجر ألين بجائزة سيف غباش - بانيبال للترجمة الأدبية من العربية إلى الإنكليزية للعام ٢٠١٢م عن ترجمته لرواية «انتحار مسلم»، للكاتب المغربي بنسالم حميش، والتي صدرت ترجمتها الإنكليزية عن مطبوعات جامعة سيراكيوس الأميركية. وكانت هذه الرواية قد صدرت بالعربية عن دار «الآداب» اللبنانية في العام ٢٠٠٧م تحت عنوان «هذا الأندلسي».

وقد منحت لجنة التحكيم المرتبة الثانية للمترجم همفري ديفيز عن ترجمته لكتاب I WAS BORN THERE، I WAS BORN HERE. للكاتب الفلسطيني مريد البرغوثي، الصادر عن دار بلومزبيري البريطانية. والكتاب صادر بالعربية عن دار رياض الريس في بيروت تحت عنوان «ولدتُ هناك، ولدتُ هنا».

تألفت لجنة التحكيم للعام ٢٠١٢م من الكاتبة والشاعرة روث باديل، الكاتب والشاعر فاضل العزاوي، الكاتبة إيستير فرويد والمترجم جون بيت. وقد اجتمعت اللجنة تحت إشراف سكرتيرة جمعية المؤلفين البريطانيين باولا جونسون. وجاء في تعليق لجنة التحكيم على فوز روجر ألين: «رواية (انتحار مسلم) عمل طموح يضم قدراً كبيراً من المعلومات، ويكشف لنا كذلك جوانب تاريخية وثقافية ودينية عديدة من التراث الإسلامي. وتنطوي قراءة هذه الرواية على

متعة كبيرة، وتشي ترجمتها إلى الإنكليزية بثراء كبير. ويعزى ذلك بصورة رئيسية إلى مهارة المترجم وسعة أفقه ومعرفته اللغوية وثقافته. ومن الصعوبة بمكان أن نتخيّل أحداً (إلى جانب) روجر ألين، يستطيع أن يجعل هذا الكتاب الجاد مشوقاً للقارئ الإنكليزي بكل هذه الحيوية والجمالية. ويستطيع كل من يتصفّح، ولو بعجالة، بضع صفحات من النص الأصلي باللغة العربية، أن يقرّ على الفور بأنّ هذه الترجمة إنجاز حقيقي».

وختمت اللجنة تعليقها بالقول: «لقد أثبت لنا روجر ألين في ترجمته مدى إتقانه وسعة ثقافته وفهمه العميق للغة. ولم ينجح المترجم، بأسلوبه الرائع، بترجمة نص حميش بلغة نثرية سلسة رائعة إلى اللغة الإنكليزية فحسب، بل أفلح أيضاً في جعلها تحفة أدبية حقيقية، جعلت جميع أعضاء لجنة التحكيم تُعجب برفعة هذا الكتاب الرائع وطموحه، وبالسلاسة التي تُرجم بها».

وعلّقت أليس فايفر، مديرة منشورات جامعة سيراكوس، التي نشرت الرواية، قائلة: «إنه لمن دواعي سرور وغبطة منشورات جامعة سيراكوس أن يحصل روجر ألين على هذه الجائزة المرموقة. وستوجّه هذه الجائزة التي حصل عليها بجدارة انتباه القرّاء إلى رواية بنسالم حميش الرائعة».

يذكر أنَّ روجر ألين، حاصل على دكتوراه في الأدب العربي المقارن من جامعة أوكسفورد سنة ١٩٦٨م ويعتبر أوّل طالب يحصل على هذه الشهادة تحت إشراف الدكتور محمد بدوي. وبعد تخرجه مباشرة عيّن ألين أستاذاً لمادة الأدب العربي المقارن في جامعة بنسلفانيا الأميركية، وظل في عمله هذا لمدة ٤٣ سنة. وقد أسهم بشكل فعال في تنمية وتطوير مناهج تدريس اللغة العربية في المدارس والجامعات الأميركية. كما قام بترجمة العديد من الأعمال الأدبية لنجيب محفوظ، جبرا إبراهيم جبرا، يوسف إدريس، عبد الرحمن منيف، مي تلمساني، حنان الشيخ، وبنسالم حميش. وكتب مقالات ودراسات عديدة في السرد العربي المعاصر.

وجاء في تعليق لجنة التحكيم عن ترجمة رواية «ولدتُ هناك، ولدتُ هنا» التي قام بها المترجم المعروف همفري ديفيز، ما يلي: «لا ريب أنَّ همفري ديفيز هو أحد سادة الترجمة من اللغة العربية إلى الإنكليزية». فهو يعرف كيف يختار الكلمات بدقة،

والجرس اللغوي الملائم لنصّه المترجم. وفي ترجمته لمذكرات مريد البرغوثي الموسومة «ولدتُ هناك، ولدتُ هنا»، نرى أنه يمسك مرة أخرى بروح النصّ الأصلي، ويجعلنا نلمس جمال نثره بالإنكليزية ونستمتع به. ترجمة سلسة لكتاب رصين، مليء بالأفكار ومؤثر. تمكن المترجم من إدارة ذلك الشيء النادر - لكي يجعلك تشعر بأنّك تقرأ الرواية باللغة التي كتبت بها. إنَّ ديفيز أنموذج حقيقي للمترجمين في عمله هذا.

وقد علق كبير المحررين في بلومزبيري لندن، بيل سوانسون قائلاً: نحن نفتخر في بلومزبيري بنشره كتاب «ولدتُ هناك، ولدتُ هنا» بترجمة فخمة من همفري ديفيز. وهذا الكتاب المؤثر هو تتمة لمذكرات مريد البرغوثي الشهيرة «رأيت رام الله». وهذه الجائزة وسام للمترجم وللمؤلف معاً.

وتمنح جائزة سيف غباش - بانيبال السنوية البالغة قيمتها ثلاثة آلاف جنيه إسترليني إلى المترجم الذي يقوم بترجمة عمل أدبي عربي إبداعي كامل إلى اللغة الإنكليزية يتمتع بأهمية أدبية. ويقوم عمر سيف غباش برعاية الجائزة ودعمها إحياء لذكرى والده الراحل سيف غباش من خلال إطلاق اسمه على الجائزة. وكان الراحل سيف غباش، من الشخصيات الدبلوماسية والفكرية الهامة في دولة الإمارات العربية المتحدة، ومن عشاق الأدب العربي والآداب الأخرى.

وتشرف جمعية المؤلفين في المملكة المتحدة على إدارة جائزة سيف غباش- بانيبال، مع عدد من الجوائز المعروفة في المملكة المتحدة للترجمات الأدبية، مثل «جائزة سكوت مونكريف» من الفرنسية، «جائزة شيفيل - تيك» من الألمانية، «جائزة جون فلوريو» من الإيطالية، «جائزة بريميو فاله إينيلان» من الإسبانية، و«جائزة برنارد شو» من السويدية. وجميع هذه الجوائز ستمنح للفائزين يوم ٤ فبراير/ شباط المقبل في حفل كبير في قاعة كينغ بلاص في لندن، برعاية المركز البريطاني للترجمة الأدبية، بالتعاون مع جمعية المؤلفين البريطانيين وملحق التايمز الأدبي الشهير.[٤]

مؤلف «شيفرة دافنتشي» يدخل جحيم دانتي:

يستعد دين براون، الذي اشتهر بروايته المثيرة للنقاش «شيفرة دافنتشي»، لإصدار روايته الجديدة بعنوان «انفيرنو» المستمدة

من رائعة دانتي «الكوميديا الإلهية» لتبصر النور في شهر أيار/مايو من العام الجاري.

وسيبلغ عدد النسخ في أوّل إصدار ٤ ملايين كتاب عن مغامرات جديدة لروبرت لا نغدون أستاذ التاريخ في جامعة هارفارد، الذي عرفه العالم بطلاً لرواية «شيفرة دافنتشي»، وستتمحور الأحداث حول الجزء الأول من «الكوميديا الإلهية» أعظم أعمال الكاتب الشاعر الإيطالي دانتي أليغييري، وهذا الجزء يحمل عنوان «الجحيم».

وكتب براون على موقعه الرسمي «على الرغم من تعمقي بدراسة «الجحيم» عندما كنت طالباً جامعياً، إلا أنني الآن فقط أدركت التأثير المتواصل لأعمال دانتي على العالم المعاصر، وأدعو قرّاء رواياتي الجديدة لخوض رحلة إلى عالم الرموز والشيفرات الغامض».

ونال دين براون شهرة عالمية بعد صدور روايته «شيفرة دافنتشي» عام ٢٠٠٣م، وهي الجزء الثاني من روايته «الملائكة والشياطين» الصادرة في عام ٢٠٠٠م، وانتشر هذا العمل حول العالم بلمح البصر إذا طبع منه أكثر من ٨٠ مليون نسخة ترجمت إلى ٤٤ لغة، كما صور فيلم سينمائي عنه في عام ٢٠٠٦م من بطولة توم هانكس، وفي عام ٢٠٠٩م صدر آخر أعمال براون بعنوان «الرمز المفقود» الذي أصبح من أكثر الكتب مبيعاً على الفور.

وكتب الإيطالي دانتي أليغييري الكوميديا الإلهية منذ عام ١٣٠٨م حتى وفاته في عام ١٣٢١م، لتعد من أهم وأبرز الملحمات الشعرية في الأدب الإيطالي، ويرى الكثيرون بأنها من أفضل الأعمال الأدبية على المستوى العالمي. وتحتوي الملحمة الشعرية على نظرة خيالية بالاستعانة بالعناصر المجازية حول الآخرة، بحسب الديانة المسيحية، وكذلك فلسفة القرون الوسطى، وتتألف من ثلاثة أقسام رئيسية هي الجحيم والمطهر والجنة، وتؤكد دراسات عدة أنّ الكوميديا الإلهية هي النسخة الأوروبية المقلدة عن رسالة الغفران لأبي العلاء المعري.(٥)

لوحة للملكة إليزابيث الثانية تعرض بعد حجب دام ٦٠ عاماً:

رفع الحظر المفروض عن لوحة رسمت لملكة بريطانيا إليزابيث الثانية منعت من العرض لمدة ستين عاماً، حيث خرجت اللوحة إلى العرض في مبنى سانت جورج في ليفربول، بعد ستة عقود من وضعها في مجلس الأمانات.

وقال النائب عن ليفربول اللورد غاري ميلار: «إننا فخورون جداً بأن ليفربول تملك حالياً أوّل لوحة أصلية معلقة على حائط مبنى «سانت جورج هول»، حيث تم تعليقها احتفالاً بذكرى اعتلاء الملكة العرش».

وأضاف: «ستكون اللوحة أوّل ما سيقع عليه نظر الزائرين الذين يحضرون إلى المبنى لعقد قرانهم أو لتسجيل زواج مدني أو حلف قسم اكتساب الجنسية».

وتحمل التحفة الفنية توقيع الرسام جون نابر، وتعود لعام ١٩٥٢م، وتظهر فيها الملكة بعنق طويل جداً، حتى إنَّ الرسام نفسه وصف اللوحة بـ«رسم جميل جداً للملكة، لكنه ليس الملكة».

ورسم نابر الذي توفي عام ٢٠٠١م لوحة أخرى للملكة مع عنق أقصر، بعد أن تمّ رفض اللوحة الأصلية من قبل مجلس الأمانات. وما زالت اللوحة الثانية معلقة في مبنى تاون هول في ليفربول.

وقالت أرملة الفنان، بولين: «أذكر اللوحة بشكل جيد. لقد خاب أمله للزاوية التي اعتمدها لرسم الملكة، لقد سمح له بجلسة واحدة فقط مع الملكة لرسمها».

وأشارت إلى أنه «إذا نظرت إلى اللوحة من الزاوية التي رسمها منها، سترى العنق طبيعي الحجم. وعندما تمّ عرض اللوحة على الملكة لم يتم تعليقها في مكان مرتفع، لذا لم تبدُ الصورة شبيهة بالملكة»، وأضافت أنَّ الرسام كان ليفخر برؤية اللوحة تعرض الآن لو كان حيّاً.

ويأتي الكشف عن هذه اللوحة بعيد عرض لوحة لدوقة كامبريدج رسمها بول إمسلي، واتهمه فيها بعض النقاد بجعل الدوقة تبدو أكبر من سنها الحقيقي.(٦)

وفاة المخرج مايكل وينر عن ٧٧ عاماً:

توفي المخرج الأكثر شهرة وإثارة للجدل مايكل وينر الذي تميز بسلسلة أفلام (أمنية الموت) «بطولة تشارلز برونسون»، في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي بمنزله في لندن يوم الاثنين عن ٧٧ عاماً. وفي بيان لوسائل الإعلام قالت زوجته جيرالدين «لقد انطفأ نور حياتي». وأعاد وينر اكتشاف نفسه في السنوات الأخيرة كناقد للمطاعم، واعتلَّت صحته لبعض الوقت إلى أن كشف في الصيف الماضي أن الأطباء قالوا أنه لن يعيش سوى ١٨ شهراً بسبب مشاكل في القلب والكبد. وقال في مقابلة في وقت لاحق أنه يدرس الذهاب إلى عيادة تساعد على الموت في سويسرا.

امتدت رحلة وينر السينمائية لنحو ٤٠ عاماً أخرج خلالها أكثر من ٣٠ فيلماً روائياً بما في ذلك سلسلة (أمنية الموت) والفيلم (الويسترن) الشهير «رجل القانون» الذي قام ببطولته برت لانكستر.

يدور الفيلم حول رجل مؤمن بالقانون، مقابل لا شيء، وحتى على حساب سعادته الشخصية.

عمل وينر مع بعض أكبر نجوم هوليوود ومن بينهم مارلون براندو وروبرت ميتشوم وفاي دوناواي لكن نجاحه تأثر بصورته المثيرة للجدل في بريطانيا كشخص مترف لم يفعل شيئاً لإخفاء ثروته. وكان من المعجبين بالأغذية والمطاعم الجيدة، فأصبح ناقداً للمطاعم، وله عمود أسبوعي في جريدة «الديلي ميل» للفت أنظار الجمهور إلى المطاعم الممتازة والراقية. وله كتابان شهيران في هذا المجال: «عشاءات وينر» و«حياتي في المطاعم وأماكن أخرى». وفي التسعينيات كان لـه سلسلة تلفزيونية عنوانها: «جرائم مايكل وينر الحقيقية».(٧)

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW.SANA.ORG.

٢- موقع ميدل إيست أون لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO.

٣- وكالة المغرب العربي للأنباء WWW.MAP.CO.MA.

٤- موقع العرب أونلاين WW.ARABONLINE.CO.

٥- أنباء موسكو /نوفوش AR.RIAN.RU.

٦- موقع بي بي سي WWW.BBC.CO.UK/ARABIC

٧- موقع إيلاف WWW.ELAPH.COM.

وللنثر ديوانه الخاص والمثير، ولأدونيس ذائقته

د. إسماعيل مروة ❁

قد لا أغالي إنَّ قلت: إن (ديوان النثر العربي) الذي صنعه أدونيس الشاعر الكبير هو واحد من أهم كتبه على الإطلاق وأكثرها غنى، وأعمقها تعبيراً عن الشاعر ورؤيته وهويته بعيداً عن مسرحه الشعري، لصيقاً بميدانه النقدي التذوقي الذي ظهر جلياً في (الثابت والمتحول) وها هو يستمر ليصل قمة الذائقة والتذوق والعمق المعرفي والنقدي في (ديوان النثر العربي) ومع كل ما يحمله هذا الكتاب لم يحظ بما يستحق من اهتمام ومتابعة، وذلك حسب زعمي يعود لأسباب كثيرة أهمها الواقع العربي الذي أمسى الحليم فيه حيراناً، فضاعت فيه الكلمة، وأمسى الحديث لأشياء أخرى لا تقترب من الحرف والكتاب. وكذلك أزعم أنَّ الظرف المحيط بصدور أي كتاب معرفي يتحكم فيه وفي انتشاره، إضافة إلى أنَّ هذا الكتاب لم



يصب ما أصابته كتب أدونيس الأخرى من عناية لائقة بالمحتوى واسم المؤلف، فبقي نشره ضيقاً لم يخدم كما يجب، فانحصرت النظرة إليه على أنه كتاب مختارات!!

❁ كاتب وأديب وشاعر وأستاذ جامعي.

الذائقة والاختيار: إن جنح عدد لا بأس به من المصنفين إلى الاختيار، فأذهب بعضهم ما للاختيارات من قيمة وأهمية، فإن ذلك لا يخرج بالاختيار عن أهميته، وحسبنا أن نعرف أن أشهر الاختيارات قام عليها أفذاذ في الشعر. فحماسة أبي تمام لم تصدر عن مصنف عادي يبحث عن عمل، وإنما صدرت عن شاعر من فحول الشعراء العباسيين، فاختار من العيون عيونها، ومن الشعر أعلاه، فكانت حماسته في ميادين التصنيف بدعاً، لا تختلف قيمة عن ديوانه وشعره المتفوق، بل إن النقاد وجدوا تفوقاً في هذه المختارات على إبداع الشاعر، فهو الذي تخلى عن أناه الخاصة، واختار للشعراء السابقين أشعاراً أخلص لها ولاختيارها، وعندما يقوم شخص مثل أبي تمام بهذه الخطوة، فهذا بحد ذاته حكم نقدي عالي المستوى لا يتهيأ للآخرين، والحكم بتفوق الآخر إن كان صادراً عن متفوق كان أعلى رتبة ومكانة من أي حكم آخر..

والدليل على ذلك أنَّ هذه الخطوة التي بدأها أبو تمام تابعه عليها المتفوقون من المبدعين الشعراء مثل البحتري والخالديين وغيرهم من الذين أدركوا أن هذه الاختيارات (الحماسة) ستكون جزءاً من بقاء أبي تمام، وإن ضاع شعره، فقاموا بالصناعة على نهجه، وربما أخذوا من قواعده ونصوصه، لكنهم لم يبلغوا مكانته التي وصلها قبل أن يصلوا.. حتى عندما جاء المصنفون والنقاد من أمثال: ابن الشجري، البصري وغيرهم، وصنفوا حماساتهم بقيت من دون حماسة أبي تمام لريادته أولاً، ولمكانته الإبداعية التي تضع النص الشعري في مكانته وخانته.. لذا كثرت شروح حماسة أبي تمام، واهتم التابعون بها مثل المرزوقي والتبريزي وغيرهما، في حين لم تجد الحماسات الأخرى على قيمتها العناية ذاتها.. قصدت إلى هذا الحديث الذي يعرفه دارسو الأدب أكثر مني لأنني أتحدث عن أهمية أن يقوم المبدع الكبير من وزن أدونيس بتخصيص وقته وجهده لنبش التراث واستخلاص دواوينه، لصنع ديوان من المختارات، في الوقت الذي كان من الممكن أن يصنع نصاً ذاتياً خاصاً به، ومن هذا شهادة لأدونيس لا ينتظرها في عمق معرفته وسعتها وامتدادها العمودي في التراث، وكذلك أستشف أنا منها مصادر أدونيس المعرفية شعراً ونثراً، والمؤثرات التي أسهمت في تشكيل وعي فريد في حداثتنا الفكرية والشعرية، وأدونيس سواء اتفقنا معه أو اختلفنا هو أهم المنارات الفكرية الحداثية، إذ لم يقتصر على نص شعري تقليدي أو حداثي، بل كان ناقداً مهماً قرأ كما يجب أن يقرأ، وفق عملية تجاوزت التذوقية ولكنها احتفظت بها منطلقاً، وكان

باحثـاً مهماً، وقدم أبحاثاً تحولت إلى صوىً اهتـدى بها الكثـيرون، وصنعـوا لأنفسهم تاريخاً ورؤية على حسابه وإن تنكروا له فيما بعد، وكان شاعـراً رؤيوياً عارفاً متبحراً في منطلق الشعر ومآله في كل رحلته، وكان فناناً تشكيلياً ورساماً من الطراز الفريد، ولوحاته التـي تزيـن كتبه دليـل على ذلـك.. وكان مترجماً من الصنف الفريد الذي يعطي من روحه للنص المترجم، ليجعله قطعة من ذاته كمـا فعل في (تحولات) أوفيد الصادر بحلة أنيقة عن دار التكوين بدمشق.. وبعد ديوان الشعـر جاء ديوان النثر ليكمل مع (الكتاب) رؤيـة أدونيس الأدبية المتكاملة التي تستحق منا وقفة متأملة، ودراسات عديدة للوصول إلى عمق الرؤية وكنه الاكتشاف الذي وصل إليه مـن دون سواه، وأعطاه اهتمامه ليفتح الآفاق واسعة أمام القارئ والناقد والمثقف، وكأنه يقول: هـؤلاء شكلوني لذلك اخترتهم ولم أتنكر لهم. فماذا عمن أسهم أدونيس في تشكيلهـم وتسويقهـم والترويـج لهم بحكم المعايشة ثم انقلبوا من أجل مصالح غيرهم ورغائبهـم؟ لهـذه الأهمية، ولهـذه القيمة أحزن وأنا أجد جهداً تذوقياً نقدياً كبيراً لا يحظى بالاهتمام اللائق، وأنا على يقين بأنه سيسـرق وينسب للآخريـن الذين لم يقرؤوا لهؤلاء من قبل.

أدونيس ناقـداً: يقدم أدونيس لكتاب في أربعة مجلدات بإحدى عشرة صفحة، في كل سطر منهـا حكم نقدي مهـم وخاص جداً يستخلـص التجربة ليقدم مـا نعرفه وما قرأنـاه وبعبارات موجزة مكثفة للغاية، ومن ثم ليقدم لنا حكمـاً نقدياً قد يكون صادماً لمن يريد التاريخ ليعيش فيه ويقدسه، ويكون مرشـداً لمن أراده منطلقـاً إلى غايات ليس بإمـكان من رحلوا أن يعيشـوا فيها بعد أن غادروا..

يؤكد أدونيس على أنّ النثر العربي قارة شبه مجهولة، وقال (شبه)، ولم يقل (مجهولة)، مع أنها مجهولة حقاً، ومجهولة تماماً من أبناء العربية، ولكن حرصاً على الموضوعية يختار «شبه» ويقدم للنثر صفته اللائقة، فهو مفهوم الكتابة، والشعر مفهوم المشافهة، إضافة إلى أن الشعر أكثر ذيوعاً وانتشاراً لسهولة حفظه وتناقله بسبب قوافيه وتفعيلاته، بينما النثر لا يحفظـه حتى صاحبـه لقيامه على فعل الكتابة والمحاكمة، وهذا يصعّب من حفظه، فيبقى حبيس الملفـات والمصنفات، ولا يتم تناقله على الألسنة.

مـن الصفحـة الأولى في مدخلـه يبين أدونيس غايته، فما يعمل من أجله الناس في مؤسساتنـا الثقافية (لا معنـى لما يأتي من بعـد، إلا إذا كان مطابقاً لـما كان من قبل) يريد أدونيس فكراً مختلفاً (لا معنى لما يأتي

من بعد، إذا كان مطابقاً لما كان من قبل) وهذه حقيقة نعاني منها، فنحن عموماً نسعى إلى أن نتمثل الماضي ونعيشه، ونقيس مدى نجاحنا أو إخفاقنا من التزامنا بما كان، وكأن المطلوب منا أن نعيش في الماضي ودائرته الحياتية التامة ولا نخرج منها، مستغنين عن كل خصوصية! هذا ما يرفضه أدونيس بنص صريح، بل ويقيس مدى النجاح وقوة المعنى، بأنه لا معنى لما نقوم به إذا تطابق مع ما مضى، أي بعبارة أخرى يجب ألا يتطابق، ويجب أن يصبح مخالفاً، وإلا عشنا حياة غيرنا، ولم نعط اللاحقين بنا أي خصوصية من تجاربنا.. والسؤال المهم الآن: ألا تكمن إخفاقاتنا في كثير من المناحي في أننا نحيا حياة سابقة؟ ألم نستغن عن خصوصيتنا لأننا نجد أن الأقدمين أكثر براعة ونجاحاً؟!

كلنا ندرك هذا، لكن أدونيس هو الذي عبر صراحة عمّا نريد، وعمّا يمكن أن يكون من إسهاماتنا بين حاضر وماض ومستقبل.. وهنا تكمن لفتة الذكاء الإبداعية، فهو سيتركنا لنصوص النثر العربي لنتذوقها وندرك اختلافنا عنها، لا لنبحث عن التطابق معها.

فهذه النصوص، وإن كانت مصادرنا، فإننا نختلف عنها بفعل الزمن.

الديوان والنثر: يستنجد أدونيس بالمعجم لتحديد معنى كلمة (الديوان) الفارسية الأصل المعرَّبة، ويعرض معانيها المتعددة ليصل إلى إمكانية استخدامها في الحديث عن النثر في إطار الجمع على أقل تقدير، ومن ثم يستعين بالجاحظ لبيان رأيه العالي في النثر وسموِّه على الشعر حتى في المرتبة، وإن كان الشعر ثقافة المشافهة على حد تعبير أدونيس، فإنَّ النثر ثقافة الكتابة، وإن كان الشعر ثقافة البداوة كما استخلص، فإنَّ النثر ثقافة التحضر والمدنية، وفي ذلك يقول شاعرنا وناثرنا أدونيس (يصدر النثر العربي، كما يبدو في هذا العمل عن ثقافة مركَّبة وصفها الجاحظ بأنها.. ثقافة الأذهان اللطيفة، والتدابير العجيبة، والعلوم الغريبة وهو إذاً، ظاهرة مدينية مدنية).

ومن هذه المنطلقات يبدأ أدونيس في التمييز بين الظاهرتين الشعرية والنثرية، ليميز تمييزاً واضحاً بينهما، مبيناً أن نظرتنا وقراءتنا للنص المجمل هي التي أبعدت النص النثري عن الواجهة مع ما كان يمكن أن يتركه من أثر إيجابي، وسنجد لاحقاً أنَّ النظرة الأدونيسية للشعر والنثر هي التي تحدد مكانة النثر، وتنقله مرتبة أقرب إلى الإيقاع، حين يستخلص من النص النثري خلاصته وزبدته التي من أجلها كان النص النثري المجمل.

ولابدَّ من الانتباه قبل مغادرة المقدمة إلى الغاية التي أرادها أدونيس من إنصاف النص النثري عموماً، والنص النثري الصوفي خاصة، وأظن أن ما فعله أدونيس في هذه المقدمة، وفي هذا الديوان هو المحاولة الأولى لإنصاف النثر، وتبويبه بين نص نثري أدبي خالص لقضايا عامة، ونص نثري صوفي أدبي، ويتبينا عن ذلك أنه خصّ المجلدين الأولين للنثر العربي من دون توصيف، والمجلدين الثالث والرابع للنثر الصوفي، والوعي الذي انطلق منهق أدونيس هو الذي جعله يشير في مقدمة المدخل إلى النثر الصوفي، ويدافع عنه: أمّا بالنسبة إلى النثر الصوفي، فإنَّ المختارات التي انتقيتها منه تساعد على التحرر من الأحكام الشائعة عن التصوف، وهي إجمالا أحكام سطحية، وخاصة تلك التي يطلقها باسم العقلانية، بعض المفكرين العرب، وتلك التي يطلقها باسم الدين، المتدينون السلفيون، وتلك التي يطلقها باسم التقدم بعض الكتّاب ممن يعمل في الحقل السياسي.

كلا، ليس التصوف سحراً أو شعوذة كما يرى أهل العقلانية، وليس كفراً أو مروقاً أو زندقة، كما يرى أهل السلفية والأصوليات، وليس انعزالاً أو دروشة كما يرى أهل النضال والسياسة، التصوف حركة تضع أصحابها في حالة انعتاق كامل، على جميع المستويات. إنه في المقام الأول، نظام قائم على التناغم والحب، يكتشفه كل فرد بنفسه لا بالوساطة. وهو نظام قائم على رفض مبدأ السلطة، وكل مثال أو أنموذج مسبق جاهز.

إنه مناخ معرفي لهدم سلطة الخارج وبناء سلطة القلب. والمعرفة هنا نقيض للمعرفة في تحديدها الوثيق العلاقة بإنتاج السلطة. ذلك أنَّ المعرفة، في التصوف، إنما هي تجسيد للحرية، بينما السلطة تجسيد للاستبداد. هكذا يعمل التصوف على تغيير الحياة، بدءاً من تغيير الفرد. فتغيير الحياة -الموضوع مشروط بتغيير الحياة- الذات. وفي هذا الأفق، يبدو التصوف حركة فنية، إلى جانب كونه حركة معرفية -فكرية).

إن ما يلامسه أدونيس في فهم التصوف العميق لا يقوم على مبدأ أيديولوجي أو انتمائي، بقدر ما يقوم على فهم عميق للنص الأدبي النثري، وارتباطه بالواقع، ومن هنا تأتي أهمية إشاراته المتعددة إلى العلمانية والدين والسلطة والثورة من قراءة التصوف.. وقد قرأنا دراسات كثيرة تحاول الانتقاص من قيمة التصوف في الحياة والسياسة، ففي الملمات يرون أن المتصوفة منعزلون، وفي الحياة العادية هم أصحاب شطحات ودراويش!!

النثر الذي تركه المتصوفة يؤكد أن هؤلاء الصفوة من الناس الذين عرفوا بالمتصوفة، عملوا على خلق حياة خاصة بهم تجعلهم بعيدين عن المؤثرات الأيديولوجية والدينية والسياسية، ليبقى أحدهم في إطار من الحرية والانعتاق الذي لا يتهيأ لغير الأحرار أن يكونوه؛ إنَّهم نص مفتوح على الانعتاق والحرية، قابل للتأويل والتفسير، ولا يسير كما أراده السابقون أو المعاصرون. إنه فَهْمٌ دقيق وعميق ربما عرفناه ذات لحظة، لكننا لا نملك العدة والخبرة والمعرفة التي امتلكها أدونيس، لذا خاطب دواخلنا وهو يدافع عن التصوف ويخصه بمساحة تصل إلى مساحة النثر العربي كله.

الانتقاء والحياد: جاء المجلدان الأولان في تدرّج ما بين النثر الصادر عن شخصية تاريخية أو حكيمة أو شخصية ذات بعد ديني، أو ذات بعد سياسي، أو ذات مكانة أدبية في النثر أو الشعر، ولاعتماد أدونيس السياق التاريخي، فقد كان من الطبيعي أن يضم المجلد الأول أعداداً أكبر من الناثرين وأقوالهم المختارة، فجاء الأول حاوياً على مئة وخمسة وعشرين ناثراً مع أقوالهم المنتقاة إضافة إلى أشتات الأقوال مجهولة القائل، أو القول المفرد لأحدهم، هذا علاوة عن بعض الأمثال السائرة التي تخدم فكرة أن يكون النثر ديوان العرب وأن يصبح دائراً على الألسنة أشبه ما يكون بجوامع الكلم..

والذي يبعث على التقدير إضافة للجهد هو سعي أدونيس لجمع هذا الديوان بعيداً عن التصنيفات التي تحكم مؤلفاتنا اليوم، فهو يأخذ من دون النظر إلى الميل أو الحكم قبل الإسلام وفيه وبعده، انتقى للمسلم والمرتد، وفي هذا إنصاف واحترام لعقل القارئ، وهو بهذا لا يترك للقارئ الحكم، وإنما يرى أنَّ الحكمة ضالة الإنسان، ويمكن أن يأخذها عن أي شخص، وفي حديثي مع أدونيس وجلساتي معه أعرف موقفه من كثير من الشخصيات والقضايا، ولكنه في الديوان اختار للجميع، وذلك من مبدأ يصر عليه دوماً ويريده وهو مبدأ نخل الموروث، فاختار لقس بن ساعدة وعمرو بن كلثوم، ولأبي طالب، وللرسول صلى الله عليه وسلم مما دعاه النثر النبوي، ولأبي بكر الصديق ومسيلمة، وابن الوليد وابن الخطاب وسلمان الفارسي وعلي بن أبي طالب، وعمرو بن العاص ومعاوية وعائشة وقطري بن الفجاءة وعمر بن عبد العزيز وجرير وهارون الرشيد وابن الراوندي..

وهو بذلك جمع النثر العربي المؤمن والمرتد، وجمع أطياف التاريخ السياسي الإسلامي بكل ألوانه والمؤثرات فيه ليكون ديوانه صورة عن النثر العربي، وإذا ما نظرنا لاختياراته كلها، فإنما تقوم على

الذائقة والانتقاء لتشكيل صورة يمكن أن تنتقل وتحفظ بعد جمعها.

جعادة بن أفلح: ارغب بنفسك عما يتهافت عليه الأرذلون.

حديث شريف: أشد الناس عذاباً للناس، أشد الناس عذاباً يوم القيامة.

عمر بن الخطاب: من دخل على الأغنياء، خرج وهو ساخط على الرزق.

علي بن أبي طالب: احبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.

زياد بن أبيه: لو كان يدري ما الزمان لضربت عنقه. إنَّ الزمان هو السلطان.

محمد بن الحنفية: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف، من لم يجد، من معاشرته بداً.

المهلب بن أبي صفرة: القتال إذا وقع، وقع القضاء، وبطل الخيار.

الحجاج بن يوسف: إنَّ السيف إذا لاقى السيف، ذهب الخيار.

الحسن البصري: اجعل الدنيا كالقنطرة، تجوز عليها ولا تعمرها.

معاوية بن أبي سفيان: عجبت لمن يطلب أمراً بالغلبة وهو يقدر عليه بالحجة.

أبو جعفر المنصور: لا تلتمس من غيرك شكراً ما أسديته إلى نفسك.

وفي الجزء الثاني اختار لخمسين من الناثرين منهم أرباب النثر العربي كالجاحظ والتوحيدي، وجال في أرجاء اللسان العربي من المشرق إلى المغرب والأندلس، واعتمد الطريقة نفسها في الاختيار، لكنه زاد لمن يعرف واشتهر بالنثر الفني والكتابة، وأصرّ أيضاً مع اختيار جوامع الكلم لهؤلاء، وتميزت مختاراته كما في الأول بمعانقة النفس الإنسانية، وتثوير الحس الإنساني بالقيم النبيلة التي تعلي الإنسان وشأنه وحياته:

الجاحظ: إذا كان الحب يعمي عن المساوئ، فإنَّ البغض يعمي عن الحقائق.

الرازي: إنَّ أهل الشرائع أخذوا الدين عن رؤسائهم بالتقليد.

الصابئ: مآرب الناس منزلة بحسب قربها من هزل أو جد.

ابن عباد: الضمائر الصحاح، أبلغ من الألسنة الفصاح.

بديع الزمان: غضب العاشق أقصر عمراً من أن ينتظر عذراً.

التوحيدي: الهوى مركبي، والهدى مطلبي، فلا أنا أنزل عن مركبي، ولا أنا أصل إلى مطلبي.

ابن مسكويه: المصيبة واحدة، فإن جزعت فهي اثنتان.

وللتصوف الخالص نثره: إنَّ قارئ ديوان النثر العربي يلمس أن أغلب النثر يندرج في إطار الحكمة، ويدعو إلى الفضيلة والزهد، وفي الاختيارات التي انتقيتها من النثر ما يدل على ذلك، ولكن أدونيس وبأسلوب علمي خالص يبحث في التحديد الدقيق للمصطلح، لذا اختار أن يصنف النثر الصوفي أعلاماً ونثراً في قسم خاص، فجاء القسمان الثالث والرابع خاصين بالنثر الصوفي، فجاء المجلد الثالث ضاماً تسعة وسبعين من المتصوفة، والرابع ضمّ واحداً وثلاثين منهم، وبعد أن تجاوز أدونيس من المجلد الثاني العصر العباسي ليصل إلى الأندلس مكاناً، وختم بمجموعة المصادر والمراجع، عاد في الثالث إلى عصر النبوة من أويس القرني ليتابع مع سفيان الثوري والفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم والبسطامي ورابعة ليصل إلى الحلاج وابن جنيد وغيرهم كثير، ويلاحظ من الاختيار أنَّ أدونيس الزم نفسه منهجاً صارماً، فاختار لمن عرف بالتصوف أسلوباً وحياة وأدباً، وميّز بشدة بين الزهد والتصوف، وهذا ما أشار إليه في المقدمة.. وفي الرابع وقف مع القشيري والغزّال والرفاعي والجيلاني والسهروردي وابن عربي وابن عطاء ليختم بجملة من الأقوال والأفكار غير المنسوبة.

وفي المجلد الرابع الثاني في التصوف جمع أقطاب التصوف من دون النظر إلى الخلاف الذي كان حول أحدهم في عصره من خصومه، وهذا المنهج العلمي ترك لنا كنز التصوف لنفيد منه وننهج نهجه أسلوباً وحياة ونثراً ولنمعن النظر في عمق التصوف وثورته كما أشار أدونيس:

أويس القرني: اللهم من مات جوعاً لا تؤاخذني به، ومن مات عرياناً لا تؤاخذني به.

سفيان الثوري: إذا رأيت عالماً يلوذ بباب سلطان فاعلم أنه لص.

بشر الحافي: الموتى خارج السور أكثر منهم داخل السور.

البسطامي: ما ذكروه إلا بالغفلة، ولا خدموه إلا بالفترة، وأكثر الناس إشارة إليه أبعدهم عنه.

رابعة العدوية: إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟

السهروردي: الرجاء هو ابتهاج النفس بملائم لها أحظرت إمكان حصوله في المستقبل.

ابن عربي: كأس الحب هو القلب من المحب، لا عقله ولا حسّه.

ابن عطا السكندري: الفكرة سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له.

قول غير منسوب: اللهــم ألبسني لباساً، من رآني رآك فيه، ولم يرني.

(ديـوان النثر العربـي): كتاب مهم صنفه أدونيس ليقــدم نماذج عالية من النثر، ومن ثــم عمل من خلاله أدونيس على رفع مكانة النثر إلى المكانة اللائقة، وهو السمة الفكرية المدينية المدنيــة، التي تؤسس لفكر نهضوي عظيــم إن أريد ذلك، بعيــداً عن الشفاهية التي وسمت الشعر العربي بديوان العرب.. من خلال هذا الكتاب قدَّم أدونيس مختارات غاية في القيمة والحكم النقدي، خاصة وأن أدونيس متعمق شعراً ونثراً وفكراً، كتاب يمثل منظــور أدونيس للأدب والحيــاة والفكر.. كتاب يتصدر جهود أدونيس وخلاصة خبرته وتجربته العميقة.

آخر الكلام

رئيس التحرير

حضارة قانون التشابه

رحلتي الطويلة مع الآثار القديمة وكتب التراث العربي،ونتائج ترجمات الرُقم والكتابات المسمارية، كانت ممتعة وغنية ومثمرة، لأنني من خلالها تعرّفت على كنوز عظيمة الأهمية أسفرت عنها مواقع الآثار الرائعة في سورية بكل ما فيها من ريادة وشمولية وفكر متطوّر خلاّق، وقد أثبتت الدراسات التي نُشرت عنها وقام بها نخبة من كبار العلماء والباحثين العرب والأجانب، أن الإنسان القديم في بلادنا، ومنذ عصور ما قبل التاريخ كان دائم المحاولة لتطوير ممارساته ومعارفه وأفكاره وتجاربه ومعتقداته، ومن أولى المظاهر والمحاولات كانت في الفكر والفن، فقد وجدت رسوماته على جدران المغاور في يبرود وتل بقرص وتل الرماد وتل أسود وغيرها..

ويرى الدكتور فوزي رشيد أحد العلماء العرب البارزين في دراسة الخط المسماري وآثار المشرق العربي القديم، أنّ الإنسان القديم في بلادنا أخذ يخطط رسومه على جدران مغاور عميقة يصعب الوصول إليها، والسبب في ذلك يعود إلى أنّ الإنسان

قد شاهد بأم عينيه، أنَّ الجنين الذي ينمو ويكبر ويصبح بعد ولادته شبيهاً بالشيء الذي ولد منه، لا ينمو ولا يكبر إلا داخل البيضة أو الرحم، ذلك المكان المظلم، الذي يصعب الوصول إليه، ولذلك فقد رسم شخوصه السحرية في مغاور فيها إلى حدّ ما مواصفات الأرحام، ومع ذلك فإن هذا التطوير لم يحقق نتائج أكيدة، بل كان يزيد فقط في ثقة الإنسان من الناحية النفسية بقدراته.

إنَّ قانون التشابه هذا، قد اعتمده الإنسان في مشرقنا العربي القديم في ممارسات عديدة، فقد اعتمده في طقس الاستسقاء أي استنزال المطر، وهذا الطقس كان يمارس في الألف السادس قبل الميلاد، من قبل النساء، ويتلخص بأن تقف أربع نساء في وضع متقابل، حيث كل واحدة منهن تكون باتجاه جهة من جهات الكون الأربع، ثم يبدأن بتحريك شعرهن الطويل، ولكن بشرط أن تبدأ عملية التحريك برمي الشعر أولاً باتجاه اليمين، ومن ثم إلى اليسار، والسبب في أن يبدأ التحريك باتجاه اليمين أولاً يعود أيضاً إلى قانون التشابه، حيث إنَّ اليد اليمنى عند معظم البشر هي الأكثر فاعلية، من اليد اليسرى، ولذلك صارت جهة اليمين ترمز إلى الخير، واليسار إلى الحظ السيِّئ، وتحريك الشعر يميناً ويساراً من قبل النساء الأربع يتسبب بالطبع في تحريك الهواء في المكان الذي يقفن عليه، وإيماناً بمبدأ العلل المتشابهة ينتج عنها نتائج متشابهة، اعتقدوا بأنَّ حركة الهواء في المكان الذي تجري فيه عملية الاستسقاء، تتسبب في تحريك الهواء بصورة عامة، مما يجلب الغيوم التي من دونها لا يمكن أن يسقط المطر..

من خلال البحث في الملاحم والأساطير التي خلّفها الإنسان القديم في بلاد الشام وبلاد الرافدين، يرى العلماء أنَّ الإنسان بعد معرفته بالزراعة والسيطرة على موارد غذائه، أي على موارد حياته، بدأ يفكّر بالكيفيّة التي يسيطر بها على مسألة مماته، ولذلك يعتقد بأن أصول أسطورة «إنانا» ونزولها إلى العالم السفلي قد

بدأت بعد ممارسة الإنسان للزراعة، والسبب الذي يدعو إلى هذا الاعتقاد يعود إلى أنَّ بطلة الملحمة امرأة، وهذا ما يتناسب والعبادة التي ظهرت بعد ممارسة الزراعة والمتمثلة بفكرة الخصوبة، حيث اعتمدت طقوسها على النساء فقط، ورمز لها بدمى الإلهة الأم، ووجدت أقدم نماذجها في تل المرابيط، وتل الشيخ حسن في حوض الفرات (منطقة سد الفرات حالياً)، في الألف السابع ق.م.

فكرة الخصوبة تعود إلى الكثرة والتزايد والعدد، وكانت السبب المباشر في أن يتحوّل العدد سبعة إلى رمز يعبّر عن الجمع والكثرة، وقد لجأ الإنسان إلى القمر للمعرفة، والقمر كما نعلم، يحتاج إلى سبعة أيام منذ ظهوره هلالاً، حتى يصبح نصف بدر، وهذه الحقيقة بالنسبة للقمر ساعدت الإنسان لأن يعرّف الأسبوع كأكبر وحدة زمنية من بعد اليوم، لذلك بدأ السكان يعبّرون عن الجمع بالعدد سبعة، على اعتبار أنه أكبر وحدة زمنية عرفها الإنسان، والكتابات المسمارية تحتوي العديد من الأمثلة التي تؤكد استخدام العدد سبعة للدلالة على الجمع والكثرة، فالمقامات كانت عشراً وليست سبعاً، كما يقال، وعجائب الدنيا السبع، هي في الحقيقة أكثر من سبع، ومع ذلك فقد وصفت بالسبع، لأن العدد المذكور لا يدل على نفسه فقط، وإنما يدل على الجمع أيضاً.

هذه الأفكار والتصوّرات البدائية، كانت البداية لتطور الحضارة والفنون والمعارف المختلفة، وكان للآثار ومخلفاتها العديدة التي اكتشفت في مشرقنا القديم دورها الحيوي والمهم في معرفة مكنونات هذا التطور الحضاري الكبير الرائد.

❁ ❁ ❁